حمــدي الجــزَّار

العَروس

ALAROUS

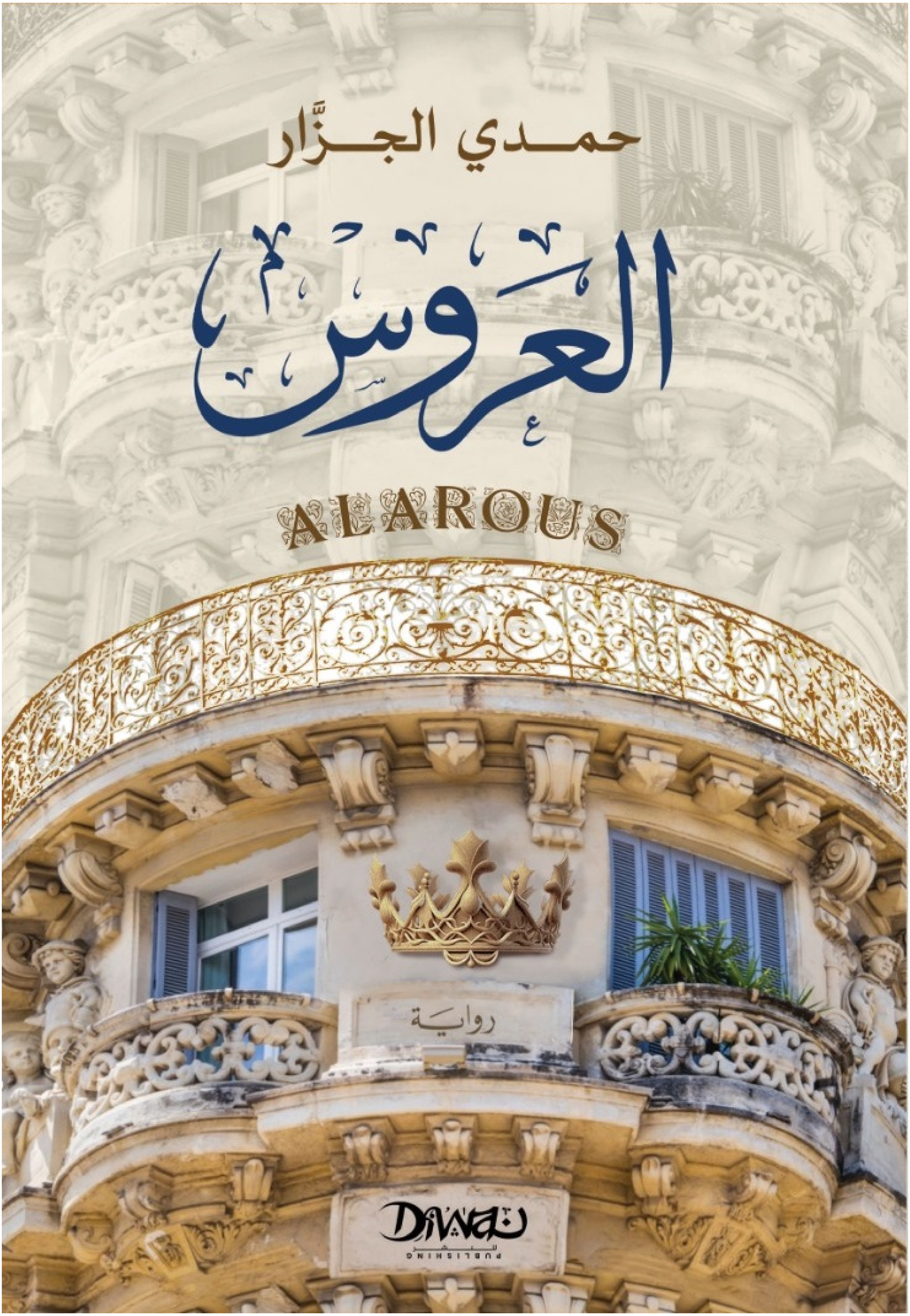

رواية

Diwan
للنشر
PUBLISHING

العَرُوس

حمدي الجزّار

العروس

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ
الاخراج الفني: حسن عصام

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
رقم الإيداع: /٢٠٢٣
الترقيم الدولي: -978-977

Diwan
للنشر
PUBLISHING

www.diwanegypt.com
publishing@diwanegypt.com
Diwan Publishing
diwan.publishing
Diwan Publishing

٦٣ شارع النادي ناصية شارع ٢٥٠ - المعادي - القاهرة

الآراء الواردة في هذا الكتاب تقع تحت مسؤولية المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر
© الحقوق الكاملة محفوظة للناشر.

حمـــدي الجـــزَّار

العروس

ALAROUS

روايـــة

Diwan
للنشر
PUBLISHING

١

ليلة رأس السنة، كانت سيارة خضراء صغيرة تعبر ميدان طلعت حرب بوسط القاهرة، وفوق برجها العتيق بأقصى الميدان، كانت ساعة «مصر للتأمين» قد تجاوزت الثانية عشرة، وتحرك عقرب الثواني الرشيق ودار، فدخل العام الجديد دقيقته الأولى وسائقة السيارة شاردة الوجه، حائرة، خلف الزجاج وعجلة القيادة السوداء.

المقعد إلى جوار المرأة شاغر، والميدان حولها فارغ، خالٍ من مظاهر الاحتفال، وخافت الضوء حول نُصْب من الجرانيت الأسود. في مركز الميدان تمثال الرجل المهيب، عريض الصدر، الواقف فوق قاعدته العالية معتدًّا بذاته، بوجه ممتلئ جاد، وشارب كثيف أنيق، وبين يديه، وذراعيه الممدودتين إلى أسفل خصره، ورقة طويلة، نصفها مفتوح ونصفها الآخر مطوي في لفة.

الرجل يحمل رسالة، وثيقة، شيئًا من هذا القبيل، وينظر بعينين ثاقبتين إلى الشمال، والطربوش يُجلِّل رأسه بالرفعة والنبل، والمرأة القابضة على عجلة القيادة تدير وجهها عن الطريق أمامها، وتنظر إليه من النافذة المفتوحة عن يسارها، يمر بصرها على شخصه والرسالة بين يديه، فتمتعض صفحة وجهها، ويغشاها الأسى.

على بُعد أمتار قليلة من قلب الميدان، توقفت السيارة أمام بناية بشارع قصر النيل، وارتخت يدا المرأة فوق عجلة القيادة. عادت بظهرها إلى الخلف واسترخت في مقعدها، ونظرت إلى الخارج.

أمام عينيها عمارة منحوتة كأنما بإزميل نحات مكين، ترتفع طوابقها السبعة كهرم من دوائر، مُرصَّع بشرفات واسعة ونوافذ صغيرة، وبطابقها الأول أشهر

معالم ليل وسط القاهرة، بمساحة الدور الأرضي كله مطعم فاخر سكنت السيارة قريبًا منه فأظلَّتها أنوار ملونة.

كانت واجهة المطعم ترسل أضواءً لطيفة، وبجوار بابه، فوق فروع لمبات تزين شجرة عيد الميلاد كلما اكتمل قوس القزح تلاشت ألوانه، وانطفأت اللمبات للحظات، ثم عادت بادئة من جديد تنير الواحدة تلو الأخرى بلون مختلف، وفوق الباب لافتة مضيئة بكلمتين، بحروف لغتين: حروف عربية بخط الثلث، وحروف لاتينية بخط مزخرف قديم: العروس Alarous، وإلى جوارها، شعارها المعروف، تاج من الذهب مُرصَّع بالجواهر والألماس، يعد الداخل بمعاملة ملكية.

إلى الخارج، تتسرب أنغام لحن «ليالي الغرام» الشهير، وأعلى واجهة المطعم رسمٌ بالضوء لراقصة ترتدي بدلة أرجوانية، تضع يديها في خاصرتيها، مائلة إلى الأمام بابتسامة مغوية ووجه خمري مُدوَّر، عيناها سوداوان واسعتان تحت حاجبين كهلالين، وشعرها أسود وبني، منثور في حلقات غزيرة.

«هل تحول المطعم العريق إلى كباريه رخيص ترقص فيه بنت مثل هذه»؟

سألت المرأة نفسها، وحنت رأسها.

مرت ثوانٍ ثقيلة قبل أن ترفع وجهها وتنفرج أساريرها قليلاً وهي تتذكر اسم اللحن الذي ينساب من الداخل.

«آه.. آه.. لحن ليالي الغرام».

دندنت مع الأنغام، وبدأت أناملها الرشيقة تنقر عجلة القيادة تحت كفَّيها تضبط الإيقاع، ورقبتها الطويلة تتمايل يمينًا ويسارًا في انسجام. توقفت فجأة وتجمدت حين باغت خيالها مشهد أفزعها، وأخذ يدور في رأسها كعقرب ساعة حائط.

رأت البنت الخمرية ترقص شبه عارية، برشاقة كُوْبرا وفتنتها تتمايل، وتهز نهديها المُدوَّرين كثمرتي رمان، ترفع يديها، تطرقع بأصابع طويلة حمراء

الأظافر، وتنادي رجلاً واحدًا، رجلها هي، ورأت مصدومةً عيني زوجها الفارغتين تلتهمان في شره واستمتاع الصبية المثيرة، التي تصغرها بسنوات.

«هيَّ ترقص وهو يتفرج وينبسط.. بتنادي له! يا سلام»!

تكدرت روحها. التقطت حقيبة يدها الفضية من فوق التابلوه، ونزلت بكعبها العالي طارقة الإسفلت تحت حذائها الأحمر. وقفت مستندة إلى باب سيارتها المفتوح، وزفرت براحة كأنها تحررت من حبسة مقيتة أثارت ضيقها طيلة الطريق من السيدة زينب إلى وسط البلد.

تحركت خطوتين، وصعدت إلى الرصيف، فبانت تحت أضواء واجهة «العروس» امرأة جميلة في عقدها الرابع، لا هي بالسمراء ولا بالبيضاء، خصرها ما زال رشيقًا، وصدرها بارز وافر الثديين تحت فستان سهرة أسود طويل، ووجهها آسر الملامح تحت طرحة حريرية زاهية الألوان، تكشف بعض خصلات شعرها، نازلة على جبينها العريض.

في الشارع، تجرأت على حيائها والبرد، وخلعت بحركة أنيقة معطفها الصوفي، سماوي اللون، ومالت بجذعها إلى داخل سيارتها وألقته على المقعد الخالي، وأغلقت الباب واعتدلت بقوام ريَّان.

في وقفتها، كانت حقيبة يدها تتلألأ بانسجام مع العقد الأبيض الرقيق على صدرها، ومع الحلق الدائري في أذنيها الصغيرتين، وأسى الوحيدة على وجهها حزن على وحدتها، والميدان الخالي من البشر.

تلفَّتت حولها وشردت للحظات قليلة، ثم ابتسمت للفكرة التي برقت في رأسها، وضحكت مع نفسها ضحكة لا تُسمَع؛ لأنها ودَّت لو كانت هذه الليلة ليلة زفافها إلى «خالد» من جديد. كانت مشتاقة إليه، تريده بشوق أكبر من كل ما جرى بينهما في عشر سنوات من الزواج.

في الشهور الأولى، قبل أن ينجبا التوأمين «ندى» و« كريم»، في المطبخ الضيق بشقة السيدة زينب، كثيرًا ما كانت يداه تحتضنان كتفيها من الخلف، يميل عليها ويهمس في أذنها: «بحبك»، فتكمل تقشير البصلة بين يديها، دامعة العينين تصيح فيه ساخرة: « كويس يا شريك حياتي، كويس»، وتضحك.

يد على كتفها، والأخرى حول خصرها، وشفتاه عندها، ما بين رقبتها وأذنها:

– أكاد من فرط الغرام أذوب.

– آه.. يا سلام!

«آه.. هل يقولها لي الليلة من جديد»؟

هبَّت ريح خفيفة وعبرت جسدها رافعة ذيل فستانها لسنتيمترات قليلة. انحنت برشاقة قليلاً إلى الأمام، ووضعت يديها على ركبتيها تثبت الفستان، فبدت كأنها تُحيِّي شخصًا يُقبل نحوها من بعيد. ابتسمت واعتدلت تحدق في الفراغ، أغمضت عينيها وتنفست بعمق.

ظهر في أول شارع قصر النيل، وهرول نحوها برشاقة، يرتدي بدلة بيضاء ناصعة، وبيده اليمنى المرفوعة في الهواء زهرة واحدة. اقترب منها، وحدَّق فيها بدهشة كأنه يراها للمرة الأولى. أدار عينيه في وجهها وخصرها وجسدها. لمَّا التقت عيونهما عاتبته بنظرة حزينة وأطرقت إلى الأرض. مد يده اليسرى ومسَّ ذقنها بأنامله، وبأصابع حانية رفع وجهها إليه وحدَّق في عينيها، وقال لها بلا كلمات: «انسي ما فات.»

انحنى عليها وقبَّل رأسها وجبينها وخديها. ضمها إليه ثم ابتعد عنها خطوتين وقرَّب إليها الزهرة، عجيبة الألوان، ودعاها إلى الرقص.

أشرق وجهها، مدت يديها وأخذت منه الزهرة، وغرستها في جانب شعرها. حضنت راحتي يديه المفتوحتين بكفَّيها، سرت فيها رعشة رقيقة وتوردت وجنتاها كأنها تلمسه للمرة الأولى، رفعت يدها اليمنى مع يده، وأراحت اليسرى

على كتفه العريضة، واقتربت منه أكثر. حرك قدمه ومال، مالت معه، عاد إلى اليسار فعادت، اقترب منها واقتربت، ابتعد عنها وابتعدت، تحركت الأقدام وتشابكت الأيدي، ورقصا فرحين. تقابلت العيون وانفرجت الشفاه، وهمست في وقت واحد: «نحن معًا، معًا إلى الأبد.»

ذابت وتلاشت مع خيالها الحيِّ أمام عينيها. «آه لو يستمر هذا»!

أفاقت سريعًا من نشوتها الخيالية، ونظرت حولها خجلانة.

«هل رآني أحد؟ هل رأتني واحدة عابرة وعرفت ما يدور في رأسي»؟

نفضت رأسها من حلم يقظتها.«فوقي يا هبلة، وشوفي هترجَّعي جوزك إزاي»! وشدَّت عضلات وجهها قليلاً فاكتسى بتعبير جاد، مصطنع، وتقدمت.

أمام باب «العروس»، أراحت يدها اليسرى على خصرها وأعلى قبتها الجميلة، وفي يدها اليمنى تتدلى حقيبتها كوردة بيضاء. راحت تتأمل زخارف الباب، بعينين خبيرتين بجمال الشكل. «باب حلو، تحفة»!

الباب الساحر، ككل أيام الأسبوع، مغلق ومفتوح في الوقت نفسه، يُفتَح فقط لمن يقرع جرسه بثقة وهدوء ويرتضي الحراس دخوله، ينتظر الزبون المعروف والدائم، والليلة ليلة فريدة، لا ترحب بالزبائن العارضين والجدد، ولا تتكرر سوى مرة كل عام.

انقطع تأمل المرأة حين أدركت وقع خطى خافتة. رفعت يدها ومست أذنها اليمنى ترهف سمعها.

في بهو العمارة ذي الأعمدة الدائرية المنتصبة على الجانبين، قام كهل من قعدته على دكة خشبية أمام غرفة صغيرة بجوار كابينة المصعد، وتنحنح وهو يلم أطراف جلبابه الأبيض الواسع على جسمه النحيل، وسار تحت أضواء مصابيح السقف العالي، طارقًا الرخام الملون القديم بقدمين كبيرتين كمجدافين.

رفعت المرأة عينيها في اتجاه المدخل، فظهر لها خيال طويل يتخطى باب العمارة المفتوح. توجست وانتابها قلق، اعتدلت في وقفتها، واستدارت بجنبها في الاتجاه الآخر، وضمت يديها فوق حقيبة يدها، وشحذت حواسها كلها.

بعد لحظات، اختفى جزَعها، وانشرحت باقتراب الخطوات منها. بحواسها كلها أدركته وعرفته قبل أن يظهر، وقبل أن تنظر إلى وجهه، ابتسمت مطمئنة، وعادت للنظر في اتجاه مصدر الصوت، والشخص.

مشى نحوها بوقار، وفوق رأسه المستطيل طاقية بنية عالية، ملفوف حولها شال أبيض، العمامة التي تعرفها، والتي لفَّتها كثيرًا حول رأس أبيها.

استقبل الكهل نسمة الهواء الباردة بعطسة قصيرة، وتمتم في سريرته بحمد الله بعدها، واقترب منها بهدوء.

ابتسم لها بعينين عسليتين واسعتين، ورفع يده المعروقة بحذاء وجهه:

- أي خدمة؟

خفضت رأسها ورفعت يدها بتحية رقيقة، وتبسمت.

حدَّق في وجهها فتوترت قليلاً يداها فوق حقيبتها، وقبضت عليها تداري اضطرابها، وعلى وجهه قفز تعجُّب من فستانها وعطرها، حضورها كله بدا له غريبًا، بدت له امرأة مترفة من مرتادات العروس، واحدة غريبة، زبونة عابرة، لكن ...

للحظات طويلة شك في أنها هي نفسها، البنت «سامية».

كانت، تحت عينيه، امرأة مدينة، فاتنة تحت الأضواء الملونة، يتفرّس فيها، كاتمًا دهشته في صدره، مبديها على قسمات وجهه، كثير الغضون.

على بُعد خطوتين منها، ضاقت عيناه وهو يحدق فيها أكثر. «هي؟ أبدًا، واحدة تانية؟! هي»!

اضطربت أكثر من حملقته الصامتة فيها، واحتقنت أساريرها التي بدأ النمل يسري من تحتها. اهتزت شفتها السفلى بحركة لا تكاد تُرى، حاولت أن تقول شيئًا، فتحت فمها فلم تخرج منه كلمة واحدة.

انفرج وجهه وهو يرى المرأة ترجع ببساطة ويُسر إلى طفولتها. تبسَّم وهو يرى البنت أمامه، في عصر يوم عيد..

بنت نحيلة قصيرة، بالكاد تتجاوز ركبته، بجلباب فلاحي ملون، مرسومة عليه أوراق شجر وورد، وبوجه رائق، دقيق الملامح، تحفُّه ضفيرتان طويلتان تهتزان كخوصتين مجدولتين.

يضم خصرها إليه ويرفعها، يُطوِّحها في الهواء ثم يلقفها، وهي تضحك وتكركر: « كمان يا عم شاهين.. كمااااان!»

يرفعها من تحت إبطيها، وهي تفرد ذراعيها كجناحين. يقذفها في الهواء، فتطير لثوانٍ قليلة قبل أن تهبط إلى يديه وصدره.

«تاني يا عم شاهين».

يرفعها إلى فوق فترفرف بذراعيها كحمامة مرة، كبطة مرة أخرى، كعصفورة مرات، وبصوت فرخ مشاغب تخرج الأصوات من فمها: «هو وووووه، صو صو.. صو صو.»

يُطيِّرها في الهواء كحمامة ويتلقاها، وضحكها يتصاعد وطيرانها في الهواء يعلو. ترتفع مرة حتى تلمس سلك اللمبة المعلقة بالسقف، ومرة أخرى حتى تكاد تمس السقف بأطراف أصابعها، ووجهه مرفوع إليها بحدب أب ليس لديه سواها.

عندما تزداد قطرات العرق على جبينها، وتنهج ويبدأ صوت تنفسها في الارتفاع، يتوقف، يريحها إلى صدره، ويطوقها بحُنُو، ويربت على ظهرها، فيصير

وجهها في وجهه. تشد شاربه الأسود الكثيف، «أي.. أي.» يتألم، ويضحك، وهي تعاقبه مستاءة، رافضة أن ينزلها إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء. تضرب صدره بيديها الصغيرتين، يقهقه من أعماق قلبه: « كفاية، كفاية.. تعبتِ يا سامية يا بتي، تعبتِ.»

يضعها على الكليم القديم، مُتهرِّئ الأطراف، الذي يغطي بلاط الصالة الضيقة، ويجلس على الكنبة البلدية إلى جوار أبيها. يمد يده إلى جيب الصديري الفضي، بأزراره الكثيرة، تحت جلبابه واسع الأكمام، ويخرج محفظته الجلدية الكبيرة، يفتحها، ويضع ورقات لامعة في راحة اليد الصغيرة، المبسوطة إليه.

«هيه.. هيه»! تقفز في مكانها فرحة بالقروش الجديدة، وتقبل خدَّيه برقة: «ههه.. عيديتي، كل سنة وأنت طيب يا عم شاهين».

تعطيه ظهرها بعد أن أخذت القروش المزينة بوجه «نفرتيتي» في تاجها الكبير. تنظر إلى الملكة بدهشة، مبهورة بجمالها، وبتاجها الذي يشبه الطربوش. تحك الأوراق الجديدة بأناملها، وتتسمَّع صوت الخروشة المبهج، ثم تلتقط يد أبيها ناظرة إليه نظرة ذات مغزى.

يهز «بشندي» رقبته رافضًا، تترك يده، وتبدأ في دبدبة قدميها بالأرض، وتميل نحوه:

- والنبي، والنبي.
- فين هاشم؟
- هاشم عند المراجيح.
- عارفة تروحي لأخوكي لوحدك؟
- عارفة عارفة.. خلاص.

يبتسم أبوها:

- طب ما تتأخريش.

تصفق بيديها الصغيرتين وتتقافز إلى الشارع، وتجري منطلقة كسهم حر لشراء الشيكولاتة، وإلى المراجيح، والعيد المنصوب في باحة الصعايدة، قرب «فُمِّ الخليج».

كانت سامية تحب أن تركب البطة طويلة العنق، وأن تتمرجح في الأرجوحة. تصعد إلى القارب الصفيح المزينة جوانبه بطيور ملونة كثيرة، تفرد يديها فتصير كالصليب، وتمسك العمودين الحديديين بين قبضتي يديها. تميل وتدفع بخصرها إلى الأمام فيرتفع القارب بها، تجدف أسرع وتهز خصرها فترتفع إلى أعلى وأعلى، حتى تكاد تدور بالقارب. تغمرها نشوة ويندفع في دماغها خدر لذيذ، ألذ من كل حلوى، حتى من الشيكولاتة والفندام.

الريس بشندي يربت على كتف ابن عمه وبلدياته شاكرًا، ويدعو له بمودة صافية: «عقبال عوضك يا شاهين»، ومن منور البيت الصغير، من أمام نار الفرن، يأتي صوتها:

– كل سنة وأنت طيب يا أخويا.

أم «هاشم» و«سامية» معروفة في حواري الحي وشوارعه باسم «رزقة السقارية»، نسبة إلى قريتها «سقارة» التي جاءت منها في يد الريس بشندي منذ سنوات قليلة. تحبها نسوان الحي كثيرًا، تجامل الجميع في ليالي الزفاف، وتغني أغاني الأفراح بصوت عذب، ويناديها الناس باسمها فحسب، لكن شاهين لا يكلمها باسمها المجرد أبدًا.

من مكانه بباحة البيت يرفع صوته:

– كل سنة وأنتِ طيبة يا ست أم هاشم.

تقوم من أمام فرن الطوب اللَّبِن، الذي بناه بشندي بيديه، وهي تنفض عن مؤخرتها جلبابها الفلاحي المشجر، المطرز بـ«كُلفة» بيضاء، كقوس على صدرها، وتضبط عقدة الإيشارب البنفسجي على مقدمة رأسها:

– يتعاد عليك بالخير والسعد يا أخويا.

وترفع صوتها داعيةً بالخلف الصالح لشاهين ابن «حسنات»، وهي تلتقط عدة أرغفة ساخنة، خرجت لتوها من فوق البلاطة الفخار.

تخرج إلى الرجلين، تمد يدها إلى ركن وتشد الطبلية الخشبية، تضعها أمامهما، والأرغفة فوقها، وتأتي بعدها بالخضار وبطة العيد المُحمَّرة والأرز.

– اتفضَّل يا شاهين.

– يجعله عامر يا ريس بشندي.

يهبطان من الكنبة، ويجلسان على الحصير.

بشندي يهش إليه، ويناوله الرغيف المرحرح:

– باسم الله.

يلتقط الخبز من يد بشندي ممتنًّا وشاكرًا، و«أم سامية» تنحني عليه بوجه بسَّام، وتضع في يده ورك البطة المُحمَّر:

– بالهنا والشفا يا أخويا.

– تسلم يدِّك يا مَرة أخُوي.

كان بيت بشندي هو البيت الوحيد المفتوح له في مصر، في أي وقت يشاء يأتي ويدخل، يأكل ويشرب ويلعب الدومينو مع الريس، ويتكلمان عن العمل والأنفار والبلد.

«يااااه.. أيام بعيدة قوي يا شاهين».

كان في عز شبابه، متزوجًا منذ سنوات، وبلا ذرية. ضاق به الحال والصدر، فسخط على كل شيء، وغضب حتى أدماه الغضب، فأخذ «زينب» في يده، وقُفَّة من الخوص فوق رأسها، فيها ملابسهما القليلة، وغادرا «قمن العروس» مشيًا على

الأقدام. هرولا في الطريق الترابي إلى بندر الأقصر، وركبا القطار قاصدين وجه الكريم، مسافرين إلى مصر، حيث بيت الريس بشندي.

مع الريس عمل نفرًا في المعمار، يحمل الإسمنت والزلط في قصعة ثقيلة، ثم صار يرتقي السقالات الخشبية المنصوبة على واجهات العمارات ليصل بالمونة إلى البنائين، ثم صار بنَّاءً ماهرًا، لكنه ظل بلا خلَف.

كان يحب سامية وهاشم، ويرجو لنفسه ولدًا مثل هاشم، أو حتى بنتًا مثل سامية. مرات كثيرة حملها على كتفيه، خلف رأسه، شابكًا يديه بيديها الصغيرتين، يطوف بها مولد السيدة زينب في الليلة الكبيرة، يفرجها، ويجيب عن أسئلتها البكر: «إيه دا يا عم شاهين»؟ فيجيب: «دا ذِكر، إنشاد، ابتهالات، تواشيح يا سامية».

مرات أركبها المراجيح، ومرات اشترى لها العروسة الحلاوة والمُشبَّك.

أيامها، كان قويًّا، بفتوَّة ظاهرة للعيان، وكان ممن يمتلكون، كما تقول الجدات في بلدته، معجزة نادرة، كان موسومًا بـ«عِرق الصبا».

في «قمن العروس»، شاع عن شاهين أنه شرب من النيل في لحظة توقف فيها تدفُّقه وحركة أمواجه نحو الشمال، غاص النهر في سكون تام وصمت شامل، وتوقف أمام شاطئ قمن العروس كحكيم عجوز، خلي الذهن، ليلقي نظرة على القرية الصغيرة، كثيرة النخيل، وكان شاهين عنده.

نزل إلى النهر، ورفع جلبابه إلى وسطه، وانحنى ومد كفَّيه المضمومتين كإناء، وغرف من الماء. رفع راحتيه إلى فمه وأحنى رأسه قليلاً، وشرب ماءً عجيبًا، حلوًا كالسكر، شافيًا كعسل النحل، فوُهِب قوة خارقة.

في البلد، تقول الجدات العارفات إن الشرط الوحيد لدوام عِرق الصبا هو ستره، إخفاء السر وتجاهله، وإلا زالت القدرة والقوة، وفقدها الموعود، وعاد أضعف من عجوز طاعن.

جدته «تفيدة»، التي عاشت أكثر من مئة عام، قالت له هذا الكلام مرات، وسمَّت له عدة أنفار نالوا الحظوة. وذات يوم، أوحت إليه من طريق خفي أنه يملك هذا الشيء المعجز. همست له وهي تنبش التراب بين قدميها بعصاها الطويلة، في مجلسها الدائم على عتبة بيتها، دون أن ترفع وجهها إليه:

– أنت موعود يا حفيدي.

– إيه؟!

قالت له إن النيل يستريح، يغفو وينام حين يريد، مرة واحدة في السنة، مرتين، الله أعلم، ومياهه تصبح لدقائق معدودة حلوة كالشهد، وفيها سر خارق. وقالت إن أسعد واحد في الدنيا هو من يكرمه ربه برشفة من هذا الماء، من يضحك له النيل فتضحك له الدنيا كلها.

وانفرج وجهها، ممسوح الملامح، عن فم أهتم بلا أسنان.

نظر شاهين إليها بلا مبالاة، وقال في نفسه: «تخاريف عجايز.»

أعادت العجوز ما قالت وزادت، وهي تثبت عينيها الكليلتين في عينيه، وقد توقفت عصاها عن نبش التراب.

الجدة لم تقُل له بوضوح إن فيه السر، فقط كانت تشرح بلا كلل ما الذي يعنيه أن يحوز واحد عِرق الصبا. وهو لم يقُل لجدته شيئًا، لم يزجرها بـ«خلاص، عرفت».

قبَّل رأسها فرحًا، وتركها وذهب إلى الحقل ليواصل حرثه.

قبيل كل غروب، يراه الفلاحون العائدون من الحقول إلى البيوت جالسًا في صمت، متربعًا على حصيرة من قش، كسجادة صلاة، وجهه إلى النهر وظهره إليهم، فوقه السماء وأمامه قرص الشمس، ينادونه، لا يرد عليهم، يتجاوزونه ويمضون تاركين إياه لحاله، يواصل صمته واستغراقه وسرحانه في ملكوت الله.

عرفت قمن العروس رجالاً أُشيع عنهم أنهم يمتلكون عِرق الصبا. بعضهم

يقضم الزجاج ويأكله، ويقفز من فوق النخيل العالي ويهبط كأنما بـ«براشوت»، وقلة يضربون صدورهم بفأس دون أن يتأذوا، وأفراد نادرون يهزون كوبري محطة السكة الحديد في بندر الأقصر، ويرفعون تروس السواقي الحديدية الضخمة بيد واحدة. عرف أهل القرية عددًا من هؤلاء الخارقين، لكنهم لم يطلعوا على سر شاهين إلا مرة واحدة، حين طلَّق زوجته، وعادت إليهم وحيدة.

سافر شاهين إلى مصر، أم الدنيا، وانقطعت أخباره عن قمن العروس. ومرَّ الزمن على جسده فأضعفه، وتبدل شكله، وتقدم به العمر وامرأته بلا ولد ولا بنت، فأشفق عليها، أطلقها، وأوصاها أن تعود إلى أهلها، وأن تتزوج بأول طارق لبابها.

تركته وهي تبكي وتولول وتصوت، لم يقُل لها سوى: «تزوجي يا أم عوض، إن المرأة بلا رجل أرض بور، تزوجي حتى يأتيك العوض، ستنجبين ولدًا، واحدًا، ذكرًا».

عادت مُطلَّقة إلى قمن العروس، قضت عدتها، ونفَّذت وصية شاهين، تزوجت بأول طارق لبيتها، وأنجبت ولدًا أسمته «عوض»، وانقطعت دورة طمثها، ومن بعده لم تنجب.

عرف شاهين السر الأكبر دون أن يشرب في اللحظة المباركة، أدركه في نفسه بعد طول حلم به وأمل فيه، وصان سره، لم يقُل لأحد إنه رأى النهر يتوقف، والماء يتجمد ويصير حبات لؤلؤ بين يديه، فقط كان يعمل، يشتغل في الفلاحة، في المعمار، في السواقة، لا فرق.

«كله على الله، كله عمل وشقا، وكله على باب الله».

وحيدًا شاب شعر شاهين وتجعد وجهه، وانتهت به الحال بوابًا لعمارة عتيقة في وسط المدينة، لكن شيئًا فيه ظل مستعصيًا على مرور الزمن.

وضعت سامية بشندي مفاتيح سيارتها في يده، وقالت له بوجه ناعم، وبلهجة أبيها:

- إزيك يا عمِّي؟ مش عارفني؟

أومأ برأسه وابتسم:

- عارفِك.. ما أعرفكيش إزاي.

فاض وجهها بابتسامة، ومدَّت يدها إلى كتفه:

- كل سنة وأنت طيب يا عم شاهين.

قالتها كابنة الأخ التي كبرت تكلم عمها.

هز رأسه ممتنًّا، وهمهم:

- يا الله.. بقيتِ سنيورة ولا الهوانم يا سامية يا بت بشندي.

فتبسمت.

حدَّق في وجهها:

- تعرفي إنِّك شبه ... شبه جدتي، جدتِك تفيدة.

- ...؟

- لمَّا كانت في عزها.

ضحكت سامية من كل قلبها.

شاهين لم يعُد يستخدم سوى كلمات بسيطة: «آه» و«لا» و«نعم»، وكفَّ عن الكلام الكثير، والتنكيت منذ زمن بعيد، لكنه أراد أن يرى سامية تضحك.

مالت عليه:

- كل سنة وأنت طيب يا عم شاهين.

- آه.. الله أعلم.

وقفز إلى مقعد القيادة مكانها:

- باسم الله.

أدار وجهه إليها فتذكر:

- هاشم رجع من بلاد برّه؟
- لا والله يا عم شاهين.. حتى بقى له سنين ما بيجيش في أجازته السنوية.

ترقرقت في عينيها دموع عصية، لاحظها شاهين فأنَّب نفسه:

- يمكن ييجي الأجازة الجاية.. هاشم ابن حلال.
- يمكن يا عم شاهين، يمكن.
- الله كريم يا بنتي.

أغلق الباب، وترك النافذة عن يساره مفتوحة، ومد يديه إلى عجلة القيادة، وقال بوجه يفيض فرحًا بها وبأبيها:

- سلِّمي لي على الوالد.
- يوصل يا عم شاهين، يوصل.

ودَّعته بنظرة امتنان ويد مرفوعة، واستدارت نحو باب العروس.

طلع شاهين بالسيارة، وكانت نيته ركنها بالجراج المجاور، على بعد عشرات الأمتار فقط من عمارة العروس.

«غريبة.. إيه اللي جابها في ليلة زي دي»؟!

قبل مدخل الجراج، خطر لشاهين خاطر أبهجه، فلم يتوقف، وانطلق بالسيارة في اتجاه البورصة، ومن بعدها مبنى البنك المركزي، وميدان الأوبرا، ثم هبط النفق في طريقه إلى ميدان الأزهر، حيث المقام الذي كان قد نذر أن يزوره.

خرج من النفق إلى طريق صلاح سالم، ثم دار وعاد ودخل الحسين من «العطوف». ركن السيارة في عطفة المشهد الحسيني، قرب خيمة خدمة يعرف أهلها، ودار حول الجامع الكبير على قدميه، مجتازًا قليلاً من الرجال والنساء والأطفال في الخيام، والشوارع، وفي الساحة الكبرى؛ فالاحتفال بالمولد في أوله، بقيت على الليلة الكبيرة أيام وليالٍ.

دخل الجامع من بابه الرئيسي، وعند المقام وقف في خشوع:

- السلام عليكم ورحمة الله.

وأمام باب العروس كانت سامية واقفة.

بثقة ضغطت على زر الجرس، فصدح في داخل العروس بتغريد بلبل. خلف مكتب الاستقبال، على كرسي طويل الظهر من خشب الأبنوس الأسود والزان، يجلس كهل في بزة كحلية من حرير، ورابطة عنق بيضاء بخيوط ذهبية مُحكَمة الربط حول رقبة قصيرة، غليظة ونافرة العروق، حليق الشارب واللحية، وجهه مفرط الطول ومستطيل، وشعره الرمادي قصير جدًّا.

حين رنَّ الجرس، كان ساكنًا كقطعة حديد صلب، وفي جمجمته الضخمة تخس أفكار تداهمه كلما بقي وحيدًا، تدور وتزن في رأسه عبارات كوخز إبر متكرر، وتتردد في أذنيه صاخبة، أصخب من رنين الجرس.

«من سنين طويلة اتحرمت من تلميع جسمي بالزيوت الفاخرة، وعرضه على منصات البطولات أمام الحكام والجماهير، واتحرمت من رفع الكؤوس وحصد الميداليات والبطولات. إيه، راح زمن البطولة، وزمن المُزَز.. وراح زمنك يا هراوي».

انتبه أخيرًا إلى رنين الجرس المتكرر، ونظر أمامه، إلى شاشة الكمبيوتر الموصول بكاميرات المراقبة، فرآها واقفة أمام الباب تنتظر أن يُفتَح لها. حدَّق في وجهها للحظات.

«يااااه.. سامية بنت بشندي»!

تابعها الهراوي منذ طفولتها، رآها في كل سن، حتى كبرت وصارت بهذا الجمال.

تريَّث للحظات، حرك جسده نافخًا كل عضلة فيه حتى اطمأن إلى هيبة منظره، وقال بجدية مخاطبًا الهواء الواصل من عنده إلى الباب:

– زمني ما راحش يا أمُّورة.

أخيرًا أحكم رباط عنقه وتنحنح، وضغط بيد غليظة الأصابع مفتاحًا ذهبي الإطار، مثبتًا بالحائط عن يمينه، فانفرجت ضلفتا الباب، وتحركتا ببطء، وذهبت كل واحدة في اتجاه معاكس للأخرى، وانفتح تدريجيًّا بينهما فراغ.

بان لسامية من فرجة الباب بهو فخم طويل، في آخره يظهر مكتب، خلفه كابتن «هراوي»، الفتوة الذي تعرفه منذ كانت طفلة تلعب في حواري السيدة، كانت تصفق وتصيح كلما رأته في التليفزيون: «هو.. كابتن هراوي بتاعنا، كابتن هراوي بطل الوزن التقيل.»

وقع بصرها عليه فذهب ثباتها وتوترت قليلاً. مدت قدمها اليمنى إلى الأمام واطئة سجادة حمراء فاخرة، وعبرت إلى عالم آخر، عالم ساحر ومترف، وخلفها غابت ضلفتا الباب في فراغ الجدار السميك.

٢

انتصف الليل فوق الهضبة العليا بجبل المقطم، وسطعت عشرات النجوم، ولمع ضوء ضئيل بطرف جسم كروي مظلم، هلال وليد في لياليه الأولى يبحر كقارب سماوي، وهبَّت ريح باردة على وجه السيد «عمر» وهو يجتاز بخطوات متمهلة حوض شجيرات «ملكة الليل»، ويمر بأحواض أخرى زرع فيها أنواعًا نادرة من الزهور والنباتات، وفصائل أشجار قصيرة قزَّمها بمعرفته ويديه. اشتدت الريح قليلاً، فأحس بقشعريرة خفيفة تجتاحه، ارتعشت أطرافه لثوانٍ، فتوقف يُحكم لفَّ كوفيته الحمراء حول عنقه، وسكن في مكانه يشم بعمق الأريج المنعش، الذي يطغى فيه عبق مسك الليل.

أعاد يديه إلى جيبي معطفه الرمادي، وواصل سيره نحو البوابة الخارجية. رفع بصره إليها فبدت له قديمة وكالحة، لكنها في فكره، الذي يتحرك في هدوء على وقع خطواته، حصينة وتؤدي الغرض. خطوة بعد أخرى كان يقترب منها.

البوابة تتوسط سورًا حجريًّا عاليًا، تملؤها ضلفتان من الصلب، مُرصَّعتا الوجهين بأسياخ متقاطعة، وتضمهما سلسلة طويلة من حلقات حديدية، والسور يُطوِّق الفيلا من كل اتجاه، وخلفه عشرات من أشجار الكافور والجازورين والبونسيانا. قبل سنوات، اختار السيد شتلاتها الغضة بعناية، زرعها بيديه، رعاها وغذاها بشغف وانتظار لما ستؤول إليه، فنمت عامًا بعد عام حتى ارتفعت، وتجاوزت السور بعدة أمتار، وأمست حراس ليلٍ متراصين، يخفون الحديقة، وطوابق الفيلا الثلاثة، ويحمون ساكنها الوحيد.

قال للباب:

- شكرًا.

أدخل مفتاحًا طويلاً في ثقب الكالون، ولفَّه ببطء ست مرات حتى اكتمل ارتداد اللسان إلى الخلف. أعاد المفتاح إلى جيب معطفه، وارتسمت على وجهه ابتسامة رضا عن نفسه، وعن صنعة «حمَّاد الحدَّاد»، أمهر حدَّادي السيدة زينب.

استند بكتفه إلى الباب كمن يستند إلى عضد مُعِين. رفع القفل النحاسي، ودخلت يده اليمنى جيب معطفه وخرجت قابضةً على مفتاح صغير، لمعت في طرفه لمعان الذهب ثلاث سنون. أدخل المفتاح في فتحة القفل فاهتزت وشخشخت السلسلة، ومع كل حركة من حركات يده كان قوس اللسان يرتفع خارجًا. نزع القفل وفصل السلسلة، ودفع بقدمه ضلفة الباب فصرَّت مفتوحة إلى الخارج.

وقف أمام البوابة، وأجال بصره في كل اتجاه مندهشًا، كأنه استيقظ فجأة من نوم عميق فوجد نفسه في مكان غريب، مقفر من البشر، وبين يديه سلسلة وقفل قديم، لا يعرف ماذا يفعل بهما.

ليس للسيد عمر جار، ولا شيء يواجه مقرَّه الأثير سوى سياج حديدي بطرف الجبل، يهبط مع المنحدر إلى أسفل، يمنع سقوط الناس والسيارات، ويهب الواقف عنده نظرة فريدة على الجانب الآخر، والقلعة الرابضة على ربوتها المقابلة للمقطم.

«لا أحد يستطيع الوصول إلى هنا، لا مُتنزِّه ولا عابر.. ولا مجرم»!

ابتسم لنفسه بمرارة: «أنا سجَّان نفسي، ولكن هذه الفيلا حصين كالقلعة، تحمي وتستر».

استدار، وضمَّ ضلفتي الباب ومرَّر السلسلة وجمع طرفيها، وأغلق القفل.

في الضوء الأبيض لمصباحي البوابة المعلقين على كتفيها ككرتين، كان السيد عمر في كامل أناقته، حليق اللحية والشارب، شعر رأسه الكثيف مصبوغ بأسود لامع، ومُرجَّل إلى الخلف، متورد الوجنتين، يضع على عينيه نظارة طبية بعدسات رقيقة مدورة في إطار ذهبي، وبذراعين سوداوين عريضتين.

تحرك خطوات، تسبقه رائحة عطره النفاذة، حتى وسط الشارع. خفض رأسه ولمس ساعة يده فأضاء قرصها الذهبي بوهج وردي، تأمل حركة عقاربها للحظات ثم عبر إلى السياج. مد يديه واتكأ على حافته، وثنى جذعه قليلاً مرتاحًا في وقفته، وحدق.

القلعة ضخمة، محاطة بأسوار عالية وأبراج عتيقة، ومتألقة الليلة بخطة الإضاءة الجديدة. أبراجها ومآذنها الرفيعة تبعث أضواءً حمراء وخضراء، وقبتها الكبرى تشع بالذهب وسط قباب فضية صغيرة، متناثرة حولها في نظام بديع. للحظات حوَّل عينيه عن القلعة التي عجت بعشرات الأحداث الدامية على مر القرون، ثم عاد إليها مفتونًا، لم ينتبه إلى الهلال الوليد، ولم يلاحظ سطوع النجوم من فوقه.

في زمن مضى، مثل مراهق شغوف، كان يراقب النجوم والكواكب من خلف عدسة تلسكوب كبير، لا يزال ينتصب فوق سطح الفيلا، كمدفع صغير.

بدَّل هيئة وقوفه فقدَّم رجله اليسرى على اليمنى سنتيمترات قليلة، وانحنى ينظر إلى المنحدر الهابط في اتجاه المدينة. رآه جرفًا هائلاً ومخيفًا، وتصوره يندفع ويهوي بأحجاره وصخوره نحو طريق صلاح سالم. وأبصر القاهرة، من تحته، مدينة شحيحة الأضواء، بنايات عشوائية فقيرة، تزدحم بملايين البشر والحيوانات، وتبعث بغلظة إلى أنفه الحساس روائح منفرة وقابضة كرائحة الكيروسين والروث في حجرة خانقة، كحجرة طفولته.

تحسس أنفه ودعكه قليلاً.

عاد من انحنائه، وشدَّ خصره إلى الخلف ورفع رأسه إلى السماء، فلم يرَ سهام الألعاب النارية الغزيرة التي كانت تغطي سماء المقطم، في مثل هذه الليلة من كل عام.

«مش مهم.. اتأخروا.. لكني أعرف أن الاحتفالات دائرة في الفنادق الكبرى. حفلات راقصة وصاخبة في الملاهي الليلية والمطاعم، وفي قصور الأحياء الراقية ومنازلها. عارف.. الكل شارب وهايص، وإن كانت السماء لا تمتلئ بالألعاب ولا بالأضواء، فمش مهم، مش مهم».

ابتسم لنفسه: «أنا رجل ثري وواصل».

وراح يتخيل ما يحدث الآن ابتهاجًا بالعام الجديد. نساء فاخرات ورجال أثرياء متأنقون، يشربون ويرقصون، يتبادلون القبلات الطويلة، ويدخلون غرف النوم بلهفة وشوق و... بعد دقيقتين راحت الصور اللذيذة، وعاد للانشغال بموعد الشخص الذي تغيرت حياته يوم التقاه، وعرفه.

منذ سنوات بعيدة خرج الأستاذ عمر من آخر بيت في «درب بهلوان» وأوصد خلفه الباب المُخلَّع، وفي يده حقيبة ملابس وكتب قليلة. ترك خلفه أمه «رسمية» ساخطة، كتلة لحم ضخمة، يداها في خاصرتيها السمينتين، واقفة في مواجهة أبيه، تصرخ فيه أن يفعل شيئًا لإبقاء الأستاذ معها، وهو صامت كحجر مربع، ورأسه في الحصيرة البالية تحت قدميه.

غادر الدرب ونفد بجلده، دون أن يلتفت إلى عربة الجاز المركونة إلى جوار الحائط، ولم يودع البغل «رهوان» المربوط من عنقه إلى سيخ حديدي، بشبَّاك حجرته.

في طفولته ومراهقته، كان يحب رهوان كثيرًا، يحضر له طعامه ويلعب معه، ولا ينفر من رائحة الجاز في بيتهم، وتغيرت الحال إلى بغض مرير. رهوان أهم منه عند أبيه؛ فهو الذي يسحب خلفه عربة من حديد فوقها أسطوانة صفراء، في آخرها

حنفية صدئة، وعرش العربة لا يسع سوى «عبد الظاهر» الذي يلسع ظهر بغله بسوطه الطويل كلما تقاعس، وهو يجوب شوارع السيدة ومصر القديمة والمنيرة وحاراتها.

بعد كفاح سنوات طويلة، تخرَّج في كلية الحقوق، ثم كلية التجارة من بعدها، وافتتح مكتبًا صغيرًا للمحاسبات القانونية بميدان السيدة زينب، في الطابق الثاني والأخير من عمارة رقم ٧، فوق بقالة عرفة.

تجاوز الأستاذ عمر الحلقة الرابعة من عمره بلا زواج، وأمه وأبوه ما زالا على حالهما: رجل تعيس، بجلباب بلدي متسخ، يبيع الجاز طيلة النهار، ويعود إلى البيت بعد العشاء مكدودًا ومتعبًا، يلقي جثته الضخمة على الكنبة البلدية المتهالكة، وترويحًا عن نفسه يشتم امرأته بسباب بذيء، فترد عليه بسباب أشد بذاءة، تعنفه وتكايده بوقاحة فيضربها، وهي تصوت وتولول.

كان قد سئم حياته البائسة بلا متع، بلا مال وبلا امرأة، وكانت رغبته حارقة في مغادرة السيدة زينب إلى الأبد حين ابتسم له الحظ أخيرًا، وضرب ضربته الكبرى التي كان ينتظرها يائسًا.

في ذلك المساء، دخل مكتبه رجل ضخم، له جلال يسبق خطوته، يحار في تقدير عمره من يستطيع أن يختلس نظرة إلى وجهه. على غفلة من سكان العمارة القديمة، عبر الباب المفتوح، ووقف على البلاط العاري، على بُعد خطوات من مجلسه على كرسيه خلف مكتبه، وسكن في مكانه صامتًا. كان شارد الخاطر، ورأسه مدلى إلى أسفل، ينظر إلى موضع قدميه تحت المكتب. صبر الرجل، واقفًا في هدوء، حتى أحس الأستاذ عمر بحضور قوي يحيط بكل شيء، ويملأ الفراغ من حوله. رفع رأسه ونظر، فرأى الرجل المهيب يبتسم له. بُوغِت، واضطرب، لكنه لم يقف خلف مكتبه.

مد يده في الهواء وقال بلا مبالاة:

- أهلاً.

لم يتحرك ولم يهتم باليد التي مُدَّت منتظرة أن يصافحها.

بـُهِت الأستاذ، شعر بأنه قد أتى بسلوك معيب مع رجل مهم، وليس زبونًا كزبائنه من صغار الحرفيين والتجار. تململ في قعدته وقبض يده ومسَّ بها أنفه، ثم تنحنح:

- اتفضَّل.

وأشار إلى كرسي، كالكراسي العتيقة في قهوة الصعايدة بالميدان.

نظر الرجل إلى المقعد وقاعدته القش، ولم يجلس.

صمت للحظات ثم بعث صوتًا رخيمًا عميقًا، وقال بتواضع وبساطة:

- يمكن حضرتك ما تعرفنيش.. أنا الحاج مرزوق عشم الله.

لا أحد من أهل السيدة لا يعرف من هو الحاج؛ فاسمه على كل لسان، وشخصه غني عن البيان.

انتابت الأستاذ رعدة خفيفة، وخوف مبهم، فاهتزت ركبتاه قليلاً، وهو يقف واضعًا يديه مستقيمتين في جنبيه، وانحنى قليلاً إلى الأمام بوجه هيَّاب.

لم يستطِع أن يقول: «أهلاً وسهلاً يا حاج، شرفت.. نورت..» فقط خرج من بين شفتيه:

- تـ.. تحت أمرك.. تحت أمر حضرتك.

للحظات تأمله الحاج مرزوق، وبدا عليه الرضا:

- سُمعتك الطيبة يا أستاذ عمر هي سبب حضوري.

بلع ريقه، وظل متجمدًا في مكانه.

تكلم الحاج بصوت واثق آمِر، اعتاد أن يكلم به مستخدميه وعمَّاله. الكلمات

أبدلت خشية الأستاذ عمر اطمئنانًا، وجعلت أسارير وجهه تنفرج مع كل كلمة جديدة. انشرح صدره، ودبَّت في أوصاله آمال وأحلام.

تحرك خارجًا من خلف مكتبه عندما سكت الحاج، وحاول الاقتراب منه، انحنى ومد يده ليقبض على اليد المحسنة يريد أن يُقبِّلها. تراجع الحاج بحصافة ووقار إلى الخلف، ومضى كأنه لم يوجد، ولم يظهر قط في هذا المكان البائس.

مرَّ اللقاء بالأستاذ عمر كأنه حلم عذب، كأنه التقى الرجل العظيم ورآه بين اليقظة والمنام، ولوقت طويل ظل جالسًا بلا حراك، يسترجع اللقاء الخاطف مرة ومرات، يتذكر كلمات الحاج كلمةً كلمة، ويحاول أن يُهدِّئ من ضربات قلبه المتسارعة، وأن يسيطر على فرحه الغامر.

قبل أن يُؤذَّن لصلاة العشاء، نزل من مكتبه، وكانت مآذن جامع السيدة تشع بالأنوار، وعلى أحبال الضوء فوق القبة الخضراء الكبيرة تتلألأ المصابيح الحمراء والصفراء والزرقاء كأنها، في عينيه، حبات من لؤلؤ ومرجان وياقوت. مرَّ بين زحام الميدان، لا يرى سوى خيالات تتحرك وسيارات تعبر، واجتاز شارع الخضيري، وانحرف يمينًا، ودخل درب بهلوان.

خطا عتبة باب بيتهم ودخل دون تحية ولا سلام، وجمع حاجياته القليلة في حقيبة سوداء من قماش سميك، وخرج كما دخل دون أن يتلفظ بكلمة.

سار إلى شارع «السد البراني» بالبنطلون الأسود والقميص الأزرق، ناسيًا الجاكت القديم على شماعة خشبية في حجرته البائسة، التي سينتقل إليها أبوه ويعيش فيها، مبتعدًا عن المرأة التي اشتد نكدها وحزنها.

من بعده لم تعُد الحياة في البيت الصغير في درب بهلوان إلى سابق عهدها، لكن عبد الظاهر لم يتوقف عن اللف بعربته في حواري السيدة وشوارعها، ولا توقفت امرأته عن الدِّلالة، ولا عن الذهاب إلى الجامع، والتعلق بحديد المقام ودعوة «أم هاشم» أن ترد إليها ابنها الوحيد.

قلَّب جيوبه فلم يجد معه سوى جنيهات قليلة. مرَّ على الحاج «عرفة» في محل البقالة، وصعد به الدرجات الحجرية المُهشَّمة، ودخلا المكتب، وفسخ عقد إيجار المكتب، وأعطى الحاج عرفة نسخة عقده، ومد يديه ونزع اللافتة المعلقة على البلكونة الصغيرة: «عمر للمحاسبات القانونية».

اهتزت نسخة العقد في يد الحاج عرفة، كثيرة العروق والغضون:

- ليه يا ابن الناس الطيبين؟

لم يُجِب، لكن وجهه كان باسمًا.

- طب فكَّر شوية.

- ...

قال الحاج عرفة ساخطًا:

- المكتب دا لقطة، ومش هتلاقي زيّه في السيدة كلها.

- معلهش.

- آه.. أنت زارك حد النهارده؟

سكت الأستاذ عمر، وعقد يديه فوق صدره، وانتظر نافد الصبر.

بتسليم، أخرج الحاج عرفة من جيبه بضع عشرات من الجنيهات، ومدها في الهواء:

- لو احتجت المكتب في أي وقت، بابنا مفتوح.

مدَّ يده والتقط النقود. وضع في جيبه مبلغ التأمين مبتهجًا باسترداده، وأعطى الحاج ظهره، وتحرك إلى خارج المكتب بلا سلام، تاركًا الحاج يعاني الغيظ وهو يغلق باب البلكونة في هدوء. نزل الدرَج مسرعًا فكادت أطراف الدرجات المُهشَّمة تقلبه على وجهه. تمالك جسده بمهارة وضبط حركته، وخرج إلى أرض الشارع سالمًا، ومعه جنيهاته، وأحلامه العريضة.

لسنوات، كان مستقلاًّ بنفسه، يدير مكتبه، ويعمل ويكد وحيدًا، ويتعب كثيرًا بلا جدوى ولا طائل. مرت أعوام وأعوام وهو يكسب قليلاً، ولا يعبر خط الفقر الذي لم يرحمه رغم شهادتَي التجارة والحقوق اللتين تركهما في مكانهما، معلقتين على الحائط الأصفر في وجه الداخل إلى المكتب.

من الآن فصاعدًا سيمحو هذا المكان من ذاكرته، سيشطب السيدة بكل ما فيها من كتاب حياته، ويُولَد من جديد، ويصير شيئًا آخر، شخصًا آخر، لا يُرى فيها، ولا حتى في الأعياد.

كانت خطواته تبتعد به عن ميدان السيدة، وتتجه به صوب موقف الحافلات بناصية شارع خيرت. ركب «ميكروباص» بالنفر، ونزل منه في ميدان التحرير، ومشى إلى ميدان طلعت حرب. استأجر غرفة لمدة طويلة مفتوحة بسعر مُخفَّض في بنسيون «أمين»، بالطابق الرابع، بعمارة جميلة عتيقة، وترك حقيبته في غرفته الجديدة، وهرول بخطوات واثقة إلى «العروس» بقصر النيل، وتسلَّم عمله بعد ساعات معدودة من لقائه الحاج مرزوق.

بدت له الحياة مثالية في بنسيون أمين، فوق محلات «صيدناوي»؛ فالناس فيه منعزلون، كلٌّ في حاله، وموقعه ممتاز على بُعد أمتار قليلة من العروس.

بحماسٍ جارف، قبِل عرض الحاج مرزوق، أثرى أثرياء السيدة زينب، وصار وكيلاً له في بعض أعماله التجارية، وضلعًا مؤثرًا في إدارة العروس، وكل عام كان الحاج يكافئه، ويمنحه عدة أسهم في ملكية العروس، كما وهبه أيضًا حياته الجديدة.

بعد عدة سنوات، صعد إلى الهضبة العليا، واشترى الأرض في هذا الموقع النائي البعيد عن العمران، وبدأ بناء السكن الذي داعب خياله طويلاً، منزل فريد يرى القاهرة من كل جهة، منعزل وبعيد، ومشقة الصعود إليه تُذهِب رغبة كل شخص في زيارته.

بنى الفيلا على مزاجه وتصميمه: ثلاثة طوابق دائرية، بكل طابق غرف واسعة، بشرفات من زجاج، من كل اتجاه وزاوية، تطل على المدينة. نفَّذ الريس بشندي، مقاول الباطن المعروف بالسيدة، الفيلا في شهور قليلة، وبتكلفة يسيرة، وبإتقان وصنعة، وطبق الأصل من رسم الأستاذ عمر لها على ورق كرتون مقوى.

أتم الريس بشندي عمله، لكن رضاه عنها لم يتم.

حين انتهى الريس بشندي وعمَّاله من البناء والتشطيب وسلمها إليه، أقام السيد عمر فوق سطحها تليسكوبًا مُعظَّمًا، وسأل الريسَ باعتداد مغرور:

– ها.. إيه رأيك كدا يا بشندي؟

سكت الريس.

– عظيمة، مش كدا؟

الريس بشندي، بعد أن نفَّذ بناء الفيلا كما أرادها تمامًا السيد عمر، بدت في عينيه الواسعتين، عميقتَي السواد، تشبه قمعًا رفيعًا مقلوبًا، واسع القاعدة، يضيق ويضيق كلما ارتفع حتى يصير مسحوبًا كأسطوانة رفيعة قبيحة، فلم يُبدِ له ما يرى، واكتفى بأن طأطأ رأسه قليلاً، وغمغم:

– كويسة، مبروكة عليك يا عمر بيه.

اكتسى وجه السيد عمر بخسوف، وأظلم فرحه.

لولا أمر الحاج مرزوق له بأن يستخدم الريس بشندي في إنشاء هذه الفيلا ما استخدم هذا الرجل الصعيدي.

«ريس أنفار جاهل لا يفهم ما رسمت، وما بنيت».

الريس بشندي لم يتباهَ قط بتنفيذه هذا المبنى كما يتباهى بالبيوت، والعمارات التي بناها في شوارع السيدة، وحاراتها، وعطوفها.

شعر السيد عمر بضوء يبزغ من حوله، وسمع صوت عجلات على الإسفلت يعلو تدريجيًّا، فانتبه من سرحانه. التفت فرأى ضوء مصباحي سيارة تصعد الطريق الوحيد، قادمة في اتجاهه.

ظل باقيًا في مكانه واضعًا يدًا على السياج الحديدي، ويده الأخرى داخل جيب معطفه.

على بُعد خطوتين من قدميه، توقفت بهدوء سيارة ذهبية اللون، فارهة كيخت ملكي، تلمع كأنها مركبة فضائية على صفحة ماء.

بعد لحظات، فُتِح باب السائق، ونزل منه بهدوء شخص طويل جدًّا، قوي البنية، كبير الرأس، صارم الوجه، يرتدي بزة حريرية زرقاء، ورابطة عنق بيضاء مربوطة بإحكام.

ابتسم ابتسامة كبرد الهواء من حولهما:

- مساء الخير يا عمر بيه.
- أهلًا فؤاد بيه، كل عام وسيادتك بخير.

وركب إلى جواره.

سكتا وقتًا حتى قال فؤاد بك:

- الحاج عنده أخبار حلوة عشانك.

تهلَّل وجه السيد عمر:

- البركة في سيادتك.
- إحنا إخوة يا عمر بيه.
- طبعًا سيادتك.

باتزان ماهر، نزل السيد فؤاد بالسيارة الطريق الهابط حتى صار في ميدان الأزهار بقلب المقطم، ثم هبط إلى أقصى السفح، واستدار وعاد إلى الطريق

الدائري، ثم صعد بالسيارة الذهبية على طريق ملتوٍ التواءَ كوبرا ضخمة واقفة على ذيلها، يرتفع مترًا بعد آخر، إلى أن وصلا إلى ربوة أخرى أعلى ارتفاعًا، وظلّا يرتفعان مارَّين بخلاء أصفر على الجانبين، يرتفعان كأنهما يطيران وسط سحب السماء ونجومها وغبارها، حتى وصلا إلى قصر مفرد، يحوطه خلاء.

لم ينزل فؤاد بك من السيارة، بقي في مكانه أمام عجلة القيادة، وابتسم له ابتسامة غامضة لم يستشف منها السيد عمر شيئًا، لكنها حيرته. قال إنه سيتركه هنا، وإنه سيأتي بعد نصف ساعة ليوصله إلى العروس في وسط البلد. وفي لحظة انطلق كشهاب، واختفى.

على مبعدة خطوات قليلة، وقف ينظر إلى قصر الحاج مرزوق، فرأى قبته الذهبية الكبرى تتلألأ بضوء غريب، بلا مصابيح، بلا مصدر واضح للنور، قبة على شكل فانوس عملاق بشرفات حمراء وزرقاء منير بذاته، يأتي الضوء من داخله، وينتشر حوله وعلى المبنى العتيق من تحته، طابق واحد، حوله حديقة واسعة، أضعاف مساحة المبنى الأبيض، الأنيق.

«إيه.. قصر يساوي مئات الملايين اليوم».

السيد عمر يُقدِّر القصور والتحف والمشغولات الذهبية، وهذا القصر بما فيه ثروة عظمى، كل مرة أتى فيها إلى هنا يفشل في تحديد موقع القصر بالضبط، هل هو في الهضبة العليا أم الوسطى أم السفلى، في وسط المقطم أم في الشمال أم في الجنوب.

إلى أنفه الحساس تصاعدت روائح مختلطة، اجتازت السور الدائري الحديدي للقصر، وحطَّت على أنفه الهرمي. في حديقة القصر الواسعة، مساكن من الحجر تؤوي كلاب حراسة مُدرَّبة، من فصائل نادرة، عشرات من الكلاب تخيلها تطلق نحوه روائحها الممجوجة، التي اختلطت بروائح طيور هاجعة، وفي وسط الحديقة أقفاص لطيور متعددة الألوان والأشكال، حمام وبلابل ونسور وصقور، مرَّ بها مرات من قبل، ولم يعرف معظم أنواعها ولا عددها. أخرج منديلًا ورقيًّا، ووضعه على أنفه.

كان الحاج في شبابه وفتوته من هواة الصيد، وهو من دعا الأستاذ عمر إلى رحلة صيده الأولى، فصار الصيد تسليته وهوايته مدة. كان الحاج مرزوق يخرج بصقوره وكلابه لصيد الغزلان، كان يحب مذاق الغزلان والأيائل، أكل منها كثيرًا وحنط طيورًا أخرى تنتشر في ردهات قصره، لكنه منذ زمن لم يعُد يخرج للصيد، لم يعد يخرج من قصره العتيق إلا لصلاة الجمعة بجامع السيدة زينب، وكان لا يحتاج إلى شيء أو أحد؛ فخدمه كثيرون، وحشمه أكثر.

لم يأتِ عمر عبد الظاهر بمفرده إلى هذا القصر ولو لمرة واحدة، دائمًا برفقة سائق مبعوث من الحاج؛ مع فؤاد بك مرة، ومع «حسام» بك مرة أخرى، ولم يُسمَح له أن يأتي بسيارته ولا مع شخص آخر، ولم يُسمَح له أن يطلب لقاء الحاج، دائمًا الحاج هو من يرسل، ومن يطلب، ومن يأمر.

قال لنفسه: «نحن خدمه! وقدام بابه.»

لسنوات طوال، آمن السيد عمر أن الحاج مرزوق شخص خليُّ البال من كل شيء، رجل تام، كامل بلا نقص، لا يتقدم به عمر، ولا يمر عليه زمان وأحوال، رجل صلب، ثابت كأكبر جبل على الأرض.

رغم العمل عنده، واعتباره نفسه من خاصته، كان كل ما يعرفه هو أن الحاج مرزوق ليس له أبناء ولا بنات، وزوجته الحاجة، غير معروفة الاسم، ترعى القصر والخدم، وممنوع عليها دخول غرفة نومه، وفتح خزائنه الكثيرة في كل مكان بالقصر، والخدم من السيدة، عجائز موثوق بهم.

كان سعيدًا لأنه سيلتقي الحاج لمدة ثلاثين دقيقة كاملة، كما أبلغه فؤاد بك، سيرى الحاج وجهًا لوجه بعد غياب دام شهورًا طويلة، ولكنه كان أيضًا متوجسًا من «الأخبار الحلوة» وابتسامة فؤاد بك الغامضة.

«هناك أشياء ستتغير ما دامت هناك أخبار جديدة، ولو كانت حلوة».

انتظر السيد عمر واقفًا في مكانه بلا حركة، لعل أحدًا يخرج لاستقباله. لم يأتِ أحد، وكان الباب العالي أمامه مفتوحًا على مصراعيه: «قصر بلا بواب»!

تقدَّم وعبر الباب بثقة، وسار بخطوات متمهلة على الرخام العتيق الذي يفصل جناحي الحديقة الأمامية. كان الممر تحت قدميه من رخام أبيض وأسود وأحمر بأشكال ورد وأزهار، ومناظر طبيعية خلابة، وعن يمينه ويساره خضرة الأرض، عن يمينه نافورة من مرمر، زهرة عظمى ترسل الماء من أسفل إلى أعلى، وعن يساره قفص من أسلاك رقيقة، به عشرات من أنواع الحمام النادرة، على كل شكل ولون، وكانت النافورة ترسل خريرًا لطيفًا، وقفص الحمام هادئًا بلا صوت.

بخطوات واثقة، عبر إلى بهو القصر الواسع ونظر، لم يرَ أحدًا، لكنه رأى أمامه الكرسي الأرابيسك الجميل المعتاد، مُعدًّا لاستقباله، موضوعًا على حافة فسقيَّة مزخرفة قديمة، دائرة من الرخام يتوسطها تمثال من البرونز لصقر يرسل الماء من فمه، فيهبط برقَّة على البلاط تحته مرسلاً خريرًا لطيفًا، وأمام المقعد منضدة فوقها زجاجة نبيذ مقفولة، وكأس كريستال على شكل زهرة لوتس.

جلس، وبعد دقيقة سمع خطوها، وشم رائحتها الفواحة.

أقبلت نحوه شابة نضرة الوجه، باسمة الثغر، جميلة كأنها حورية أحلام، في يدها اليمنى مفتاح لامع.

تبسمت له ابتسامة عذبة، خالصة بلا غاية، وانحنت برقَّة قليلاً بتحية، وبهدوء مدت يدها، ورفعت الزجاجة، وأعملت فيها مفتاحها، غرست السن اللولبية الطويلة، أدارتها ثم شدتها إلى أعلى فخرجت السن بأسطوانة الفلين الطويلة، وبطرقعة واحدة كسرت الصمت بينهما.

صبَّت له ملء كأسه، وهي تقلب عينيها في وجهه.

«كل مرة أراها فيها، أراها تشبه سامية بنت بشندي، فيها شبه منها.. ليست هي، إنها أصبى وأصغر منها بسنوات».

هذه الساقية لا تتقدم في العمر سنة بعد أخرى كما الفتيات، إنها كما هي، لا تتبدل، ولا تتغير.

كان ينظر إلى عودها الذي مال برقة ورشاقة، وهي تنحني تصب له في كأسه، وتشجعه بابتسامتها الواسعة أن يشرب أكثر، ويستمتع.

«لم أذُق نبيذًا مثل هذا من قبل، الحاج بيجيبه منين؟ وبكام»؟

كلما أتى للقاء الحاج مرزوق، تظهر له هذه الفتاة بديعة التكوين، التي لا يعرف حتى اسمها، ولا صلتها بالحاج وبالقصر، تأتي لتصب له دون كلمة، دون أن يسمع صوتها، وتمضي كأنها لم تأتِ.

كان الضوء في البهو الواسع خافتًا، وهو استراح في جلسته، ووضع ساقه اليمنى على الساق اليسرى، ورفع كأسه، ورشف رشفته الأولى فانتشى على الفور، وهو الشرِّيب!

بعد أن صبَّت له ثلاث كؤوس، انحنت له مُحيِّية، وأعطته ظهرها ومضت عنه، وهو لا يريدها أن تمضي، أبدًا.

كانت فاتنة من ظهرها، تمشي بخيلاء مالكة هذا القصر وملكته، غادرته وقد تركت في حلقه غصة: «آه لو كانت لي، ملكي أنا»!

فكر أن يُخرِج علبة سجائره، ويشعل واحدة ويدخن، لكنه يعرف أن الحاج قد توقف عن التدخين منذ أعوام، وصارت رائحة التبغ تؤذيه، وربما تتسرب من هنا إلى أنفه الكريم.

لم يكُن قلقًا بعد النبيذ؛ فهو يلتقي الحاج كلما طلبه، لا يزيد اللقاء على دقائق، يعطيه خطته وأوامره الجديدة، وينتهي لقاء العمل السريع، الذي يخرج منه، دائمًا، بمكسب ورزق وافرين، فلِمَ القلق؟

«الأخبار الجديدة»؟

بدأ يهز رجله اليمنى التي فوق اليسرى بحركة رتيبة، متكررة، ونظر إلى ساعته مرات.

رشف جرعة أخرى فأصبح مزاجه منشرحًا، وبدأ يسحب بعمق رائحة البخور النادر الذي يحترق في داخل القصر، كأنه يأتي من داخله هو. شم رائحة ذكية فواحة تأتيه من كل مكان حوله، فتوقف عن هز قدمه، وأراح رأسه إلى مسند الكرسي خلفه، ورفع وجهه إلى السماء من فوقه، وأغمض عينيه، وراح يتنفس بهدوء وبطء، وغاب في موسيقى صافية، رائقة.

لم يدرِ متى امتدت إليه يد كهل في جلباب ناصع البياض وطاقية خضراء، وسحبته برقَّة، وعبرت به بهو القصر، ثم ممرًّا يفضي إلى حديقة أخرى خلفية، مساحة خضراء تنتهي بقوس من حديد مشغول فوق جرف عالٍ. مشى كالنائم مسحوبًا بيد مرشده حتى صارا على بُعد خطوات قليلة من جسد وافر طويل وعريض، في عباءة بيضاء واسعة، مطرزة بالذهب.

كان الحاج مرزوق واقفًا يتأمل القاهرة من مكانه العالي، مستندًا إلى حافة السور الحديدي بيد، وفي يده الأخرى عصاه.

اختفى مرشده الذي كان بجواره منذ لحظات قليلة، وسمع صوت الحاج كأنه يأتي من مكان بعيد جدًّا، يأتي من فوقه، ومن حوله:

- أهلاً يا عمر.

انحنى السيد عمر قليلاً دون أن يقترب، وهو يرد تحية الحاج:

- كل سنة وسيادتك طيب.

تبسّم الحاج له، وقاده إلى منضدة قريبة.

كان يمسك في يده اليمنى عصا معقوفة من الأبنوس، لها رأس أسد، يأنس بها في يده أكثر مما يتوكأ عليها، فما زالت خطوته ثابتة، رصينة.

وكانت منضدة دائرية صغيرة رُصَّت فوقها أطباق من خزف ملون، فيها مكسرات، جوز ولوز وعين جمل وبندق وزبيب، وعلى المنضدة كأس واحدة، وزجاجة نبيذ مفتوحة، وصندوق يلمع، ويشع بضوء خلاب كجوهرة كبرى.

جلس الحاج على مقعده العالي، واضعًا عصاه بين كفَّيه، وجلس السيد عمر عن يمينه، على كرسي واطئ بلا ظهر.

أشار الحاج إلى ما على المنضدة:

– اتفضَّل.

كالمعتاد، مد السيد عمر يده، وصب لنفسه من الزجاجة في كأسه.

بدأ يتذوق النبيذ العتيق: «هذه ألذ من التي عند الفسقيَّة، ألذ من كل ما قدمه لي من قبل»!

الحاج لا يشرب أبدًا، لكن الخمر موجود على كل مائدة تجمعه بآخر.

– إيه الأخبار؟

بعد الكأس الأولى الجديدة، صار السيد عمر في مزاج رائع.

– كله كما وصفت لسيادتك في التقرير السنوي، والميزانية اللي بعتَّها كالعادة مع فؤاد بيه.

تجاهل الحاج كلام السيد عمر، وقام يتمشى فتبعه، محاذرًا أن يقترب منه أكثر مما يجب.

قال الحاج:

– أنا عارف إن الورق كله سليم، ومتستف على الشعرة.

فهم السيد عمر أن الحاج يريد أن يقول: «ولكن!»

حاول أن يُخفي غضبًا ارتسم على وجهه، واستمر مبتسمًا، منتظرًا كلمات الحاج، لكن كلمة «سيادتك بـ...» سبقته.

قال الحاج وهو ينظر إلى السماء من فوقهما، وإلى البدر الوليد:

– لا طبعًا، أنت محل ثقتي، بدليل اللي عملته من لحظات قبل ما تيجي.

وأشار إلى المنضدة.

تحرك السيد عمر إلى المنضدة فلم يجد فوقها شيئًا يثير الاهتمام سوى صندوق، من خشب ورد نادر، وصدف أبيض وأسود، ثماني الأضلاع. رفع السيد عمر الصندوق البديع بين يديه، وعيناه قد خرجتا من محجريهما رغبةً: «ثمنه في خان الخليلي عشرة آلاف دولار على الأقل»!

حمل الصندوق بين يديه بحرص حاملٍ لؤلؤٍ.

لم يسأل ماذا فعل الحاج، ولا ما الذي في الصندوق، لم يكُن له أن يسأل الحاج أمرًا كهذا، وقف في هدوء وخشوع منتظرًا كلماته، كان كالمُخدَّر يستمع إلى كلمات رب عمله بإنصات، أحيانًا يبتسم، وأحيانًا يرق وجهه برجاء

وتوسل، وأحيانًا يرفع وجهه إلى محدثه في إعجاب، حتى سأله الحاج مرزوق السؤال المُكدِّر، فذهب اللطف من فوق قسمات وجهه، وتغير مزاجه:

– الحاج فتحي أبو درقة لسه مضايقك؟

استاء السيد عمر لذكر اسم هذا الشخص:

– لا، أبدًا، كله كويس سيادتك.

تبسم الحاج منكرًا، وهز رأسه يطمئنه:

– على كل حال أنا عارفك، أنت مدير ناجح، وتاجر شاطر، ومجتهد، وتستحق مكانة أرفع.

انحنى السيد عمر قليلاً بامتنان.

قال الحاج:

– والمكانة أمانة يا عمر.

طأطأ عمر رأسه في تواضع، ونظر إلى الصندوق بين يديه.

كان الصندوق بين يدي السيد عمر يشبه صندوق «أنوبيس»، الصندوق الذي وضعت فيه أعضاء «أوزوريس». لا، إنه يشبه تابوت العهد الذي فيه بقايا ألواح «موسى». لا، إنه يشبه أي صندوق موجود في السيدة أو الحسين. لا أبدًا، إنه صندوق نادر، ندرة وجود شخص يشبه الحاج مرزوق.

أشار الحاج بلطف أن افتح الصندوق.

فتح الصندوق بأصابع مرتعشة قليلاً، والفضول يملؤه، مد يده إلى داخله، ومس بأطراف أصابعه حافظة أنيقة من جلد وردي، ناعم وفاخر، أزاحها قليلاً فوجد تحتها حافظة أخرى مثلها في الحجم واللون، حاول فتح الحافظة الأولى فرده الحاج آمرًا:

- ابقى اطّلع عليهم بعدين.

تساءل وجه عمر في حيرة، ولم ينطق بكلمة.

قرر الحاج بصوته العميق:

- آخر عقدين أمضيهم، وأختمهم.

قلّب السيد عمر في رأسه أفكارًا شتى عن فحوى العقدين، وتمنى امتلاك الصندوق أيضًا.

ابتسم الحاج ابتسامة عارف، عالم بأسرار النفوس:

- خد الصندوق كمان ما دام عاجبك.

ابتهج السيد عمر بهذه التحفة الثمينة. احتضنها بيديه شاكرًا، منحنيًا للحاج انحناءة خفيفة.

كرر الحاج قوله:

- لكن افتكر دايمًا.. الصندوق وما فيه أمانة، أمانة وأنت حر.

بإخلاص متين قال السيد عمر:

- أقسم يا حاج، أقسم بـ...

حرك يده رافضًا.

- لا.. لا تقسم.

بعد لحظات من الصمت، أخبره الحاج:

- هذه آخر مرة تراني فيها.

صُدِم السيد عمر واضطرب، ولم يستطِع أن ينطق: «هل هي حقًّا المرة الأخيرة التي سأراك فيها؟»

بلطف أخبره الحاج أنه لن يستدعيه لزيارته مرة أخرى، وأنه ماضٍ إلى عزلة كاملة، ووحدة تامة، وانقطاع عن الناس؛ فقد قرر الاعتكاف هنا، وقضاء ما بقي له من عمر في الصلاة والعبادة، وترك الدنيا وما عليها لمن عليها.

همس عمر حزينًا:

- المرة الأخيرة؟

أكد الحاج مرزوق بكلمة وحيدة:

- الأخيرة.

اكتسى وجه عمر عبد الظاهر بغم ثقيل.

«الحاج لم يعُد يحبني ويقربني، لا يريد رؤيتي مرة أخرى، وجد شخصًا آخر يقوم بعملي»!

طأطأ عمر رأسه، ولمعت بعينيه دموع.

قال الحاج مرزوق يطيب خاطره:

- ناس كتير بتقول عني كلام مش صحيح بالمرة، رغم إني عمري ما قابلتهم ولا عرفتهم. أنا تعبت من البشر، وأعدائي بقوا أكتر من رجالتي، قلت أسيبها

لكم مخضَّرة، واعملوا انتو اللى يعجبكم، أنا هتفرغ للعبادة.

أحنى عمر عبد الظاهر رأسه في تسليم، حزينًا.

في النهاية قال الحاج مرزوق:

– أوصيك بالعروس، خلي بالك منها، هي أعز ما أنشأت وبنيت.

قال السيد عمر بإخلاص:

– في عينيه.

وكانت عيناه تتساءلان: «ماذا يريد مني أن أفعل بالضبط؟»

للمرة الأولى والأخيرة، مدَّ الحاج يده، فصافحه السيد عمر في ذهول.

كانت يد الحاج دافئة رغم برودة الجو، ولها ملمس ناعم. سحب الحاج يده سريعًا، لكن السيد عمر سُرَّ بهذا الشرف، وتدفق في نفسه اطمئنان، وفرح بهذا الرضا، وبهذه الابتسامة الوقور على وجه الحاج، الذي سيمضي للعزلة وللانقطاع إلى الصلاة، وإرسال الصدقات إلى محتاجي السيدة.

من المؤكد أن ذكره سيكون على ألسنة كثير من الناس في شياخات البغالة، والخليفة، وقلعة الكبش، والناصرية، والحنفي، سيظل اسمه عَلمًا في دروب السيدة زينب وحواريها وشوارعها وإن اختفى عن أنظارهم.

اضطرب السيد عمر قليلاً حين وجد نفسه قد صار وحيدًا، في الحديقة الخلفية. قال في نفسه يحدث الحاج الذي اختفى داخل قصره كأن لم يكُن: «هل هي حقًّا المرة الأخيرة التي أراك فيها»؟!

وهو يجتاز بهو القصر بخطوات بطيئة، كانت ترن في أذنيه كلمات الحاج الأخيرة: «لا تأتِ إلى قصري إلا حين يصلك خبر موتي. أوصيك ألا تكون لي

جنازة ولا خارجة، ولا سرادق عزاء، ولا يحضر جنازتي أحد من الورثة، أريد أن أذهب إلى ربي في هدوء وسلام.»

ما إن عبر باب القصر حتى رأى فؤاد بك قد أقبل في سيارة أخرى، غير التي كانت، سيارة سوداء بزجاج سميك، يمنع رؤية من بداخلها، وخلف نوافذها ستائر من حرير أسود. لم ينشغل بذلك؛ فكثيرًا ما تتغير السيارات التي يأتي بها فؤاد بك إليه، لكنها كلها فاخرة، وباهظة الثمن جدًّا، ومتعددة الألوان، حيَّره طويلاً أمر مالكها، هل هي لفؤاد، أم للحاج مرزوق؟ ماذا يفعل فؤاد أصلاً غير إيصاله، وإبلاغه الرسائل؟ كم يملك من مال هذا المرسال الغامض؟

ليس هذا وقت التفكير في مالك السيارات؛ فقد كان فرحًا بالصندوق بين يديه، وطيلة الطريق في السيارة السوداء جالسًا إلى جوار فؤاد بك، كان يفكر بفحوى العقدين الجديدين، وفي مستقبله في العروس، وفي مصيره.

٣

مدت سامية بشندي رجلها اليمنى وعبرت عتبة العروس. قسمات وجهها تنطق بتردد خفيٍّ، لكنها تخطو خطو من يعرف طريقه. لم تزُر محل عمل زوجها سوى مرات نادرة في مناسبات متباعدة، ومضى عام منذ آخر مرة وطئت قدماها عتبته.

كانت تخطر بثقة ظاهرة وهدوء في الداخل، وهالة من ضوء رقيق تحيط بها، عطرها كشذا زهرة ملكة الليل، وخطواتها تغوص في السجادة الحمراء تحت قدميها فتبرز مفاتنها. حولها تنتظم صور ولوحات، شخوص ومناظر تخطف العيون، والسقف بعيد كأنه سقف مكان مقدس، دوائر وأقواس زرقاء وخضراء وحمراء، وبحيرات تلتقي وتفترق. لوهلة رفعت رأسها ونظرت فوقها فغشت عينيها الألوان الساطعة، وأدهشتها الزخارف البراقة بماء الذهب.

زفرت دون إرادتها: «يا سلام. إيه الجمال ده»!

سارت نحو مكتب الاستقبال، تحس بحرارة الهواء على ظهر يديها وأصابعها، فركت راحتي كفيها، «الجو هنا دافئ». وبصرها يطوف بكل شيء همست: «ياااه.. مفيش حاجة اتغيرت».

على الجانبين، وفي الأركان، تماثيل من البرونز والفضة لنساء ورجال وطيور، وبامتداد الحوائط، لوحات أصلية لبعض مشاهير التصوير والرسم والكاريكاتير في مصر والعالم، وفي نهاية البهو كأسد عتيق، يربض «الهراوي» خلف مكتب الاستقبال العالي.

كان عبد المحسن الهراوي لاعب كمال أجسام، شبه معروف لسكان العاصمة، ومن المشاهير في السيدة زينب، ولما أفل نجمه التقطته يدا السيد عمر فعيَّنه حارسًا وموظف استقبال، وأوكل إليه مهامًا سرية أخرى. من قبله، كان أبوه «فرج الهراوي» بوابًا للعروس، وها هو ابنه في آخر مغامراته الرياضية، وبطولاته المحلية، يُضطَر إلى العمل في المكان الذي يُذكِّره بأبيه. لم يكُن يحب أباه كثيرًا، لكنه الآن سعيد جدًّا بوفرة النقود، ومبسوط هنا.

تشاغل رجل الأمن الأول عن المرأة التي تتقدَّم نحوه بالتحديق في الكمبيوتر أمامه، واتكأ بكوع كمطرقة على سطح مكتبه، وأرخى كفًّا سميكة على جبهته، وراحت أصابعه تهرش شعر رأسه القصير وجلد جمجمته، بعد لحظات مد يده الأخرى، وبخفة نشَّال سحب دفتره، أحمر الغلاف، وأخفاه في درج أسراره. «جاية تعمل إيه دي»؟

ارتفعت عينا سامية تنظر إلى ما فوق رأس الهراوي.

برواز ذهبي عريض يُؤطِّر صورة فوتوغرافية كبيرة، أبيض وأسود، تجمع الأسلاف الذين أوجدوا العروس في قلب القاهرة، ثلاثة رجال في أواسط أعمارهم يرتدون سترات سهرة، وتعلو رؤوسهم طرابيش أنيقة، ومُعمَّم حديث السن يرتدي عباءة سوداء واسعة الأكمام، وفي يده مسبحة طويلة، بيضاء الحبات. وجوه المُلَّاك جادة، ومتباهية بـ«العروس» التي أصبحت بمرور السنوات أفرد درة بين مطاعم القاهرة، وملتقى الطبقة الراقية، وكبار رجال العاصمة.

عاينت الأشخاص في الصورة فعرفت الحاج مرزوق عشم الله، الشاب المُعمَّم، صاحب المسبحة، والوحيد الباقي على قيد الحياة.

وكانت امرأة تتوسط الصورة التذكارية، شابة بيضاء في فستان سهرة أسود، مُموَّجة الشعر، ممتلئة الوجه، وباسمة.

«دي كمان أعرفها.. خيرية هانم، الله يرحمها، زوجة الموسيقار الراحل واصف عزيز، وأم الدكتورة نانيس. لم تأخذ نانيس لون أمها، إنها سمراء، مسمسمة التقاطيع مثل أبيها».

أصبحت على بُعد خطوتين من الهراوي.

لمس أنفه حين غزاه شذاها: «رائحتها شهيّة في الخياشيم».

رفع وجهه عن شاشة الكمبيوتر، وسلط عليها عينيه الضيقتين.

التقت عيونهما وتكلمت:

« كنتَ تُخيفني في طفولتي».

«أنا مش مخيف خالص».

لم تضطرب، أزاحت من نفسها كدرًا خفيفًا، وابتسمت بصفاء:

- مساء الخير.

وقف في مكانه، وشد بطنه، ورفع كتفيه نافخًا عضلات صدره وساعديه. للهراوي لغد هائل ظهر بعد أن كف عن تدريباته، يمتد من تحت ذقنه حتى منبت صدره، ورابطة العنق تضغط عليه فتنفخه في وجه محدثه، وتضخم تفاحة آدم الغائرة، ومع كل كلمة يتحرك لغده:

- أهلاً مدام سامية.

خرج من خلف مكتبه، وتحرك خطوتين سادًّا طريقها كبابٍ مصفح، ومركبًا فوق وجهه ابتسامة بلاستيكية.

تجاهلت حركته الغليظة وأداءه الخشن:

- أهلاً بيك.

- أنادي لِك المِتر؟

– شكرًا يا كابتن محسن. مش عايزة أعطلك عن شغلك، هادخل له أنا.

أبهجته مناداتها إياه بـ«محسن»، لكنه بدا ممتعضًا: «هه! ما دا شغلي يا حلوة»!

رفع إليها وجهًا قليل الصبر:

– خير؟

– أبدًا، نسيت مفتاح الشقة عند ماما، هاخده من خالد وأروَّح على طول.

سكت للحظات غير مقتنع بحجة حضورها: «يمكن بتكذب»!

خطر له أن يرسل أحد الندُّل ليخبر المِتردوتيل الكريه بحضور المرأة التي لا يستأهلها رجل مثله، لكنه عدل عن الفكرة:

– المكان كله كومبليت.

ابتسمت وقالت عيناها: «أنا مش جاية أسهر يا كابتن».

افتعل ابتسامة وهو يفسح لها طريقًا.

– يا رب تنسِي المفتاح كتير عشان نشوفك.

فكَّت إيشاربها الرقيق، كطرحة عروس، فتحرر شعرها الطويل، وانساب على كتفيها وظهرها. مدت طرحتها نحوه فالتقط طرفها، وهو يحملق في وجهها وقد تغيرت صورته، اضطرب، وجفَّ حلقه وعيناه تأكلان الحلوى اللذيذة.

عن يمين الهراوي مرآة من الأرابيسك والصدف، في وسطها بنورة عملاقة بإمكانها عكس عدة أشخاص معًا من القدم إلى أعلى الرأس، وعلى جانبي المرآة غصون وأزهار منحوتة في الخشب، ومشاجب من نحاس تتدلى منها معاطف ثمينة وقبعات متنوعة الأشكال، أغلى ما ورد إلى القاهرة من باريس ولندن ونيويورك.

تحركت خطوتين ونظرت في المرآة، مدت أطراف أصابعها تسوي شعرها وهزت رقبتها بلطف فانساب وأحاط بوجهها كهالة ضوء، صارت أيقونة تتأمل ذاتها في المرآة، والهراوي يمسحها بعينيه من شعر رأسها إلى قدميها.

تماسك، لكن تعثُّر لسانه فضحه:

– أأأ... جاية من غير بالطو؟!

واصلت ضبط خصلات شعرها الغزيرة:

– سِبته في العربية.

– الدنيا مش برد بره؟!

هزت كتفيها لا مبالية، وكانت طرحتها ناعمة جدًّا بين يديه:

– شكرًا يا كابتن محسن.

طرب من حلاوة صوتها، واهتز من داخله: «امرأة شهية تُؤكَل أكلاً.. يا خسارتها في رجل غبي»!

أعطته ظهرها، وعبرته، ولم يعبره شذاها الفوَّاح، خطت في البهو تعرف الطريق الذي يفضي إلى الصالة الكبرى، وكانت يداه قابضتين على الطرحة، ودغدغة لطيفة تسري في جسده.

قبل أن يعود إلى مكتبه رفع صوته:

– ما تنسيش تعدِّي عليَّ بعد ما تجيبي المفتاح.

لفَّت رقبتها نحوه.

– الإيشارب الحرير.

أومأت وتحركت إلى الأمام.

جلس إلى مكتبه بحال غير التي كان فيها. بآليَّة مد يده وأخرج دفتره السري، ودوَّن بقلمه الأحمر اسمها ووقت حضورها وسببه.

«جاءت من قبل مرات، لكنها لم تكُن بهذه الحلاوة، ما الذي حدث؟ لماذا تبدو هكذا الليلة؟ لماذا جاءت من الأصل؟ هل هذه هي البنت سامية المفعوصة بنت بشندي ريس الفواعلية»؟!

كان كالمُخدَّر وطرحتها بين يديه.

«تعرف قيمتي كويس.. أنا بطل السيدة زينب، وهي مُزَّة شديدة. طابت واستوت، يا خسارتها فيه، آه لو كانت لي»!

لمس أنفه وهو يحس بها حاضرة معه، ونسي نفسه.

امتدت أطراف أصابعه إلى حجره، وراحت تعبث، سرح مع خياله وغفل عن كاميرات المراقبة المنتشرة على كل حائط، والشاشة الكبيرة المجمعة لكل الصور، والقابعة في الطابق السفلي، في مكتب مستر «أسعد لطيف».

استرخى في جلسته بعينين نصف مغمضتين، وفي مكتب الإدارة الواسع كان المدير المالي والتنفيذي يتابع ما يفعل مدير أمنه، ويبتسم ساخرًا: «ماله البني آدم دا»؟

مد المستر قدميه وفردهما متقاطعتين على مكتبه في وجه الشاشة التي تبث ما يفعل الهراوي، كأنه يضعهما في وجهه. استراح في وضعه المحبب، ومد يده وشد إلى أعلى طرف جوربه الذي فاحت منه رائحة كريهة، وعيناه على الهراوي الذي اكتمل هيامه، وإغلاق عينيه.

على كرسيه الوثير كان مستر أسعد كهلاً قصيرًا، ممتلئ الجسد، تختلط في لون بشرته الحمرة بالسمرة، يرتدي بدلة سوداء بخطوط ذهبية، وفوق رأسه الصغير كرأس صقر برنيطته البنية، التي تلازمه أيًّا ما كان لون سترته الحريرية، يهوى عرض أناقته ويحب الاستعراض أكثر من المشاهدة، ولكنه يتفرج الآن.

- هه.. ماله الهراوي؟

«يأخذ مرتبًا كبيرًا، وأكثر مما يستحق، مطيع ومفيد لكنه الآن يهتز وترتعش أطرافه، ويسيل لعابه أمام امرأة. قريبًا سيصير بلا نفع».

تقدَّم الهراوي في عبثه حتى منتهاه، وواصل مستر أسعد تتبُّع حركة أصابعه المريبة، ووجهه الملتاع وقد بلغ الذروة، طوَّح ظهره إلى الخلف، وأطلق يديه في الهواء، واهتز جسده كله في ضحكة هائلة، رددتها حوائط غرفة مكتبه البيضاء.

حين وصلت سامية إلى عتبة الصالة الكبرى، حوَّل مستر أسعد عينيه إليها.

اجتازت العتبة، وضعت يدها أمام وجهها تحمي عينيها من الأضواء وسكنت على الرخام المزخرف القديم. بعد لحظات اعتادت الأنوار المتدفقة من ثريات في الأركان والحوائط، ومن السقف العالي الذي تتوسطه نجفة كريستال عملاقة، كأنها شمس صغيرة وسط قبة صافية الزرقة. رفعت رأسها إلى أعلى وفغرت فمها مبهورة كفتاة غريرة، أتت لتوها من حارة السيدة زينب، القديمة. قلَّبت وجهها، وراحت تلف حول نفسها تتأمل. ضاع بصرها في بريق الأشكال، وغابت عمَّا حولها، لا تسمع الجلبة والضوضاء ولا ترى أحدًا.

بعد لحظات طويلة، أطرقت وتبسَّمت خجلة من نفسها.

الحوائطورديَّة، والمناضد والكراسي بنيَّة، والمفارش بيضاء وحمراء مطرزة بخيوط ذهبية، وأدوات المائدة من الفضة، المكان كله ثري جدًّا، و«العروس» الليلة في أوج جمالها، وفي صدر الصالة كانت خشبة عرض نصف دائرية، مفروشة عليها سجادة بيضاء تحت قدمي الفتاة الصغيرة التي ترقص ليلتها الأولى في العروس.

«العروس تغيرت، ومقدمة على عهد جديد».

«سماهر» ترقص، والرواد يتمايلون في مقاعدهم، وآخرون يرقصون واقفين في الممرات، والندَّل كثيرون في بزات سوداء، والسفرجية يدورون بين الموائد حاملين الصواني، يرتدون جلابيب زرقاء مطرزة بخطوط ذهبية، ويضعون على رؤوسهم طواقي ملونة، وحول خصورهم أحزمة خضراء، كأنهم قادمون من سنوات الأربعينيات البعيدة.

«الزي الجديد»!

أينما تنظر تلقَ نساءً متأنقات في فساتين باهظة الأثمان، ورجالًا لامعي الوجوه، لكنها لا تقع على وجه من تبحث عنه. عادت إلى الراقصة، وإلى وجوه العازفين المستغرقين في العزف خلفها، سماهر ترقص كقطعة عجيبة من نغم، وغيرة سامية حارقة.

«أين زوجي»؟

هزت سماهر خصرها كشلال ماء، واهتز جسدها كله وتموج كأنها عروس بحر أسطورية. انخفض الإيقاع فتمايلت كعاشقة تنادي وليفها الغائب.

«خالد يعمل هنا ليلتين فقط كل أسبوع، لكنه سيأتي كل ليلة ويقول إنه يعمل! خالد يحب الراقصات وما زال مغرمًا بالبنات الصغيرات، سيقع في هواها، ويتركني وحيدة ويذهب إليها».

كانت مصدومة، فاغرة الفم، تراها في حضن «خالد»، تكاد تصرخ، وهي ترى المشهد الحار يدور بدماغها العنيد. نفضت رأسها منكرة، وعادت تبحث عنه، لا يزال بعيدًا. جلست إلى أقرب كرسي شاغر على البار، واختفت عن العيون بين الجالسين فوق الكراسي العالية، وكان هو هناك.

في ركن قريب، كان المِتردوتيل خالد عبد الباري يتحرك بين المناضد، يراقب النُدّل، ويكلم الزبائن، ويفكر: «البنت لا ترقص من أجل الزبائن، ترقص لنفسها فقط بفرح وبهجة.. مهرة برية فكت عنانها وانطلقت تستمتع بنفسها، لا تأبه بشيء».

يعرف خالد عبد الباري، الذي رشّحها وصديقه «إبراهيم مطر»، النحات، لإحياء هذا الاحتفال، أنها بنت يتيمة، جاءت من بيوت معزولة في عزبة «سُوبِك» على أطراف «نزلة السمان»، وأهلها أهل موالد وسيرك وحواة، ترقص منذ غادرت الحبو، وتعول جدتها، وأقاربها.

«أين زوجي»؟

نفد صبرها وزاد ضيقها، كانت تنتظر أن يأتي إليها، أن يخبره أحدهم بوجودها، في كل الأحوال لن تذهب إليه بقدميها. تغضنت جبهتها العريضة حين لمحته عند طاولة، يحاسب عدة شباب، وفتاة شقراء عارية الكتفين تطبع قبلة وداع حارة على خده.

نترت يدها في الهواء وزفرت من أعماقها:

- أوف.. أوف.

حوَّلت وجهها عنه، وكان جسد سماهر يعزف كآلة «هارْب». اندمجت مع الحركات الآسرة، وعند الطاولة الفارغة أخرج خالد عبد الباري من جيب سترته دفتره الأخضر، وقلمه الرصاص الطويل، كأنه بوصة قديمة جاءت من غاب على حافة النيل في قديم الزمان، وكتب بسرعة وفي ثوانٍ معدودة كلمات قليلة.

فوق كتف خالد وُضِعت يد بنية داكنة، خشنة الراحة، طويلة الأصابع، ارتفعت وهبطت تنقر عظمة كتفه ثم مُدَّت فأشارت إلى موضع في أقصى البار. رفع خالد عينيه عن دفتره ونظر إلى وجه بندق المستدير كوجه طفل، ووضع يديه على الكلمات التي كان يسطرها، يخفيها عن العينين الواسعتين المتلصصتين، ونظر في اتجاه إشارة يده.

انتاب بندق فضوله الحارق فمال على أذن المِتر، وهمس كأنه ضبط رئيسه يلهو:

- أنت كنت بتكتب إيه يا مِتر؟

أغلق دفتره ووضعه في جيب سترته الداخلي، ثم شبَّ ووقف على أطراف أصابعه. على امتداد بصره لم يلمح شيئًا غير مُتوقَّع؛ فحول كل مائدة الوجوه المعروفة نفسها وزحام وصخب أكثر من كل ليلة. في كل طرقة ومساحة حركة دائبة، رجال ونساء، شباب وكهول يطوفون حول البار، يرفعون أيديهم ويشيرون إلى الزجاجات الثمينة، متباينة الأسماء والأشكال والأحجام، على الأرفف، يفتحون أفواههم ويحركون ألسنتهم ويلفظون بلهفة اسم المشروب الذي يروق لهم:

- بيرة.
- نبيت أحمر.
- ويسكي.
- فودكا.

تبتسم وجوه النّدُل في لطف، ويتحركون، يستديرون ويمدون أذرعهم ويلتقطون الزجاجات ذات الأسماء العالمية، يضعونها على سطح البنك اللامع كمرآة أمام عيني طالبها، ويصبون بمهارة محترفة في كؤوس كزهور لوتس، وبرشاقة يدفعون أنخاب السنة الجديدة نحو الأيدي الممدودة، وبانحناءة رقيقة يهمسون:

- Happy new year.

يمد الزبائن أيديهم ويلتقطون ما يريدون من فتيات جميلات في فساتين حمراء لامعة وقصيرة، وفتيان في سترات سوداء وببيونات حمراء، تحتضن كفوفهم الكؤوس فتنفرج شفاههم قليلاً استعدادًا لتذوق النشوة، ويكافئون النّدُل وابتساماتهم اللطيفة: «شكرًا»، «مِرسي»، «ثانك يو».

يتحركون ويعودون إلى مقاعدهم مبسوطين، أو يبقون واقفين، يرشفون شرابهم بهدوء واستمتاع.

انفرج وجه خالد بابتسامة ملغزة، وهمس:

- عايزني أشوف إيه يا بندق؟
- شُفتها؟

عاد إلى التحديق في وجه بندق، وتساءلت عيناه عمَّا يقصد. ابتسم السفرجي الشاب، فارع الطول، بطيبة:

- مدام سامية.. هناك.

ومد ذراعه في اتجاه المقاعد العالية في أقصى البار، فبرزت عظمة معصمه، وبان جزء ذراعه المكشوفة نحيلاً، بجلد بني قاتم:

– هناك.. أستاذة سامية.. أهي.. شُفتها؟

وخطا برشاقة في قفطانه الأبيض وطاقيته الخضراء مادًّا يده اليمنى إلى أعلى رافعًا صينيته الفارغة، شاقًّا طريقه صوب طرقة واسعة، خافتة الضوء، تفضي إلى المطبخ الكبير.

اكتسى وجه خالد بالمرارة وهو يلمح امرأته منحنية إلى الأمام، وبين شفتيها مبسم طويل يرفع إلى شفتيها الحمراوين عصير البرتقال. تسحب الشراب شاردة، وعيناها تترددان ما بين كأسها وبين المسرح.

كانت جميلة ونائية وبعيدة عن يديه، وهي على بُعد خطوات. انتشر في جسده أسف عميق، لا يدري ماذا يفعل، وهي في مكانها تتابع جسد الراقصة في حركاته المتدفقة. لحن «ليالي الغرام» يتصاعد، يتعالى فيه الإيقاع فيغطي كسطح من زجاج على الكلام والضجيج. ارتفع اللحن وغطى على كل شيء، حتى الصخب الدائر في رأس خالد.

«ماذا تريد مني؟ الفلوس، لا شيء آخر، تريد أكثر من أجل مصاريف البيت، والمدرسة وأقساط الشقة والأثاث، وسيارتها، لا شيء آخر»!

قبل شهر، أخذت حقيبة السفر الكبيرة، والولد والبنت، وألقت الجميع في السيارة، وذهبت إلى بيت أبيها. مر أسبوع واثنان وثلاثة وهو وحيد، يعمل بالنهار في مكتبة «الحضارة»، قرب ميدان القلعة، وبالليل في العروس.

كان يحدق تحت قدميه تارة وفي زوجته تارة أخرى، ويرى سامية تجلده بسوط جلدي مسموم، جلدات ضعيفة مرة وقوية مرات، تعذبه من أجل كل شيء، تنتقم منه لامتلاكه وحده الأشياء التي تريدها هي، أشياء مثل الدفتر الصغير والقلم الرصاص! إنه لا يعطيها سوى الحرمان القاسي المميت. مرات عديدة قالت ساخرة إن الشِّعر لا يطعم أحدًا، ولا يداويه، ولا ينقذه من الموت، فيصمت، ولا يُعقِّب.

توالت حركات سماهر منسجمة، ترفع يديها كغصني شجرة، فتصير شجرة آدمية، تحرك صدرها ونهديها بلطف فيهتزان كرمانتين معلقتين على فرع، تخطو بقدميها خطوات قصيرة فيميد خصرها كأنه يتمايل مع نسمات مساء، وسامية تتمعَّن في كل حركاتها، وفي دماغها العنيد أفكار تروعها: «أخدته مني، خلاص».

في رأس زوجها تعبث صور ومشاهد أخرى.

في آخر نوبات غضبها العارمة، وقفت في مواجهته شرسة كأنثى فهد، تتطاير من إنسانَي عينيها زخات شرر حارقة، وعن يمينها «ندى» ملتصقة بها، تربت بيدها على خصرها تهدئها، و«كريم» منكمش، يحدق في وجه أبيه بفزع.

شدت جسدها كمصارع يتأهب للنزال، وأشاحت بيديها في الهواء فهبَّت عاصفة عاتية لفحت وجهه.

- إيييييييييه؟ عايز إيه مني؟

سكت وحوَّل عينيه عن عينيها الممتلئتين حقدًا إلى وجه كريم المذعور، ثم إلى عيني ندى الدامعتين. أشاح ببصره عنهم، وأخذ يحدق في الحائط كمن ينظر إلى سراب بعيد.

صرخت فيه كرعد في ليلة مظلمة تعبث بسمائها الصواعق:

- طلقني.. طلقني.

نظر في عينيها يبحث عن ندمٍ ما، لم يجد.

- أنت مفيش منك رجا أبدًا!

أزاحت يد كريم المتشبثة بخصرها فبكى بصريخ. استدارت وفتحت الضلفتين الخاصتين بها في الدولاب الأبيض الجديد، وراحت تنزع فساتينها وستراتها عن الشماعات، نثرت كل ملابسها بتشنج على سرير الزوجية، وتركت الفراغ داخل الدولاب، وصفقت الضلفتين بعنف حتى كادت تتحطم المرآتان الطويلتان، وتتطاير شظاياهما في وجوه الجميع.

شبَّت على أطراف أصابعها وقفزت إلى أعلى، تحاول أن تطال ما فوق الدولاب، وهي تدمدم بحروف: «هم نم نم آه... هـ... م». تمكنت، أخيرًا، بعد محاولات من جذب الحقيبة إليها. ارتطمت العجلات السوداء بأم رأسها، آلمتها الضربة، «أي، أي!» بكل ما فيها من قوة أسقطتها من فوق دماغها على السرير، سكنت وهدأت للحظات تلتقط أنفاسها، وكانت عيون ندى وكريم تحدق بذعر في أمهما التي تحشو حقيبة السفر بمناشفها، وأحذيتها، وحلقان وسلاسل، وبتميمة حظها: جعران من حجر فيروزي، بلا سلسلة من فضة

أو ذهب، تضعه في حقيبة يدها كلما خرجت من البيت.

في أحد أيام الخطوبة، أخذها خالد من يدها، ووقفا أمام محل «إيزيس» للفضيات، وضع يده على كتفها، وأخذا يتفرجان على التحف في فاترينة الدكان الملاصق لسبيل «الست صالحة الحسناء»، بناصية الدرب الشمسي وأول شارع بورسعيد. نقرت سامية الزجاج وأشارت إلى الجعران الذي أعجبها شكله ولونه وقصته عند قدماء المصريين، وقالت: «دا رمز الولادة من جديد، والخروج إلى النور». تبسم خالد معجبًا بجوهرته الجميلة، وجذبها من يدها إلى داخل المحل، واشترى لها الجعران، ودفع ثمنه الغالي.

قذفت بغيظ جعرانها في الحقيبة كيفما اتفق، وعلى خالد عبد الباري هبط سهم الله. وضع يديه في جيبي بنطلون البيجامة، وأطرق يحدق في أصابع قدميه العارية في الشبشب، وخرج من غرفة نومهما، ودخل حجرة المكتب، أصغر حجرات الشقة. أغلق الباب وجلس إلى كرسيه وفتح الكمبيوتر، وراح يحدق في صفحة البداية بأفكار صاخبة تقرقع في دماغه: «ماذا ستفعل؟ ماذا سأفعل أنا»؟

بدأت المشاجرات الدامية منذ غادرا شقة «الحبيبي» وانتقلا إلى حدائق الأهرام. تصاعدت وتيرة شجارهما اليومي مع ابتعادهما عن أماكن عملهما؛ فالمسافة طويلة، والطريق صعب. منذ غادرا كنف «أم هاشم» وألفة الناس

إلى عري الوحدة وقسوة العزلة، نسيا براءة الحياة البسيطة، بلا رغبة في امتلاك أشياء أكثر. نسيا قصة غرامهما، وانزلقا من الحب إلى الجنس، صار لقاؤهما فاترًا باردًا، وفشلا في الحب مرات، فصار سريرهما سوط عذاب، يلهب جلديهما كلما تمددا فوقه.

كانت سامية مرعوبة من أن ينظر إلى أخرى، يسافر ولا يعود، يختفي مثل أحلامها التي تبخرت، يتركها ويعود إلى الشقة التي تزوجا فيها وعاشا عشر سنوات، يموت فجأة بسكتة قلبية، أو دماغية، أو في حادث سير، أو بلا سبب، ينتحر أو ..

كانت خائفة من أن تصير امرأة وحيدة تجر في يديها طفلين بلا أب، فصارت لفرط رعبها تردد كلما احتد بينهما شجار: «طلقني.. طلقني». يربت على كتفيها، ويسكت، ويتركها لتهدأ وحدها.

تطمئن بعد شك، ترتاح لأنه لن يطلقها اليوم، لن يذهب بعيدًا عن يديها. ولكن ما الضامن أن يستمر وجوده معها ليوم آخر تحت السقف الجديد، ومع الأثاث الذي انتقته بعناية، واشترته من معرض الحاج «فتحي أبو درقة»، معرض التوحيد للأثاث العصري، ببرجه بشارع السد البراني؟

قال «طلحة أبو درقة»، وهو يناولها الكمبيالات وقسائم الأقساط باسم زوجها ليوقعها: «لا مؤاخذة، لا نقسط للحريم.»

اضطُرَّت للتسليم، وخاضت جولة ضغط على زوجها ليوقع، وليفرح بالأثاث الفاخر، الجديد.

وقَّع خالد الكمبيالات وإيصالات الأمانة والأقساط الشهرية، راضخًا لرغبتها في الأثاث الذي يليق بشقة رحبة من أربع غرف وصالة، ومن شرفتها الواسعة تُرى الأهرام الخالدة.

وهي تحمل الأثاث، أعادت الكمبيالات والإيصالات مُوقَّعة إلى «طلحة أبو درقة»، وأجابته عندما سألها عن سبب عدم حضور الأستاذ معها:

- معلهش، خالد عنده شغل.

وضع الإيصالات في درجه، وقبض منها المقدم وقال:

- قولي للأستاذ خالد على مهله، على أقل من مهله. أي خدمة.

من السيدة زينب إلى حدائق الأهرام انتقل الأثاث، وزعته على الغرف ونصبت المطبخ الأمريكاني في صالة الاستقبال الواسعة، والسرير المودرن في غرفة النوم، وفرشت غرفتين لـ«ندى» و« كريم»، ووضعت أواني من الزهور حول قطع الأنتريه الوثيرة، وتعبت، فغفت على الكنبة وسط المخدات الناعمة، ونامت نومًا عميقًا، بلا أحلام أخرى، حتى صباح اليوم التالي، وكان هو يقضي الليل كله في عمله بالعروس.

الآن من سيدفع أقساط الأثاث، والشقة، ومدرسة الولد والبنت، والدروس الخصوصية و...؟

لا ضمان لشيء سوى أن تُطلِقها في وجهه كلما اشتد خوفها: «طلقني.. طلقني.»

كانت عند باب الشقة، فتحته وأطلقت إلى الداخل موجة صوتية عاتية جديدة، اخترقت بابه الموارب وخرقت أذنيه:

- سايباهولك مطربق على دماغك.

وكان دماغه قد «تطربق» بالفعل وهو جالس إلى مكتبه، يحاول أن يقتل غضبه.

من قبل قالت له مرات ومرات:

- ما تسيبنيش، أنا لوحدي أضيع، عايش حياتك لوحدك، ومش شايل مسؤولية

حد، سايب عيالك من غير حتى ما تفسَّحهم، وسايبني أنا لحد ما كرهت أبقى معاك.

وقالت له:

– أنت مش شايف الناس عايشة إزاى، وعندها إيه، وكام؟

وتوترت أكثر واحتجَّت كطفلة:

– أنت حتى ما جِبتش عجلة للواد يلعب بيها! حتى عند فرش الشقة الجديدة سِبتني لوحدي. أنا لوحدي، لوحدي.

عند الباب كررت:

– سايباهولك مطربق على دماغك.

دفعت ندى أمامها، وحملت الحقيبة، وجرَّت كريم الذي كان يرتعد، وصفقت الباب بعنف شنيع فارتجَّ خلفها، وارتجَّت الأرضية السيراميك تحت قدمي زوجها في قوقعته.

هبطت سلالم العمارة، وطوابقها الأربعة، ووجهها ينضح بعرق غزير. توقفت وشدت اليد المعدنية للحقيبة، وجرَّتها خلفها. وصلت إلى سيارتها في طرف حديقة العمارة، وخلفها طفلاها يبكيان.

فتحت غطاء السيارة الخلفي وأعادت يد الحقيبة إلى موضعها، ورفعتها بكل ما فيها من قوة، وأنزلتها على حافة مؤخرة السيارة. زحزحتها إلى الداخل بعناء، ثم سكنت لحظات، أخذت نفَسها لدقيقة، ثم رفعت يدها ودفعت بعنف الغطاء المفتوح ففرقع كقنبلة صغيرة، وانغلق.

بعصبية جذبت الولد والبنت وألقت بهما على الكنبة الخلفية كأنهما دميتان من بلاستيك، وأغلقت عليهما الباب.

اجتازت عمارات كثيرة من أربعة أدوار، تشغل المساحات بينها بقعٌ خضراء وأشجار قليلة، حتى ظهر عن يسارها سور منخفض من حجر علاه التراب، وبهت لونه. عبرت بوابة حدائق الأهرام الأولى وخرجت إلى الطريق العمومي. الزحام على أشده وقت عودة الناس إلى بيوتهم. قادت سيارتها بجسد ثقيل، ورأس تتزاحم فيه الأفكار وتدور دوران سحب سوداء كثيفة، تظلم كل أفق، وتسد كل اتجاه ونور.

لفَّت صينية ميدان «الرماية» الواسعة قبل أن ينغلق في وجهها شارع الهرم، انسد الطريق بعشرات من السيارات المتوقفة، نظرت في المرآة الجانبية فلم ترَ سوى أنها صارت مُحاصَرة بمركبات أحدث وأقوى من سيارتها الصغيرة القديمة. زفرت بحنق ومدت يدها إلى علبة المناديل الورقية، ونشفت عرقها. مدت يديها إلى شعرها الطويل وراحت تلفه في خصلة واحدة، ولمَّته في كعكة كبيرة، ووضعت نظارتها الشمسية الكبيرة العدسات على عينيها، فأخفت نصف وجهها الدامع.

بعد وقت مضى عليها طويلاً وثقيلاً، تحركت إلى الأمام مترين ثم توقفت، تأففت، وزفرت. للأسف لم يُتَح أن يكون طريقها خاليًا حتى تقود بسرعة، تجري بأقصى ما تستطيع، فتصطدم بكل ما يقابلها، مؤخرة أقرب سيارة أمامها، تخرج عن الإسفلت وتصطدم بشجرة أو نخلة في الجزيرة الطويلة بالشارع، تريد أن تصطدم بأي شيء حتى تغرس رأسها بالعجلة السوداء تحت يديها، وتفقد الوعي، وتتخلَّص من هذا الذهن المريع الذي يطن كدبُّور في جمجمتها. مصيبة كبرى يجب أن تحدث، أية مصيبة والسلام، تخلصها من جحيمها وتخرجها سالمة.

صاحت دون أن تنظر إلى الطفلين خلفها:

– اسكتوا بقى.. اسكتوا.

كفكفت ندى دموعها ورفعت رأسها تحدق في كعكة أمها، وواصل كريم الأنين منكمشًا على نفسه بجسد ضئيل:

- كريم زعلان منك يا ماما.
- ليه يا حبيبي؟
- عشان زعَّقتي لبابا.

المصيبة لم تقع، بفضل السير البطيء في الطريق المزدحم الطويل.

بعد ساعتين، عبرت خلالهما شوارع كثيرة بسرعة سلحفاة بحرية عجوز في قاع بحر مظلم، اجتازت ميدان السيدة، ووصلت إلى شارع السد البراني فتحوَّل وجهها وهدأت قليلاً. انحرفت بسيارتها يمينًا، ودخلت حارة السيدة زينب القديمة.

عبرت «مسجد السيدة القديم» في أول الحارة، وتوقفت أمام باب بيت صغير، تفصله عن المسجد أربعة بيوت. نظرت إلى حدوة الحصان التي وضعتها «نعيمة السقارية» أعلى باب البيت الخشبي لتطرد عيون الحساد، وابتسمت بأسى.

دخلت بيت أبيها، ألقت بنفسها على صدر أمها، وراحت تبكي.

كان خالد عبد الباري في صالة العروس الكبرى يحدق فيها.

«ما الذي جاء بها على غير انتظار إلى العروس وفي ليلة كهذه»؟

منذ فارقته وتركته لوحدته بحدائق الأهرام، يقاسي غزو عذاب كنيران الجحيم لكل خلايا جسده، يستلقي على مرتبته التي صارت صلبة كحجر، ويحدق في السقف بعينين ملتهبتين، ينقلب على بطنه ويخبط القطن كأنه يصفعه، يلكم الحائط بقبضتيه كملاكم شرس، يأكل ما يجد قرب يديه، ليس لأي شيء طعم على لسانه، يملأ معدته فقط ليبقى حيًّا، لا يسمع كلام الناس إليه، ليس برأسه سوى تيار صوتي يجترُّ ما وقع له مع هذه المرأة العجيبة التي تزوجها عن عشق خاطف. مزاج أسود يصاحبه في مكتبة الحضارة، لا ينقذه منه جريان عينيه فوق سطور الكتب، وحال أسوأ في ليالي العمل الصاخبة بالعروس.

بعد أسبوعين، لم يحتمل أكثر، بلع كل حصى الأرض في حلقه، وطحن بأسنانه صخورًا صغيرة، وذهب إلى السيدة ثقيل الخطى. دخل الميدان وأذان المغرب يرتفع من الجامع، وقد أُضيئت مصابيح حمراء وخضراء وصفراء أعلى حوائط الجامع، وعلى الطوابق الأربعة لمئذنته العالية، عبر الميدان المزدحم بالبشر والسيارات من كل صوب.

كان الريس بشندي في ركنه، على رصيف المقهى القديم، الموضع نفسه الذي كان يجالس فيه والده «عبد الباري»، في جلبابه البني الثقيل معتمرًا عمامة بيضاء عالية، ملفوفة حولها تلفيعته الصوفية، شق الزمن في وجهه تجاعيد عميقة تكاد تخفي عينيه، لكن جلسته تبدو، في الظاهر، صلبة مثل حجر. يتسلى بالنظر إلى الميدان والمارة، وبيده مبسم النرجيلة، يسحب الأنفاس ويطلقها بتمهل وبطء.

الريس بشندي عارف بأسرار البناء، لكن المعمار سبقه ولم يعد بحاجة إليه، ولا بحاجة إلى عمَّاله الفواعلية، صار كل شيء برافعات تعمل بمواتير، ولا حاجة إلى كثير من العمَّال والبنائين، وحدَّادي المسلح، والعمل التقليدي قليل ولا خبرة له بالأبراج وشغلها، وسوق المقاولات الجديد.

اتجه نحوه، وهو يعلق على وجهه ابتسامة بدت زائفة ومريرة. وقف الريس بشندي متحاملاً على آلام ظهره، ونظر إلى وجه صهره، فلم يفُته ما به. مد يده إليه وسلم بحرارة، وابتسم له بترحاب.

جلس على الكرسي الذي أشار إليه حموه، ورفع الريس صوته:

- شاي سكر خفيف يا سعيد.

وعاد إلى مبسم النرجيلة الفضي فوضعه في فمه، وراح يسحب في بطء وهدوء مطمئن.

جاء الشاي بعد دقيقتين. ارتشف شايه قليل السكر في صمت. لم يقُل شيئًا عن سامية؛ فلا بد أنها ثرثرت بكل شيء عنهما، وأعادت القصة كلها ربما منذ أول يوم رأته فيه. لم يقُل شيئًا ولا دافع عن نفسه، وكان وجهه كافيًا جدًّا ليعرف الريس بشندي ما به.

مرَّ زمن بطيء ثقيل لا يقطعه سوى كركرة شيشة الريس بشندي، والدخان الخارج من فتحتي أنفه العجوز، لكن بشندي كان سعيدًا برؤية خالد، وبوجود سامية في بيته وندى وكريم معه، يلعب معهما بالليل وبالنهار.

حين أرادت سامية الانتقال من السيدة إلى حدائق الأهرام، قال الريس إنهم يعيشون ببركة السيدة زينب، ليس في أيام المولد ولياليه فقط، ففي كل وقت ناس من كل مكان و«جنة من غير ناس ما تنداس». زوار السيدة يزحمون الجامع والمقام، والمطاعم والقهاوي والمحلات، ونحن نحب الناس، ومحظوظون يا بُني بجوارها، الحمد لله: «لكن ما دام سامية عايزة تعزل وتروح مكان أحسن فربنا يوسع عليكم، وأنا وأمها لسه فينا صحة، ولو حتى عايشين لوحدنا هنعيش برضه.. ابقى طُل علينا يا ابني».

وقف وقفل زر سترته الزرقاء فوق قميصه الأبيض، ومد يده مستأذنًا فقد حان وقت الذهاب إلى العروس. قام الرجل العجوز من مجلسه، يداري ألمه عند الحركة، وشد على يد صهره، وربت بيسراه على كتفه، وقال واحدة من جمله القليلة:

- عارفها يا ابني، بنتي وعارفها، لكن أنت الراجل.. في سقارة بلد حماتك الفلاحين بيقولوا دكر النخل يترمي بالحجارة يسقط البلح.

وابتسم، ثم ضحك:

- وحماتك وبنتها ماسكينها لنا زلة.

أخيرًا تحرك نحو امرأته التي جاءت إلى العروس على غير انتظار، يشق طريقه ونظره معلق بها، يدفع قدميه الواحدة أمام الأخرى ويتقدم، يتأرجح يمينًا ويسارًا

ليتفادى جسد هذا أو صدر تلك، يمد يده ويربت على كتف أحدهم ليفسح له، يزيح آخر برفق من طريقه مفتعلاً ابتسامة «من فضلك.. لو سمحت» فتدفعه راحة يد رجل أو أطراف أصابع امرأة، يتحرك وهو يحس أن رأسه يدور، دماغه يطحن الأفكار كحجري رحى من صخر تطحن ما في قلبها من حبوب وغلال: «أطلَّقها وأخلص؟! العيال؟ جاية تعمل إيه؟ عايزة مني إيه بالظبط»؟

لا يسمع كلمات الاستنكار ولا الزجر ولا النهر التي تدفقت من ألسن كثيرة، عبَر أجساد أصحابها داهسًا قدمًا، أو مرتطمًا بمؤخرة أو بصدر أو دافعًا ظهرًا. وعلى بعد خطوات قليلة منها، اعترضته مناضد الصف الأول المميزة، اجتاز بعضها حتى سدت طريقه مائدة «ثروت بك فاضل» العامرة.

مائدة كبرى تتوسطها زجاجة نبيذ حمراء عملاقة، وحولها زجاجات أصغر حمراء وبيضاء ووردية، مرصوصة في دائرة، تحيط بها مزَّات متنوعة؛ أطباق صغيرة من الكافيار والجمبرى، وأنواع من الجبن، والسلطات الخضراء. وعلى رأس المائدة كان ثروت بك يملأ مقعده بجسد ضخم متين، في كامل أبهته وبهرجته، بوجه مربع وردي الخدين، وعينين خضراوين واسعتين، وقميص حريري أبيض مفتوح الصدر تحت سترته القرمزية، تتدلى من رقبته السمينة سلسلته الذهبية ذات وجه الأسد، وفي يده ساعته الألماس المرصعة بالأحجار الكريمة، التي يحرص على إبرازها ووضعها فوق أسورة قميصه، مطرز الحواف بالخيوط الذهبية، وعلى وجهه الحليق تمامًا، كانت تتألق ابتسامة ضجرة ناصعة البياض كأسنانه المستوية العريضة بين فكيه البارزين، وكانت صلعته كاملة تامة تلمع تحت الضوء، بلا شعرة واحدة.

يميل نحو «هايدي كمال»، مذيعة النشرات الإخبارية نصف المعروفة، ويطأطئ رأسه متصنعًا الاهتمام بحديثها، وكابتن «ميدو النعيم»، معلق مباريات التنس بقناة «إيليت» الرياضية الجالس في مواجهته يقرض أظافره، وبجواره طلحة أبو درقة، رجل الأعمال الشاب.

كان ميدو وطلحة صامتين، يفتعلان متابعة الرقص، ويتسمَّعان ما يدور بين ثروت بك وهايدي بآذان حساسة مفتوحة. وكانت هايدي تثرثر في أذن ثروت بك بلا توقف، بلا فواصل صمت بين العبارات، بوجه أصفر، عريض مسطح كشاشة تليفزيون حديثة، وشعر أشقر ناعم طويل، وعينين واسعتين خضراوين. هايدي لامعة الملامح، لها جسد رشيق مغوٍ وبارز التكوين، صدرها عريض ونهداها كمثرى طازجة لم تُمَس، لكن ليس لديها شفاه، شفتاها ممسوحتان كأنما مر مُوسى وشق لها فمًا بلا شفتين.

لما صارت أذنا ثروت بك لا تسعان كلمات أكثر سكتت هايدي، وسلطت عينيها الخضراوين الواسعتين على الراقصة التي جذبت اهتمام ثروت بك وأخذته منها، وجعلتها تشعر بعدم جدوى الكلام أكثر.

تفرجت للحظات ثم أعطته وجهًا ساخطًا لامعًا بمكياج ثقيل، ورفعت حاجبيها الرفيعين، وأجرت أصابع يدها البيضاء البضة على خصلات شعرها الأصفر باعتداد نرجسي، ورفعت صوتها ذا «السرسعة» المميزة، وتكلمت من سقف حلقها:

– تطوير دا يا ثروت بيه؟!

ثروت بك لم تعجبه لهجتها، وأزعجته حروفها الحلقية، لكنه وجدها فرصة ثمينة ليستعرض نظريته عن التغييرات الجديدة التي ادعى أنه هو نفسه الذي يقودها:

– أنا نفسي ثروت بيه هو من يقود كل شيء هنا.

وقال إن فكرة الراقصة والفرقة الموسيقية وكل التجديدات من بنات أفكاره هو، لا أحد غيره، حتى القائم بأعمال رئيس مجلس الإدارة نفسه، السيد عمر عبد الظاهر لا يدري عنها شيئًا.

واكتسى وجهه بجدية وقور، وقال برصانة عالم ببواطن الأمور إن ما يحدث مع دخول «العروس» بداية حلقتها الثامنة يتوافق وأحدث نظم الإدارة الحديثة،

وإن التغيير سنة الحياة، وأمر ربنا. وقال، وهو ينفث دخان سيجاره الطويل الرفيع أعلى شعرها، إنهم في كل الأحوال أحرار في ملكهم يفعلون ما يشاؤون، وليس لأحد أن يسألهم، وإنهم ليسوا في حاجة إلى الحمقى والأغبياء، ولمن يدعون أنهم يفهمون في كل شيء. وقال إنهم، ملَّاك العروس، في حاجة فقط إلى خدم مطيعين ومؤدبين، ورخيصين، وإلى من يرقصون رقصًا حلوًا مثل هذه البنت:

– غزال بري يستاهل الصيد، والأكل.

وضحك ثروت بك بملء فمه ضحكته المعدنية الرنانة، فباعد طلحة ما بين فكيه الضخمين وأخرج صريرًا وهو يفرك لحيته السوداء الخفيفة، ودارت عيناه في مقلتيه مثل خرزتين سوداوين، وبلع ريقًا سائلاً على هذا الجسد الممدوح.

وجمت هايدي: «أنا غبية يا وقح»؟!

قال طلحة:

– آه، تحديث زي ما بيقول لك ثروت بيه كدا، وأمر ربنا عز وجل.

حاول كابتن ميدو أن يخفي غيرته من الراقصة، فانفرج وجهه المدور كطبق صيني، وقهقه رافعًا شاربه الأصفر المقصوص بعناية، ومضيقًا عينيه البنيتين ماسحًا على شعره الرمادي الخفيف الباقي فوق صلعته اللامعة، وقال بصوت رقيق يعرفه عنه الذين يسمعون تعليقه على مباريات التنس الكبرى:

– رقصها مش حلو قوي يعني.

على مقعده الوثير، عاد ثروت بك بظهره إلى الخلف، وطوح يديه ورأسه عاليًا، ينظر إلى السقف العالي، وقد أدرك غيرة ميدو المفضوحة، ثم عاد برأسه إلى الأمام، ونظر في وجهه بابتسامة ساخرة:

– عارف إنك بترقص أحسن منها!

وخرجت منه ضحكات أخرى، عالية وصاخبة ومتتالية، وقد بلغ انبساطه آخره.

في هذه اللحظة البهيجة، اصطدم كوع خالد، وهو يحاول المرور إلى زوجته، بزجاجة نبيذ متوسطة الحجم، على طرف المائدة بين ثروت بك وطلحة.

مالت الزجاجة ووقعت ببطء وهدوء في منتصف المائدة فوق المفرش الأبيض، تمددت كامرأة مستلقية في فراش، وراحت تسكب من فمها نبيذها الأحمر الثمين في خيط رقيق منساب بلطف، راحت تلطخ المفرش الأبيض تحتها، ولحظة بعد أخرى كانت دائرة النبيذ المسكوب تتسع وتتسع، والمفرش الثمين يتحول وتتغير ألوانه، من أحمر وردي، إلى أحمر قاتم الحمرة، إلى أحمر دم الغزال، إلى أن وصلت الخيوط الحمراء إلى أطراف المفرش وراحت تنقط نازلة إلى رخام الأرضية ما بين قدمي ثروت بك وهايدي.

هبط صمت، كالموت المفاجئ، فوق المائدة العامرة، راقبت خلاله عيون المتحلقين حولها انسكاب النبيذ الأحمر كخيط دم رفيع، متدفق.

لم ينبس أحد بكلمة، كانت دهشة فاغرة فاها قد اعتلت وجوههم.

أراق خالد عبد الباري زجاجة النبيذ الأحمر، وسكن في مكانه منحنيًا قليلاً، يتابعها. دون إرادة منه تسللت من داخله روح ساخرة، فاستقرت على وجهه بسمة عابثة، حين التقت عيناه عيني ثروت بك. حدقت العيون الأربع بعضها في بعض تحديق عيون رجلين يعرف كلٌّ منهما الآخر جيدًا.

اغتاظ البك من هذه النظرة بعيني خالد، ولا مبالاته الراسخة.

خرج من سكوته، فتحرك جسده في كرسيه ليواجه الكابتن الأعمى الواقف أمامه، وأشاح بيديه في الهواء، وانفجر في سباب وقح سكبه كله على الكابتن.

تلوَّثت الموسيقى الراقصة بسباب ثروت بك، لكن الموسيقى لم تتوقف، وسماهر لم تسمع صوتًا آخر غير أنغام اللحن البهيجة.

نظرت هايدي إلى وجه خالد، فوقعت عيناها على عينيه. اضطربت قليلاً، وتوالت على صفحة وجهها انفعالات متناقضة، وهي تحاول ستر رعشة شفتيها تحت

أصابعها التي وضعتها على فمها، تداري إعجابها القديم بوسامته وابتسامته اللامبالية. للحظات لم تقُل له كلمة وهي تحدق بعينيه الصافيتين مثل بحيرة، بصعوبة حوَّلت عينيها عنه، ومدت يدها وربتت برقة على كتف ثروت بك:

– بسيطة، ما تزعَّلش نفسك يا زروووت بيه.

أمالت جذعها نحوه، ومدت أصابعها تربت على خده، كأنه طفل غاضب. سكت ثروت بك، ولم يُرِد أن يعكر صفوه أكثر.

كان ثروت بك نصف مشهور، لا هو من رجال أعمال الصف الأول، ولا هو مجهول، إنه بين بين، وهذا يؤرق ليله ونهاره، لكن أعماله تتسع، وتتمدد، ومشروع القناة الجديدة هو كل همه، وشغله الآن، وكان رجلاً ثرثارًا، وبخيلاً، وشكَّاءً من قلة ما يربح، وسوء ما يلاقيه في بيته، ولا يطربه سوى التلصص على الجميلات، في هذا هو ذوَّاقة، أفضل من يعاين، لكنه، في الآن نفسه، ليس له فيما يمكن أن يحدث بين معجب عاشق وامرأة جميلة تحب عاشقها، لهذا يختصر الطرق، ويعرض العملة الأقوى.

انزلقت يد هايدي من خده إلى رقبته ثم صدره، وراحت تداعب الشعر الخفيف الذي اختلط فيه السواد بالبياض، وبادلت «خالد»، بخفاء عن عيني ثروت بك، نظرة تواطؤ سرية، وضغطت على شفتيها البنفسجيتين الفاقعتين بروج ثقيل، وقالت بزجر مصطنع:

– وأنت.. مش تحاسب يا خالد.

هزَّ خالد عبد الباري رأسه كالمعتذر، وبادل ثروت بك نظرة أخيرة خاطفة، وواصل طريقه إلى امرأته، مُودِّعًا بسباب طلحة، ابن الحاج «أبو درقة» الذي لم يسمعه.

– حمار.. أعمى.. ولا يهمك يا باشا.

رفع «ميدو»، وصدم أصابعه بعضها ببعض، ثم نترها بانسياب ورقة أنثوية في الهواء أمام صدره، راسمًا قوسين متباعدين:

- مِتردوتيل صفيق.

وراح يزيح بيديه شيئًا وهميًّا علق ببنطال ثروت بك.

كابتن ميدو يتملق ثروت بك طيلة الليلة، راجيًا أن يصير المعلق الرياضي الأول للرياضات الفردية في قناة ثروت بك الجديدة. هو لا يحب الألعاب الجماعية، تخصصه التعليق على كرة التنس؛ التنس الأرضي، وتنس الطاولة، والسباحة، وكلها رياضات الناس النظيفة، واللطفاء فقط.

«ميدو النعيم ليس مشهورًا أبدًا كما يجب، وكما يستحق. إلى متى يعلق على الألعاب الشهيدة؟ ميدو النعيم يجب أن يصير أشهر من هذا بكثير يا أغبياء».

بنعومة ورقة، قال ميدو النعيم وهو لا يزال يزيل الوسخ الوهمي عن بنطال ثروت بك:

- ها.. هنتبدي تصوير البرنامج الرياضي الجديد إمتى يا ثروت بيه؟

لم يُجِب ثروت بك، وأزاح يد ميدو عنه، ونظر إلى طلحة نظرة ذات مغزى.

مرت أصابع يد طلحة اليمنى على شاربه النحيل المستطيل، ونزلت إلى المسافة ذات الشعر المهوش القليل بين شفته السفلى وذقنه، وهبطت إلى لحيته القصيرة، وقال وهو يعبث بشعراتها:

- باقول لك إيه يا نعيم.
- هه؟
- ما تعلق على مباريات كرة قدم بقى.
- إيه؟!
- عشان تهدا وترسى كدا وتلاقي لك شغلانة.

– أهدا وأرسى؟ وكرة قدم؟! غوغاء.. غوغاء.

استاء ثروت بك حين أدرك أن خالد عبد الباري لم يشعر بضآلة أمامه، وحين رأى أن هذا الأجير عنده فتح عينيه فيه، وأنه سدد إليه نظرة احتقار شنيعة قبل أن يعطيه ظهره ويمضي، وكان له وجه زاجر يهدده بما يعرف عنه من أسرار، يقول: «لا وقت لديَّ لسيادتك.. لوضاعتك». بلع ثروت بك غضبه من أفكاره، ومن هذه الصفاقة المريعة لأحد مستخدميه، وصرح أخيرًا من بين دخان سيجاره الكثيف:

– اعتبروا الشخص دا اترفد من هنا.. خلاص.

همست هايدي في أذنه الكبيرة:

– على فكرة، مراته هنا.

– فين؟

رفعت يدها وأشارت إلى موضع سامية.

وقع بصرها على الجانب الأيسر لوجهها، جالسة في راحة، وبيدها كأسها، هيئتها وانتباهها إلى الراقصة وهباها حضورًا لطيفًا. من هذه الزاوية بدت سامية لـ«هايدي» امرأة جميلة حقًّا، جميلة جمالًا أصليًّا، لا زيف فيه، فتحولت روحها إلى كتلة غم تتكلم من أعماق الكمد:

– هناك.. بتشرب عصير أورنج.

خِلسة نظر ثروت بك في الاتجاه الذي أشارت إليه يد هايدي، وصمت للحظات يداري اضطرابه، ويهدئ شحنة كهرباء صدمت أوصاله، قال لها بلا مبالاة:

– آه.. عارفها.

وهو يحدق في سامية بشندي رآها كما يهوى، تحولت في عينيه إلى تمثال ذهبي فاتن، ثروة ثمينة، تجلب ثروات كلما مرت عليها الأيام. كم تتوق نفسه

إلى تملُّكها! إنها لا تلتفت إليه، ولا ترى عينيه المسلطتين عليها، ولا تشعر برغبته القديمة فيها تُولَد وتتأجج من جديد، وفي نفسه سرى صوت حنين شغوف كاد ينساه: «نفسي فيها من زمان». امتلأ كربًا، كما امتلأت نفس هايدي غمًّا حين تردد بصرها بين وجهي الاثنين، «ثروت» بك، و«سامية».

حدقت في سامية متألمة: «آه.. آه.. باهرة الجمال الليلة! وهي مجرد محررة نشراتي أنا، وليست مذيعة مشهورة مثلي تظهر على الشاشة أمام الجماهير، أمام الملايين».

مالت على صدر ثروت بك، وهمست له:

- واللي يجيبها لك؟

- هاه؟!

قالت بثقة حاسمة، وهي تصور ما تقول بيديها:

- يجيبها لك زاحفة، واحدة، واحدة، زي سلحفاة.. زي ترسة بحرية.

حدق في عينيها.

- بس على شرط.

ازداد تحديقه في عينيها، ونفث من سيجاره عمود دخان ثقيل الرائحة، مرَّ بخدها ورقبتها العارية.

- قناتك الجديدة.. يبقى لي فيها برنامج التوك شو الرئيسي.. يا زررووووت بيه.

رفع ثروت بك حاجبين كثيفين ملتويين، مثل أشواك صغيرة منثورة فوق عينيه، وابتسم ساكتًا، لم يسألها كيف ستأتي بها.

من نفسها، قالت هايدي إن الهدايا الذهبية هي الوحيدة التي تخلب لب أية امرأة، وتغويها، وإنها شخصيًّا تحب أن تُهدى الذهب والألماس واللؤلؤ، والياقوت والمرجان. وضحكت بغنج.

مالت عليه، واقترحت أن يشتري عقدًا من لؤلؤ لسامية، وآخر، طبعًا، أغلى منه لنفسها، وإنه سيرى بنفسه ما ستفعل، سيذوق شهد هذه المرأة حتمًا.

لم يقُل لها ثروت بك «بسيطة»، واكتفى بأن غمز لها بعينه اليسرى غمزته الشهيرة، دون وعد بشيء. اغتاظت المذيعة الجميلة من ثروت بك الذي تركها بين الشك والرجاء.

«البرنامج، برنامج التوك شو الكبير، وفوقه عُقد لؤلؤ فخم يا بجم».

بعد لحظات قليلة، جاء بندق مهرولاً إلى مائدة ثروت بك، وبيده مفرش أبيض جديد، وراح يرفع ما عليها من زجاجات وأكواب، وهو يكتم شماتته في البك الذي اسودَّ مزاجه، وتلطخت مائدته بالكدر، ومفرشه بالنبيذ المسكوب.

رفع ثروت بك يده اليمنى وطرقع بإصبعي الإبهام والسبابة.

فهم «زينهم»، النادل المراقب لمائدة البك، أنه قد حان أوان زجاجة أخرى، فتحرك إلى البار، وأتى بمخصوص البك.

بحركات رشيقة مُدرَّبة، بدَّل بندق بالمفرش الأحمر مفرشًا أحمر جديدًا، قاتم الحمرة وناصعًا وناعمًا، وهو يسترق النظر إلى صدر هايدي المكشوف، ومضى وعلى وجهه ابتسامة خبيثة.

بعد لحظات، توسطت المائدة زجاجة ويسكي طويلة ورشيقة تشبه عروسًا من زجاج، عروسًا قانية الحمرة. عدلت هايدي خيطي حمالتي فستانها الأحمر فوق كتفيها العاريتين، واعتدلت في جلستها، منتصبة الظهر كأنها تجلس أمام كاميرا، كأنها ستكون على الهواء مباشرة بعد لحظة، وابتسمت ناظرة إلى زجاجة الويسكي العملاقة، وبين أصابعها كأسها مرفوعة، وقد بدأ لسانها يشتهي الكأس المنتظرة.

٤

كانت لا تزال هناك ...

على كرسي لا ظهر له، والانتظار أثقال على قلبها، مع كل ثانية تمر تئنُّ بلا صوت وتتململ في جلستها.

وضع بندق عصير رمان أمامها، وأخذ الكأس الفارغة، وابتسم لها كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض:

- منورة يا أستاذة سامية.

هزت رأسها بامتنان:

- شكرًا يا بندق.

العصير الحلو ينفد رشفةً بعد أخرى، وهي تضم الكأس بين راحتيها، وترفعها إلى شفتيها، أظافرها طويلة، حمراء، ومقوسة كأجنحة طير صغير، تشرب وفي رأسها يتسع السخط كنقطة حبر سوداء تتضخم لتصير بحيرة.

«آه.. أخذَته مني، خلاص»!

احتقن وجهها بحمرة كشرابها، وتصلب جسدها كصخرة حين رنت في أذنيها كلماته: «الجواز مؤسسة فاشلة يا هانم». صارت عيناها شريرتين جدًّا، حفرتين في جمجمة هيكل متهدم.

قبل ساعتين، سحبت الجرار الزجاجي في أجزخانة أمها الخشبية، المعلقة بجوار مرآة الحوض، والتقطت مقصًّا، شذبت أظافرها وقوست أطرافها ثم غمست فرشاة، كقلم طويل، في زجاجة صغيرة، وراحت تلونها بتمهل، بأحمر دم الغزال.

كانت على الكنبة مستغرقة، غافلة عن حركة أمها على بُعد خطوات منها أمام الحوض القديم، وغير منتبهة إلى كلمات متدفقة من الفم الناصح، وإلى وصايا غزيرة بلا محبس، مثل ماء الحنفية المفتوحة عن آخرها فوق يدي أمها المتشققتين، وعلى الأطباق والأواني من تحتهما.

أمها تتكلم بجمل قصيرة سريعة، تطرق كل باب بسذاجة مرحة، ونهم الجائعة إلى الحكي والونس. رزقة السقارية ليست ثرثارة، إنها محبة للحكايات وللقيل والقال فحسب، وبشندي طيلة عمره يعطيها أذنيه، يشجعها بسكوته على الحكي أكثر، ينصت إليها، ويقلب في رأسه ما تقول، بلا تعليق.

تغسل الأطباق بعناية، وتتكلم عن الأستاذ خالد، وأبيه، وأمه:

- ناس طيبين، ولاد حلال، الله يرحمك يا صفية، وأصله اللي ...

ثنت رجليها تحتها وجلست متربعة، وأراحت ظهرها إلى مسند القطن خلفها. الكلمات تترى على أذنيها كأمواج تعبر سريعًا كأنها لم تكُن، وهي غائبة عن كل شيء، ناسية حتى غضبها، وهجرها لبيتها منذ ثلاثين يومًا وليلة حزينة، كئيبة.

انتهت من طلاء أظافرها، رفعت يديها أمام عينيها تتأمل لونها اللمَّاع، انبسطت، وحل في داخلها هدوء عميق بعد صخب أفكارها السوداء وضجيجها، التي لازمتها في صحوها ومنامها منذ تركت بيتها.

راق مزاجها فقامت تغني «مال القمر ماله.. ما جيناش على باله.. مال القمر.» جلست إلى تسريحة أمها ومرآتها الدائرية، مشطت شعرها وراحت تتزين. أضاءت في رأسها فكرة، رأتها جميلة ومبهجة. توقفت عن الدندنة وقامت، خلعت عنها جلابية البيت، الداكنة اللون، وفتشت حقيبة السفر حتى وجدت ثوبها الغالي. ارتدت فستان سهرتها الوحيد الذي لم تقربه من زمن، ورجت أمها:

- خدي بالك من كريم وندى.

كانا نائمين على سرير طفولتها.

- اتمسينا يا بنتي من بدري، تخرجي دلوقتي في انصاص الليالي؟!

سكتت للحظات، ونظرت في عيني أمها مباشرة.

«يا أمي.. إني مريضة حبًّا، لم أعد أطيق بعدي عنه».

طبعت قبلة رقيقة على خدها، وقالت بتعجل إنها ستمر على أبيها السهران في القهوة وتستأذنه. وضعت طرحتها الأجمل لديها فوق شعرها، والتقطت حقيبة يدها، وخرجت غير مبالية بالغضب الذي طفح على وجه أمها، وقادت سيارتها الصغيرة نحوه.

رغم كل الزحام، كانت وحيدة، غارقة في عزلتها. رجلاها متقاطعتان، ومنحنية قليلًا إلى الأمام تحدق في الراقصة. اختفى كل شيء ولم يعُد موجودًا سوى جسد يشع كنجمة أرجوانية عظمى. مسحورة تحملق بالجمال الفتَّان الذي فرض سلطانه، مالكًا كل مشهد العالم، حركة بعد أخرى، هزة بعد أخرى، تتحول كلها إلى عينين شاسعتين، بحيرتين ساكنتين، تتبدل فوقهما صور الراقصة العجيبة، مرة تراها ببدلة أرجوانية، ثانية ببدلة بيضاء، خضراء، وثالثة كأنها كوبرا مرقطة بعدة ألوان.

تحت دائرة ضوء حمراء، كانت سماهر ترقص رقصة مقدسة في معبد الحب، وهي تحملق فيها فتضيع وتغيب عن نفسها، تنتابها نشوة، فيتمايل جسدها معها بانسجام كغرام جميل، كانت «سماهر» هي «سامية» الصبية، لكنها أجرأ كثيرًا مما كانت عليه وهي في مثل سنها، افتتنت بالبنت، ووقعت في أسرها.

انتهت سماهر من رقصتها بقفلة رائعة مع آخر نغمة في لحن ليالي الغرام فانتبهت، وعادت إلى وضعها كمتفرج، كمراقب غير متورط، لم ترفع يديها لتصفق، وثقب أذنيها تصفيق متواصل، وصيحات استحسان، بعدها سكت كل شيء، وتحوَّل ضجيج الكلمات الجارية على الألسن إلى صمت مطبق، لا يرتفع فيه سوى الصوت الذي يتردد داخل جمجمتها الصلبة.

«إن كل امرأة ستجد سببًا للغيرة الحارقة من هذه البنت التي تستطيع إغواء أي رجل في العالم، وستجد أسبابًا لتغبطها في الوقت نفسه. إنها فتاة حرة من كل ثقل، الثقل الذي أحمله أنا، الزوج والطفلين المعلقين برقبتي، ترقص كأنها تملك الدنيا، كأن لا وجود لصبية رائعة في العالم غيرها. آه.. كم أغار منها، كم أحسدها، كم هي مثيرة للإعجاب، ولولا أنني أخاف منها على خالد لأحببتها»!

في فجر اليوم الذي غادرت فيه شقتها، عاد إلى البيت بعد أذان الفجر، دخل غرفة النوم، وأيقظها من أحلى نومة صوته الفرحان: «إزاي إزاي إزاي، أوصف لك يا حبيبي إزاي، قبل ما أحبك كنت إزاي». كان مزاجه رائقًا، منبسطًا آخر انبساط، استيقظت وهو يفك رابطة عنقه، دعكت عينيها بأطراف أصابعها تطرد النوم فرأته يغني، ويتمايل، ويكاد يرقص، كان عقلها الذي لم يستيقظ بعدُ مشغولاً بكيف ستجهز الولد والبنت للمدرسة، وهو قادم من سهرة حافلة يغني.

خلع البنطلون وألقى به على السرير، وبقي بملابسه الداخلية البيضاء، ابتسم في وجهها وباس خدها، وتكلم بشغف وإعجاب عن امرأة أخرى، عن الراقصة، وعن سحر ليلته.

«يا الله.. هل عدم الرجال الإحساس؟ هل صاروا وقحين إلى هذه الدرجة»؟!

قال إنه رآها ترقص في ملهى «البلبل» على طريق مصر الإسكندرية الصحراوي، وإنها اكتشاف مذهل، فنانة حقيقية، وإنها قد تُحيي فن الرقص الشرقي الراقي من جديد.

«آه.. هكذا.. يا سلام»!

أخبرها أنه ذهب لرؤية صديقه النحات إبراهيم مطر، في مرسمه بنزلة السمان، فأخذه ليريه اكتشافه الساحر:

- مطر دا فنان، رفيع الذوق.. عاشق للجمال.

«يا لهوي.. آه.. آه من الرجال أصحاب العيون الزائغة، والذيول الطويلة! فن؟! فن إيه اللي أنت جاي تقول عليه»؟!

كان الزحام أمامها لا أحد، خيالات نساء ورجال وألوان وأضواء وموائد عامرة، ولا شيء حقيقي سوى الراقصة المغوية، والرجل الجائع إلى جسد شهي فتي، ليس كجسدها الذي كبر وشاخ.

«متى يراني؟ متى يأتي إليَّ»؟

كان على بُعد خطوات معدودة منها، بدت له أميالاً تفصله عن المرأة التي لم تعُد تبيت تحت سقف بيته. لمحها شاردة، تدير ببطء وملل المبسم في كأسها الفارغة وتقلب، كأنها تقلب حياتها كلها معه.

في طريقه إليها، التقطت أذناه صوتًا شديد الخفوت فتوقف، وضع يده على أذنه يرهف سمعه، وسكن في مكانه ينصت إلى الصوت الذي لا يكاد يُسمَع وسط الضجيج. بعد لحظات ارتفع تدريجيًا، وصار أعلى وأقوى، حتى تغلب على أصوات البشر والموسيقى.

يسمع اسمه يتردد ثم يعقبه صدى، كأنه أمسى وحيدًا في خلاء تام:

- خالد.. خالد.

اسمه يأتي من فوق رأسه، ومن تحت قدميه، ومن جانبيه، ومن داخل صدره. أيقن بعد شك بوجود من يناديه ويدعوه. تلفَّت، ودار حول نفسه. مرت عيناه على وجوه كثيرة ولم يرَ أحدًا، وفي رأسه يتردد النداء. خمَّن شخص صاحب الصوت فدب فيه فرح مباغت، وفي حركته نحو المصدر انساب لطف.

«أكيد هو.. بس رجع إمتى دا»؟!

لم يكُن صوت امرأته هو الذي يناديه، كان يأتي من زاوية خافتة الضوء، يخرج من بين شفتي رجل يجلس مع امرأة إلى منضدة تتوسطها آنية زهور، كهل بشعر

رمادي طويل ينسدل على كتفيه العريضتين، يربت بيد كبيرة، خشنة الراحة، على كتف المرأة التي تميل عليه بجذعها ميل شجرة رشيقة. عندما لم يُجِبه أحد وقف، طويلاً نحيلاً متأنقًا في بدلة من كتان أبيض، وقميص لبني بلا رابطة عنق، وأخذ يلوح بيده، ويصيح من جديد.

من مجلسها، تعلقت المرأة بخصره، ونظرت في عينيه تلومه لتكراره الصياح. ابتسم لها، وأجال بصره في كل جهة، وواصل نداءه.

ينطق وجهه فاتح السمرة، لطيف الملامح، بالحبور وهو يردد بشوق:

– خالد.. خالد.

أخيرًا رأى ذراعه الطويلة مرفوعة فوق الرؤوس تلوح، عرفه من يده الكبيرة كيدِ حدَّاد أو نجَّار مسلح، أو بنَّاء.

تعانق الرجلان في فرح:

– حمد الله ع السلامة يا مطر.

– الله يسلمك يا خالد.

– جيت من باريس إمتى؟

– من ساعاااااااات.

استاءت المرأة قليلاً من انشغال مطر عنها، لكنها حين تأملت مشهد الرجلين، يمس كلٌّ منهما كتف الآخر، ويتحادثان في ود صافٍ وسرور خالص، همست لنفسها: «صديقان حقيقيان».

استغرقت في الإنصات إليهما، ودون وعي مدت يديها إلى عقدها حول عنقها الطويل، وبأصابع رشيقة حركته قليلاً، ونقرت فصوصه الملونة، فأصدرت شخشخة رقيقة، وصار عقدها الثمين، بذهبه وأحجاره الكريمة، آلة موسيقية، تدندن احتفالاً.

كانت الدكتورة نانيس، أستاذة الموسيقى، وابنة الملحن الشهير واصف عزيز، تعزف لحنًا خاصًّا تحية للصداقة الواقفة أمامها على أربع أقدام. ومن أجل مطر وحده، ارتدت الليلة فستان سهرة ورديًّا، مرصعًا بزهور ذهبية، ولونت شعرها فصار يلمع بحمرة كأنها شفق، وصففته يتموج على جانبي وجهها، ووضعت نظارتها الطبية في حقيبة يدها وتركت عينيها عاريتين، ومكحلتين. كانت متألقة كأنها في طريقها للعزف على عودها، على المسرح الكبير، بدار الأوبرا.

الشخشخة اللطيفة تتوالى من فصوص عقد نانيس، وكلمات تأتي وتروح على لساني خالد ومطر حتى صارت الابتسامات ضحكًا خافتًا، بعد عبارات أخرى ولمسات من نانيس لعقدها طالت الضحكات ورجع كل منهما بظهره إلى الخلف ورفع وجهه إلى أعلى، يبعث القهقهات إلى السقف العالي.

كل منهما يحدق في الآخر باستغراب ودهشة كأنهما غريبان يلتقيان للمرة الأولى في حفل فريد، كل ما حولهما جديد، وُجِد توًّا. وفي الحفل، ألقى مطر ببطء ووضوح إلى خالد عبارات قليلة، فهمها ورآها تُطرِب وتسحر، فأخذ يحدق في السقف، يتمنى لو ينفذ منه إلى المكان الذي يأتي منه الصوت، لكن الصوت لم يكُن بعيدًا عن أذنه اليمنى.

«لقد دُعينا إلى الاحتفال العظيم، فلنستمتع به قدر ما نستطيع، هذا حفل العمر. أنت في عرس فاتن، عرس الكينونة والوجود، فلا تدع نكد الآخرين يعكر صفو نفسك. أنت موجود هنا من أجل هذا فقط، وإن رأيت أن تفعل شيئًا آخر، كأن تغني مثلاً أو ترقص أو تلقي عليهم الشعر، ترسم أو تسقيهم خمرًا، أو أن تنحت تماثيل بشر وحيوانات وطيور كما أفعل أنا فافعل، اصنع كل يوم ما تحب ينبسط الوجود بك، وينشرح الناس بوجودك. هذا كل شيء يا عزيزي، ليس لدينا سوى هذه اللحظة، الآن، الآن هي اللحظة المجيدة يا شقيق روحي».

قهقها كأنهما في أرجوحة ذات قاربين، والقاربان متضادان، يرتفع واحد بصاحبه إلى أعلى فيهبط الآخر إلى أسفل، طفلان يتأرجحان ويتسابقان في ليلة

عيد. بعد لحظات توقف خالد عن تعويم قاربه: «هل رأى ما حدث لي مع ثروت؟ هل يعرف ما صارت إليه حالي مع سامية؟ كيف عرف؟! لم أخبره بشيء، أمور لا يعلمها أحد غيري وغيرها، من الذي أفشى له أسراري»؟!

كان يريد أن يقول إنها حفلة زائفة، وحلقة مفرغة، غبية، امرأة تبحث عن رجل من أجل أن تنجب بنات وبنين، تربيهم ليكبروا، وليبحثوا لهم عن شركاء آخرين لينجبوا أبناء، يربونهم من أجل أن يكونوا أسرًا جديدة، وهكذا، دون سؤال واحد عن جدوى كل ذلك. غباء منقطع النظير بلا انتهاء، والمرأة لا تعرف سوى أنها يجب أن تصير أمًّا، وإلا ستموت وهي حية تُرزَق، ستموت تدريجيًّا مثل فرج مظلم لا يدخله نور.

تبادلا نظرات، وقهقها من جديد حتى لفتا الأنظار. أحسَّا بعيون كثيرة تسكب الاستهجان عليهما، وضع كل منهما يده على فمه، وسكتا خجلين، وفي هذه اللحظة كفت نانيس عن شخشخة عقدها، كأنها تنتهي من عزف مقطوعة قصيرة.

أمسكت كف مطر تتحسس خشونته: «يد قوية تنحت الصخر».

كانت عيناها العسليتان الواسعتان تُريقان الغرام به، ووجهها الأسمر تدرَّج بحمرة عذراء خجلة. «كم أحبك»!

قالت بمشاغبة وطفولة:

- وصِّي صاحبك عليَّ!

ردد خالد نظره بينهما.

شدتْ يد مطر ليجلس إلى جوارها، ورفعت وجهها إلى خالد:

- فهِّمه يا صاحبه الأنتيم.

هز رقبته غير فاهم.

مالت نانيس وطوقت عنق مطر، وقالت بدلال:

- فهِّمه باقول لك.
- أفهِّمه إيه؟
- فهِّم صاحبك إن الحب غير ممكن.
- إيه؟!
- الحب مش ممكن أبدًا من غير موسيقى، بس ممكن جدًّا من غير نحت.

ضحك مطر من أعماق قلبه حتى دمعت عيناه:

- يا حبيبتي.. النحت هو الفن المصري الأصلي، الفن الأعظم، وحول كل شخص، في كل مكان، يوجد الحجر، والخشب، والطين، و...
- آه، بس الموسيقى أقدم! ولا تحتاج إلى حجر أو طين، أو أي مادة، تحتاج إلى روح.. روح وبس.

قال خالد يغيظ صاحبه:

- الله ينور عليكِ يا دكتورة.

امتعض مطر، ولاح على وجهه خيبة أمل.

غيَّرت الموضوع:

- إزيّ سامية؟
- هناك أهي.

وأشار إلى موضعها على البار.

كانت مستغرقة في الفرجة، وسماهر، التي يبدو أن لا انتهاء لحيلها وألعابها ورقصاتها، غابت وقتًا تاركة الفرقة تعزف وحدها، ثم عادت ببدلة صفراء، واستولت عليها من جديد.

قالت نانيس:

- قول لها تيجي تقعد معانا.

كصبي ساخط رد:

- ما بكلِّمهاش، أنا رايح أشوف شغلي.

لم يعرف لماذا قال لهما إنه لا يتحدث معها، ولا يريد. هل ينقصه أن يعرف أصدقاؤه ما هو فيه؟ شد مطر طرف سترته فانحنى عليه يسمع همسه.

قامت نانيس مثل عصا في يد مايسترو، اجتازت الزحام وذهبت إلى سامية، عانقتها، وقبلتها، وأخذتها من يدها وعادت بها، أجلستها عن يمينها، ورددت نظرها بينهما:

- صلوا ع النبي يا حبايبي، واهدوا على بعض.

حوَّل خالد وجهه إلى الاتجاه الآخر، وقرَّب أذنه أكثر من فم مطر.

وقف قلب سامية انتظارًا.

«مش هتبُص لي بقى؟ خالد.. بُص لي».

قلبت حقيبة يدها، وتقلبت فوق وجهها مشاعر شتى.

سكت مطر فأعطى خالد ظهره للجميع، وهرول مبتعدًا، شاقًّا طريقه تجاه الممر المفضي إلى المطبخ.

قذفت حقيبتها إلى وسط الطاولة، وقالت غاضبة:

- شايفة بيعمل إيه؟ مش عايز يبُص في وشي حتى.

كادت تبكي حين ربتت نانيس على كتفيها، واحتضنتها كأم تواسي طفلتها الحزينة.

في المطبخ، كانت مواقد كبرى واسعة العيون مشتعلة، وفوقها قدور ضخمة. عندما تخطى العتبة، باغتته روائح اللحم والدجاج والسمك والبهارات الحريفة، فمسَّ أنفه، وقعد في ركنه على مقعده المعتاد، وألقى نظرة داعية نحو شخص ضئيل الجسد:

- عم برسوم.

كان برسوم مشغولاً بالذوّاقة الذي استقدمه مستر أسعد لطيف من الإسكندرية ليتذوق كل طبق، ويقرر أمر كل مشروب يُقدَّم، وليقرر تسعيرة جديدة لكل ما يُوضَع على طاولة.

«حمُّو الترسة» يقود برسوم نحو المواقد والحلل، كتلة ضخمة بوجه مستدير، يشقه شارب رمادي كثيف، فوق فم واسع بشفتين غليظتين، يحجل بعطره النفاذ كبرميل فسيخ، وسترته الخضراء تكاد أزرارها تطق من ضغط كرشه، وأعلى ببيونة عنقه الصفراء كان فمه مفتوحًا لآخره، يدفع الكلمات في وجه برسوم:

- افتح الحلة دي.

يمد طرف لسانه الأحمر الطويل، ويميل برقبته الغليظة إلى الملعقة في يد برسوم، يشفط قليلاً مما عليها ببطء، يغلق شفتيه ويغمض عينيه، ويهز رقبته، ثم يفتح عينيه ويطلق تشخيصه:

- ناقصة كمون.
- ناقصة ملح وفلفل أسود.
- حط وقة جوز الطيب هنا.
- روزماري كتير.
- كركم.. زوِّد الكركم.

صوته واثق ونبرته آمرة:

- ناقصة سِوا.
- السمك ما يتشويش كدا!
- اللحمة دي تتحمَّر أكتر.
- قرفة، كتَّر القرفة في الحلة دي.

كادت تفلت من برسوم: «الله يقرفك يا ترسة.»

طيلة أربعين عامًا لم يقتحم مطبخه مخلوق، رتب فيه كل شيء بيديه، اختار كل دولاب ومنضدة وحلة ومغرفة وسكين، وانتقى كل شيء بعناية.

عبر سنوات طويلة، لم يذُق أطباقه الشهية قبل أن تُقدَّم للزبائن أحد من قبل، وها قد وصل أخيرًا من يعدل عليه ويقوده، وحان الوقت ليأتي هذا البرميل ويحكم على جودة طبخ «الطباخ المُعلِّم»، أستاذ طباخي القصور والفنادق الكبرى.

«راحت عليَّ»؟!

– ناقصة جنزبيل.

قرر حمُّو الترسة.

– ناقصة حبة البركة، ما تآخذنيش يا معلم.

برسوم القصير النحيل كأنه وتد بني عتيق لم يرد بكلمة واحدة، ولم تهتز فوق رأسه طاقيته الأسطوانية البيضاء العالية، ولم يتلقَّ منه الذوَّاقة المغرور سوى هزة رأس، وإيماءة صغيرة.

استاء حمُّو من سكوته وتسليمه، يريدها «عركة» حامية تنتهي بطرد العجوز الضئيل من العروس إلى الأبد، واغتاظ لأنه لم يعرف معنى لهذه الابتسامة الثابتة التي ترافق هزة رأس برسوم كلما أمره بإضافة شيء، أو رفع النار أكثر، وكلما عبَّر عن سخطه على هذا الطعام الرديء «ناقص السِّوا» و«فقير البهارات».

انتقل إلى وعاء الأرز الكبير، نزع بغلظة ملعقة الاختبار من يد برسوم، ملأها وقرَّبها من فمه وأخرج لسانه: «يقصد إيه؟ إيه معنى هز راسه، وسكوته، وأنا باهزؤه»؟!

وهو يتذوق الأرز فتح عينيه ونظر إلى وجه برسوم بجواره وتعجب من منظره. برسوم بارز عظام الخدين، رقيق الشفتين، جاحظ العينين قليلاً، لا يعرف محدثه إن كان قد قُدَّ من عظم عتيق أم من حجر منحوت، لا يعرف من ينظر إليه إن كان طعم لحمه حلوًا أم حادقًا أم حارًّا أم مرًّا.

«يسكت أحسن».

المطبخ في حركة دائبة، مساعدو برسوم يقلبون الحلل، والندَّل يتوافون بطلبات الزبائن، والسفرجية يأتون فارغي الأطباق فوق الصواني، ويذهبون وقد امتلأت، وأكثرهم يسترق النظر إلى ما يدور بين الأسطى الكبير والذوَّاقة الوافد.

اغتم خالد لحال برسوم الجديدة، وبعد لحظات علت الدهشة وجهه حين اعترض بصره مخلوق جديد آخر، يراه للمرة الأولى، في مطبخ العروس.

تحت الطاولة الكبرى، كانت سلحفاة بحرية، حمراء الدرقة، مرقطة بالأخضر، طويلة الأذرع، قد سحبت رقبتها الوردية من تحت درقتها، ومدتها، ورفعت رأسها الصغير، ونظرت إليه.

«ترسة بحرية جميلة في مطبخ العروس»؟!

راح يراقبها، وفي ذهنه تتقلب مناظر أخرى.

منذ سنوات بعيدة، خرجت رزقة السقارية من بيتها في عباءتها السوداء، وعلى رأسها طرحة مزركشة، وفي يدها فتاة أطول منها، ترتدي بنطلون جينز وبلوزة فضفاضة، وعلى وجهها فرحة نجاحها في الثانوية العامة. عبرتا شارع السد، ودخلتا حارة الحبيبي، ووقفتا أمام بيت، في دوره الأرضي دكان معروف الكُتبي.

- يسعد مساك يا حاج معروف.
- أهلاً وسهلاً.. نوَّرتِ الدنيا يا ست أم هاشم.
- ها؟
- والله لسه.. كتب أولى مكتبات ووثائق دي ما وصلتنيش، اصبري شويه، لسه بدري على الجامعة ما تفتح يا سامية، الأسبوع الجاي تُفرَج إن شاء الله.

كان خالد عبد الباري، الموظف الجديد بمكتبة الحضارة، في طريقه لدخول بيتهم:

- مساء الخير.

ردت رزقة:

- يسعد مساك يا أستاذ خالد.
- أخبار التنسيق إيه يا سامية؟
- دخلت جامعة القاهرة، كلية الآداب.

وسكتت واضعة عينيها في تراب الأرض تحت قدميها.

- قسم إيه؟

قالت «أم سامية»:

- قسم وثائق ومستندات!

ابتسم خالد فقالت سامية مبتهجة:

- قسم وثائق ومكتبات.

عقدت أم سامية يديها على بطنها:

- والحاج معروف معندوش كتب الكلية دي.

خجل «الكُتبي» قليلاً، تنحنح وعدل طاقيته البنية فوق رأسه الأصلع:

- معنديش والست الطاهرة.. دوَّرت في كل الدكان ما لقيتش، حتى قلبت كل الكتب اللي وصلتني من قصر الحاج مرزوق ذات نفسه، وبرضه ما لقيتش كتب وثائق ومستندات دي.

وأشار إلى كومات تبرع بها الحاج لصالح تلاميذ السيدة.

قال خالد:

- أنا عندي.

تهلل وجه رزقة:

- مدد.. مدد يا رئيسة الديوان. مدد.. يا غفيرة.

لم تكُن تبحث عن الكتب فقط لابنتها، كان الأهم أن تضعها في طريق العريس.

- اسم الله عليك يا خالد يا ابني.. تستاهل الهنا يا عريس.

خجل كمراهق:

- لحظة أطلع أجيب الكتب.

وصعد.

قال «الكُتبي» لـ«أم سامية»:

- بالذمة دا كلام؟!

سكتتا، ووقفتا تنتظران.

بعد دقائق قليلة، نزل خالد عبد الباري من شقتهم فوق الدكان، وبين يديه أربع كراتين مستطيلة، يسندها بذقنه، انحنى ووضعها على الأرض، أمام سامية، واستقام.

شكرته بابتسامة عذبة، وأمها دعت له:

- ربنا يعلي مراتبك يا خالد يا ابن صفية.. الله يرحم والدتك، كانت ست طيبة وكريمة. الله يكرمك ويحبّب فيك خلقه ببركة أم هاشم، ربنا.. و...

حدج معروف الكُتبي الأستاذ خالد بنظرة ساخطة.

غضب الحاج معروف لقطع رزقه، وعبث بشاربه الأسود الكثيف المُهوش، وعلق إبهام يده اليسرى في فتحة جلبابه البلدي، لم يرُق له ما فعل الأستاذ، ولم يعُد معه بعد ذلك اليوم كما كان من قبل، ولم يصفَ له بعدها.

في نفسه قال «الكُتبي»: «قطع الرزق مش بالساهل يا ناس.»

- صحيح، دي كليتك، وقِسمك، فاتتني إزاي دي؟!

وضعت سامية كرتونتين فوق رأس أمها، ومد خالد يديه، ووضع الأخريين على رأس سامية.

- اتمسوا بالخير.

مشتا بهدوء، وعبرتا حارة الحبيبي إلى شارع السد البراني، ثم عرجتا إلى حارة السيدة زينب القديمة، وكان خالد يتأملهما مسرورًا وقد حملتا فوق رأسيهما أثمن ما لديه.

قال معروف الكُتبي، وهو ينفض يديه:

- أرزاق.

تمتم خالد مُقرًّا:

- أيوه.. أرزاق، أرزاق.

وكان مشغولاً بالنظر إلى ظهر سامية عن النظر إلى وجه الكُتبي الحانق.

صعد إلى شقتهم وقلبه يقفز داخل صدره، وحبها قد بذر بلا موعد، وبلا انتظار.

«لماذا أعطيتها كتبي في ذلك اليوم؟ لماذا تعلقت بها من ساعتها»؟

وضع برسوم يده على كتف خالد:

- إيه؟! وحدووووه.

رفع خالد وجهه إلى برسوم وابتسم بمرارة. حرك يده وأشار متسائلاً عن هذا الوافد الواقف أمام الطاولة الكبرى في وسط المطبخ، غلب الأسى وجه برسوم وهو ينظر إلى وقفة حمُّو في مكانه هو، حيث يجب أن يكون واقفًا، وهمس كأنه يكلم نفسه:

- دنيا دوَّارة.

خلع الذوَّاقة سترته الخضراء مثل طحالب طافية على بركة ماء آسِن، ونزع البيونة الصفراء، وشمَّر كمَّي قميصه الأحمر فترجرج ثدياه المترهلان تحت

قميصه. انحنى وقرفص على أرض المطبخ، وأمر من حوله أن يرفعوا معه الترسة من تحت المنضدة إلى فوقها:

- باسم الله.

مد يديه فامتدت بعض الأيدي معه.

أمسك بدرقة السلحفاة العملاقة، وكتفت أيدي المساعدين الأطراف الأربعة، و«هيلا هوب» رفعوها، ووضعوها على الرخام الأسود للطاولة الكبرى.

أمام حمُّو استقرت السلحفاة التي كانت تأكل قناديل البحر والإسفنج، والطحالب والأعشاب، ونظرت إلى قميصه الأحمر، ومدت رقبتها. قلبها على ظهرها فظهر بطنها الوردي، ضخمًا وممتلئًا باللحم. فتح فمه الواسع وراح يحرك لسانه الطويل بين فكيه، وعلى وجهه فرحُ مقدمٍ على مواقعة فريسة شهية.

رفعت الترسة رأسها ونظرت إلى خالد عبد الباري، ورقبتها بين يدي حمُّو.

بشكل ما، كانت الترسة تنظر إليه مثل امرأة عجوز في محنة عصيبة، تعرف أنها في طريقها للذبح، تنظر إليه باستعطاف أن يفعل شيئًا من أجل ترسة بحرية كانت تجوب البحار والمحيطات حرةً لعقود. كانت تستعطفه، كأنها تقرن مصيرها به، ومصيره بها.

بدا له أنها تتوسل إليه أن يبقيها حية فتألم قلبه، وندت عنه «آه» خافتة.

ولم يستطِع النظر إليها لوقت أطول.

- هيعمل إيه الجدع دا؟

قال برسوم:

- ما تستعجلش.. استنى هنا شوية وهتشوف بعينك، هتشوف بنفسك يا ابني.

من حقيبته الجلدية المستطيلة، أخرج حمُّو سكينًا طويلاً بثنيات وسنون وشفرات قصيرة، وكانت يده اليسرى قد أحكمت قبضها على الرقبة الوردية.

أمر السيد حمُّو:

- حضروا الكاسات.

أشار برسوم بيده، فتحرك بندق نحو دولاب الأواني والصواني والكؤوس الفاخرة في ركن المطبخ الكبير.

- توكلنا على الله.

تحت يده، كانت السلحفاة تتشمم قدرها المقبل، وقد غطت ثلثي مساحة المنضدة الرخامية السوداء الكبيرة ببدنها الطويل، وفاضت عن عرض الرخام، ترفع رأسها الصغير وتنظر إلى حمُّو بلا عتاب، بلا رجاء ولا توسُّل، كأنها تعرف ما الذي سيفعله. رفعت رقبتها وحدَّقت في وجه حمُّو، ومدت رقبتها، كأنها تقول: «أسرع.»

أبقى حمُّو سكينه في الهواء، ولم يخفضه إلى أسفل ويجز الرقبة. كان على وشك أن يفعل ما اعتاد أن ينجزه بمهارة الخبير في المهنة النادرة في هذه البلاد. توقفت يد حمُّو قبل أن تمس الرقبة الطويلة، وتغير وجهه من وجه جزار إلى وجه سفرجي، واكتسى وجهه بجدية وقور:

- هو عشا البهوات الساعة كام بالظبط؟

نظر برسوم في ساعته القديمة، وقال بهدوء وتسليم:

- بعد ساعة.
- متأكد؟
- آه.. زي ما قال مستر أسعد.
- تمام، يبقى لسه شوية، الدم لازم يتقدم سخن.

وضحك ضحكة اهتز لها جسده كله:

- على فكرة، أنا ممكن أسلقها من غير دبح، أسلقها حية، وأبقى أدبحها بعدين.
- نعم!

غطى لهب وجه برسوم.

«ألا يشعر هذا البرميل بالخجل، بالخزي مما يقول»!

وجَّه حمُّو له ضربة، حسبها صاعقة، ستجعله يغضب أخيرًا ويرد عليه، أو على الأقل يسبه.

«حان وقت العراك يا برسوم، وفي يدي سكين».

– تعرف تطبخ الترسة دي؟ أكيد ما تعرفش، أنت ما بتعرفش.. ما بتعرفش يا برسوم.

زم برسوم شفتيه وضغط على أسنانه حابسًا لسانه داخل فمه، وعقد يديه خلف ظهره، ومشى مبتعدًا عن حمُّو، وعن الطاولة الرخامية التي فوقها يُقطَّع اللحم وتُقَص الأجنحة ويُعَدُّ كل شيء للوضع على النار، والدخول إلى الأفران.

أخرج خالد دفتره الأخضر والقلم الرصاص، وراح يكتب بسرعة قبل أن تطير الكلمات.

٥

خلف «العروس»، قبل تقاطع شارعي «مصطفى كامل» و«قصر النيل»، توقفت فجأة السيارة السوداء ذات الستائر المسدلة وصرَّت، كأنها حجر حط لتوِّه من السماء فارتطم بإسفلت الشارع واستقر.

رفع فؤاد بك قدمه عن الفرامل. لم يهتز بفعل الاصطدام المفاجئ للعجلات بالإسفلت الأسود، ولم يزعجه صريرها، بقي منتصب الظهر في حزام أمانه، عيناه تحدقان أمامه، لا ترمشان، ولا يدير وجهه إلى يمينه ليلقي نظرة على من بجواره، وما فعله به.

إلى جواره ارتج السيد عمر عبد الظاهر، وانكفأ إلى الأمام، وكاد رأسه يرتطم بالحافة القاسية لتابلوه السيارة. انحنى وتقوَّس وأنَّت ركبتاه المصابتان بالخشونة، «آه» توجعت عظامه العجوز، وأفلتت منه:

- إيه؟!

لم يُجِبه سوى صمت مطبق.

استرد توازنه، وأمسك صندوق الحاج مرزوق الذي كان يهتز هزات خفيفة فلمع بين يديه، وشع بضوء فضي. ثبته أمامه مباشرة، تحت عينيه اللتين التصقتا به طيلة الطريق، وعاد بظهره إلى الخلف. وضع يديه في جيبي معطفه، وأطبق شفتيه يملؤه الغيظ.

نظر بطرف عينه إلى يدي فؤاد بك، فبدتا له سوداوين، هما وعجلة القيادة سواء.

ظلَّا للحظات طويلة ساكنين، تمثالين، كلٌّ في ملكوته.

بعد لحظات، تغلب على تردده، وأخرج من جيب معطفه يده اليمنى ترتعش قليلاً، جلد ظهرها يكسوه شقوق سمراء وبقع حمراء، مدها في مستوى صدره:

- شكرًا يا فؤاد بيه.

باطن كف فؤاد بك بارد كالثلج في كفه، كأنه يقول له بتشفٍّ: «هو أنت.. لم تربط حزام الأمان يا بني آدم».

وجهه بلا ملامح بشرية في عيني السيد عمر: «أهو ملاك أم شيطان»؟!

على ندرة لقائهما، يفترقان كل مرة، وهو يراه على الحال نفسها، كما هو الآن، نفس الهيئة والصورة الهلامية: وجه ممسوح بلا عينين، بلا أنف، وبلا فم، وبلا ملامح، كدائرة من هواء. كائن له صوت غريب، قوي كالرعد، يصدر من كون آخر، يبلغه رسائل الحاج وأوامره ويقضي معه دقائق قليلة ثم يختفي، ويبقى صوته يرن في أذنيه في صحوه ومنامه. يغيب عنه شهرًا، شهرين، شهورًا طويلة حتى يكاد ينسى وجوده، ثم يظهر أمامه فجأة على غير موعد، حاملاً رسالة جديدة.

في الطريق من قصر الحاج مرزوق إلى «العروس»، لم يتبادلا كلمة، قطعها فؤاد بك بسرعة كمن يريد أن يتخلص من عبء ثقيل، وقضاها السيد عمر ساكتًا، وفكره مشغول بما في الصندوق الثمين.

أنار السيد فؤاد ضوء السيارة الداخلي كأنه قائد طائرة يدعو الراكب الوحيد إلى الخروج، فمد يده متلهفًا وقبض على الصندوق. اختلس فؤاد بك نظرة غيرة حانقة إلى اليد الممدودة، التي تجذب إليها الكنز المقفول.

برفق دفع السيد عمر الباب، وخرج إلى الشارع، والصندوق بين يديه.

رمقه فؤاد بك من خلف عجلة القيادة بابتسامته الغامضة المعهودة:

- ليلة سعيدة يا عمر بيه.

أحنى هامته قليلاً إلى الأمام في احترام، ورفع يده اليسرى وحركها في الهواء، وهو يفكر في هذه الابتسامة الأبدية، التي لا تُرى أبدًا، لكنه يحس بها، يشعر بها تنخسه، وتجري فوق وجهه كلفحة هواء بارد.

«هل يعرف فؤاد ما فيها»؟

ابتسم ابتسامة جافة كجلد وجهه:

– كل سنة وأنت طيب يا فؤاد بيه.

لم يخرج من السيارة الساكنة صوت، ولم يسمع ردًّا، وفي لحظة خاطفة انطلقت السيارة كشعلة حمراء كبرى تزيح من أمامها ظلمة الطريق، واختفت كأنها لم تكُن.

وهو يقود بسرعة البرق، قال فؤاد بك في نفسه: «إن هذا الغبي لا يعرف قيمة ما يحمل، يتوهم أن الصندوق يحوي شيئًا هينًا، قليل القيمة. لا يا سيدي، إنه يحفظ كل ما له ثمن على وجه الأرض، هو نفسه أعظم من كل ثروات الدنيا».

بعصبية أخرج السيد عمر علبة سجائره من جيب معطفه، وضغط بمرفقه على الصندوق بين عضده وجنبه الأيمن. وضع سيجارته بين شفتيه، وأشعلها بولاعته الذهبية، وبقي واقفًا في مكانه على الناصية.

«قصده إيه بالحركات الخيبانة دي»؟

كان يسحب الأنفاس ببطء واحدًا وراء آخر، ويطلق خيوط الدخان من فتحتي أنفه وهو يحملق في ظهر تمثال الزعيم، الواقف في ميدانه تحت ضوء أحمر شاحب، ويتحول إلى ذيل الأسد الرابض إلى جواره فيعلو وجهه امتعاض سافر.

يعرف منذ صباه أن قاعدة التمثال مكتوبٌ عليها: «لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.»

ابتسم بمرارة، وأطفأ سيجارته تحت قدمه.

أعاد يده اليسرى إلى دفء جيب معطفه الرمادي محكمًا إغلاق الزر الأعلى حول رقبته، وضغط على الصندوق بين يمينه وجنبه فصار كأحد أعضاء جسده.

«أيوه، يجب أن تكون ليلة سعيدة في كل الأحوال، ومهما كان ما في الصندوق، ومهما كان ما تُدبِّر يا فؤاد، لن تضحك مني ضحكتك المجنونة أبدًا».

تحرك نحو عمارة العروس، ودخل البهو الواسع، عالي السقف، ذا الأعمدة المدورة على جانبيه، دخول سيد مالك، يسير بخطوات قصيرة س لها وقع منتظم على الرخام تحت قدميه، وعن يمينه ويساره خمسة حوانيت صغيرة للأنتيكات والهدايا والتذكارات السياحية، مغلقة الأبواب، منطفئة الأنوار.

البهو شبه معتم، ليس فيه سوى ضوء أصفر ينبعث من مصباح كبير أعلى محل «آمون» للزهور ونباتات الزينة.

«ما الذي في الصندوق؟ سعدي أم نحسي»؟

في آخر البهو، كان كشك الورد مضيئًا من الداخل بمصابيح بيضاء، ثلاثة حوائط من زجاج سميك شفاف، وحائطه الرابع جزء من الجدار الخلفي لـ«العروس»، وأمام بابه الزجاجي المفتوح يجلس شخص على كرسي واطئ بلا ظهر، منحنٍ قليلاً، يداه الطويلتان تنتقلان برشاقة بين إناءين من فخار، تفرزان زهورًا طويلة السيقان، متعددة الألوان، وحوله أوانٍ كبيرة من فخار وبلاستيك، تتزاحم فيها ورود وأزهار.

على رأس الرجل شال ناصع البياض، ملفوف حول رقبته وصدره، يكاد يخفي وجهه، وعلى الحائط خلفه كان ظله ضخمًا، عملاقًا.

كان السيد عمر في منتصف البهو تقريبًا حين رفع وجهه، ورأى الظل الضخم على حائط عروسه الخلفي، فاستاء لرؤيته، ولعنه في نفسه. رأى ظله الضخم آلاف المرات من قبل، ويعرف الجالس يفرز الزهور في صمت، ويتأذى من رؤيته، كل مرة يعبر فيها إلى مكتبه.

حين سمع وقع أقدام السيد عمر كان نشيط اليدين، ينقل زهورًا بيضاء من آنية كبيرة إلى أخرى أصغر، لم يرفع رأسه ليرى الداخل في الضوء الشحيح، فقد شم رائحته التي يعرفها منه. همهم لنفسه: «بارود تحت اللمون». ويداه تواصلان العمل بهمة، الياسمين في إناء، الفل الأبيض، الفل البرتقالي، زهور الورد البلدي الأبيض معًا، والورد الأحمر، القرنفل الأبيض، الأحمر، الوردي، وعصافير الجنة في إناء واحد.

«ما هذه الزهور البيضاء في يده؟ ما اسمها؟ ما نوعها»؟

عندما صار على بُعد خطوات قليلة منه قام واقفًا، تاركًا ما في يديه، وأزاح الشال عن وجهه، وابتسم ببشاشة، فبان تحت أضواء كشكه الزجاجي كهلاً مدور الوجه، بناصية عريضة، عظام وجنتيه بارزة، شفتاه رقيقتان وأنفه كبير، وعيناه جميلتان كدائرتين من عسل أسود وسط سحابتين ناصعتي البياض.

من مكانه، قبل أن يصل إليه السيد عمر، رفع صوته:

– أهلاً يا باشا.. أهلاً أهلاً.. كل سنة وحضرتك طيب.

في وقفته، بدا نحيلاً كعود قصب، قويَّ العظام، خاليًا من العضلات والكرش، ملابسه قديمة ونظيفة جدًّا، وفوق جلبابه الأبيض جاكت جلدي أسود.

– نوَّرت يا باشا.

كأنه لم يرَه ولم يسمعه، اجتازه عابسًا دون أن يلتفت إليه، لم يرد تحيته بإيماءة وعبَره بلا كلمة، كأنه كائن غير موجود.

لوهلة تسمَّر في مكانه لا يعرف ماذا يفعل، وضع يديه في جيبي الجاكت القديم الذي يرتديه فوق جلبابه طوال الشتاء. الجاكت ما زال متينًا وبلا ثقوب، لكنه مبلل ورطب، تفوح منه رائحة الورد البلدي النفاذة.

حوَّل عينيه وجسده عن ظهر السيد عمر الذي كان يعالج قفل بابه الخاص.

«جليَطة.. جليَطة».

عاد إلى الجلوس على كرسيه الواطئ، وإلى عمله بأصابع طويلة رشيقة، ومزاج تعكر قليلاً. «إيه؟ كفرنا لما سهرنا شوية»؟

السيد عمر لا يحب أن يرى هذا الكشك مفتوحًا، ولا يحب أن يرى وجه هذا الكهل، يبدو له وجهًا دميمًا، خربًا، به عاهة غير ظاهرة ومنفرة، كل مرة يحاول النظر إليه يرى وجه مومياء محنطة منذ آلاف السنين، ويكره رؤية ابنته «أزهار» تدور بين مناضد العروس، حاملة زهورها الرخيصة، تضايق الزبائن، وتكدر صفوهم بتسوُّلها.

حدَّث أواني الفخار من حوله:

– إيه؟ يفوت من قدامي ولا يرد السلام، ولا التحية! الصبر طيب.

غالبًا ما يغلق الكشك في التاسعة مساء، لكن الليلة مختلفة، إنها موسم المواسم.

«على كل حال، أنت رجل المناسبات السعيدة يا صِدِّيق.. يا أبو وردة».

فكَّر أن يسري عن نفسه بصنع صحبة لم يطلبها منه أحد، فقام ودخل الكشك وسحب من فوق منضدة صغيرة قرطاسًا ورقيًّا ورديًّا وخرج. جلس على كرسيه، والتقط، من إناء، زهرة بيضاء كبيرة، كثيرة البتلات، فواحة العبق، وبأصابع حانية مس ساقها وأوراقها الخضراء القليلة كأنه يلمس خصر امرأة ناعمة، وقبل أن يضعها في القرطاس دللها قليلاً، وهزها بلطف، ثم رفعها إلى أنفه، وسحب عبقها ببطء فارتاحت روحه، أبعدها قليلاً، وهمس لها:

– طب ينفع كدا؟!

قرَّبها من أذنه، وأنصت إليها، سمعها تهمس له: «لا تؤاخذه يا أبو وردة. كل الناس تعرفه، وتعرف طبعه النِّفري، هتزعَّل نفسك ليه؟! ملكش حق، كل سنة

وأنت طيب يا أبو أزهار.. مش مهم يحبك، إحنا بنحبك، والمهم أن تحب أنت نفسك، وما تفعل».

كلمها مرة أخرى، بصوت أعلى، كأنه يكلم شخصًا بعيدًا في آخر الدنيا:

– ماشي.. زي بعضه، زي بعضه.

كان السيد عمر يحتضن صندوقه بين يده اليمنى وصدره، ويعالج القفل بيد واحدة حين سمع كلام صِدِّيق. لم يأبه به، ولم يرد عليه.

«راجل مجنون، لازم يغور من هنا».

فتح السيد عمر بابه الخاص، ودفعه ببطء فصرَّت مفاصله القديمة، وضع قدميه على أول درَج خشبي ضيق يفضي إلى الطابق السفلي، وأراح يده اليمنى على الدرابزين الخشبي، ونزل في الظلمة يتلمَّس موضع قدميه، وأمام الكشك كان صِدِّيق قد وضع الزهرة البيضاء التي كان يكلمها بين شفتيه، أغمض عينيه، ووضع لسانه على بتلاتها، وراح يمتص رحيقها في بطء وتلذذ.

صِدِّيق سُمِّي بـ«أبو وردة المجنون» قبل أن يصبح بيَّاعًا للورد بسنوات طويلة. في طفولته، كان مفتونًا بالورد والأزهار والشجيرات والنباتات العطرية، شغوفًا بالورد الأبيض أكثر من كل ورد. كل يوم ينحرف عن طريقه المرسوم إلى المدرسة، يحجل ويشوط الأحجار الصغيرة خارجًا من بيتهم بزقاق «السكر واللمون»، مرتديًا مريلته البنية، ومن عنقه تتدلى إلى خصره حقيبة من قماش أبيض، بها كتبه وكراساته وأقلامه، يغير سكته ويخرج من حواري «مصر عتيقة» ويعبر الشارع العمومي إلى الكورنيش. يضع قروش مصروفه القليلة في يد «حسناء» بنت «فتحية» بيَّاعة الورد، عند «الكوبري الخشب» القائم على فرع النيل الصغير. يأخذ من البنت الخمرية وردة واحدة، بيضاء

أو حمراء أو صفراء، ملفوفة في سُوليفان شفاف، يقبض على الوردة، ويغمز بعينه لحسناء، ويستدير عابرًا الطريق إلى الحواري الداخلية.

وفي يده الزهرة يحجل على رجل واحدة، ينط ويتقافز، ويرفع وجهه إلى السماء، يشكرها على ما وضعت في يده، طيلة المسافة الطويلة إلى المدرسة لا يخفض الوردة عن أنفه، يشم عبيرها كأنه يرضع من صدر أمه، ويعبر باب مدرسة «مصر القديمة الابتدائية المشتركة» فرحًا مغتبطًا كأنه قد حاز جوهرة.

في الفصل، يضعها أمامه على التختة مع الكتب والكراسات، لا يرفع عينيه عنها، غير مبالٍ بالسبورة السوداء، وشرح المدرس.

ثم صار يشتري وردًا بكل قرش يصل إلى يديه، وبعد أن كان يكتفي بلمسها وشمها، صار يضعها بين شفتيه، ثم على لسانه، ويمصها، يلوك وريقاتها وبتلاتها ورقة بعد أخرى، ويبلع قلبها وما بقي منها، يتلذذ بطعمها بين شفتيه، طعمها ليس له مثيل، أحلى من الفندام ونبوت الغفير والأرواح، أحلى من كل شيء ذاقه، ينتشي بأكلها كلها، واستقرارها في معدته، وسريان عصارتها في أوصاله.

كان يأكل الورد حين يكون وحيدًا بلا مراقب، ثم تجرأ وأصبح يأكله في حوش المدرسة تحت عيون التلاميذ، والمدرسين، والناظر، وفي البيت أمام والديه، وفي الحارات والشوارع.

يومًا بعد يوم، يأكل الورد بلا مبالاة بأحد، وينتشر لقبه بين الناس أكثر حتى دُمِغ بالولد المجنون، العبيط، «أكَّال الورد»، وصار العيال يعايرونه، من المدابغ حتى زهراء المعادي.

كره صِدِّيق مدرسته، وبقي في البيت، لا يخرج منه، لا يعبر بابه سوى لشراء وردة يأكلها. أمه وأبوه الساذجان لم يباليا ما دام لا يزال بخير، وخارج مستشفى المجانين. لقد أتعبهما جدًّا الولد الذي يأكل الورد، ويُضحِك منهما أهل الزقاق، لا يوجد طفل يفعل ما يفعل. بعد حين فكَّرا في تعليمه صنعة يأكل منها عيشًا في مقبل أيامه، فأخذاه من يده إلى أقرب مشتل زهور على كورنيش مصر القديمة، وعرضاه للعمل صبيًّا.

انطلق صِدِّيق من الزقاق المسدود في أحشاء مصر القديمة إلى رحبة كورنيش النيل، ومشاتل الزهور والنباتات بحذاء الشاطئ الممتد من المنيل حتى المعادي، فعمل صبيًّا في المنيل وفي الجيزة، ثم انتقل إلى وسط البلد، وتنقل بين عدد من أكشاك الزهور في ميدان باب اللوق، وقصر النيل، وعابدين، وكبر وتزوج، وأنجب «أزهار»، واستأجر كشك «آمون»، وصار أخيرًا، بعد عمر طويل من الشقاء، «حر نفسه»، كما كان يحلم ويردد أمام كل من يعرفه، أصبح يعمل لحساب نفسه فحسب، يذهب إلى حقول الورد في محافظات الدلتا ويشتري، ويعرض في كشكه ويبيع، ولم يتوقف عن أكله للورد، لكنه أصبح يختلسه ويتحرى ألا تراه العيون، فلم يعُد يليق برجل كبير في العقد الخامس أن يُنادى بصِدِّيق المجنون.

أكل الوردة البيضاء فصار مزاجه رائعًا، وصنع صحبة صغيرة ملأت القرطاس الوردي، ورفعها بيده اليمنى على مسافة قصيرة من عينيه، وراح يتأملها بفرح غامر.

اجتاز السيد عمر آخر درجة في السلم الخشبي، وصار في طابق الإدارة الواسع. «الولد المجنون دا لازم يطّرد من هنا».

الطابق السفلي جميل وغريب، وواسع جدًّا بنفس حجم صالة العروس الكبرى في الطابق الأعلى، حوائطه من حجر مدهون بالأصفر، والضوء هادئ ومريح يأتي من شمعدانات عتيقة كأيدٍ مرفوعة مفتوحة الكفوف، لها أصابع من فضة ونحاس، أيدٍ صغيرة وأخرى كبيرة، ذكورية وأنثوية، وبكل يد ثبتت خمسة مصابيح كهربية، كأصابع موز.

نظر حوله فوجد أبواب مكاتب الإدارة مغلقة كلها، وفي المركز تمامًا كانت طاولة، لها قرصة دائرية واسعة القطر، من خشب أَرْوٍ ثمين، وعليها رُصَّت شمعدانات فضية مذهبة الحواف، مفروشة بمفرش أبيض ناصع، وقد عُلِّقت على سطحها خمسة مقاعد تنتظر من يسحبها، ويقيمها، ويعدها لاستقبال القادمين من أجل العشاء، وفي وسطها زهرية من خزف أزرق، وخالية.

«تمام».

دخل مكتبه الواسع، وأضاء كل أزرار الكهرباء فسطع كل شيء حوله. مكتبه أنيق من خشب الورد، وكراسي الصالون فاخرة، وبعض دواليب خشبية في الأركان، والأرضية الباركية تلمع تحت قدميه، وطاولة الاجتماعات تحتل وسط المكتب، تحت السقف الداني.

خلع معطفه وعلَّقه على الشماعة الخشبية ذات المرآة الدائرية، وعلى خطاف من نحاس وضع كوفيته الحمراء، واستقر على كرسيه، وبين يديه الصندوق.

فتح الغطاء، وأخرج الوثيقة الأولى من غلافها الوردي، وما إن جرت عيناه على سطورها القليلة حتى تنفس الصعداء.

قرأ الوثيقة الأولى مرة أخرى، بتأنٍّ وبطء.

كانت الوثيقة شهادة اعتراف، وتثمين لشقاء السنين. أخيرًا وثق الحاج مرزوق به، وكرمه وجعله رئيسًا رسميًّا لمجلس الإدارة، ومهر الوثيقة بتوقيعه، وختمها بخاتمه. لقد صار الآن الرئيس، وأكبر رأس في العروس. كاد يرقص في مكانه فوق كرسيه الفخم، الوثير.

لم يتمالك نفسه. من البهجة صعد ووقف فوق كرسيه، وتمايل طربًا مثل شاب عاشق، منتشيًا بهذه السكرة الفاتنة. «أنا الرئيس».

بعد لحظات نزل، وجلس، وبعد دقيقتين قال لنفسه: «وإيه يعنى؟ على كل حال أنا رئيس مجلس الإدارة الفعلي منذ سنوات طويلة».

منذ زمن تخلى الحاج مرزوق عن رئاسة مجلس الإدارة للسيد عمر، فعليًّا هو من يدير كل شيء، وتوقيعه مُعتمَد على المشتريات والواردات، الأطعمة والمشروبات المحلية والمستوردة، الحسابات، وكل شيء. كل الموظفين والعمَّال والموردين يعرفون أنه الرجل الأول، وإن كان ذلك غير معلن رسميًّا. الليلة أراد

الحاج مرزوق أن يمنحه جزاء إخلاصه وطاعته. مدير ممتاز يستحق الترقية الكبرى، والحاج يحتاج الآن إلى الهدوء التام، والتفرُّغ لأعمال البر والصدقات، ومساعدة الفقراء.

«الله يعينه، لم يعُد يشغله ماله وممتلكاته، لم يعُد مهتمًّا بثروته»!

ابتسم مستهزئًا: «ههه.. الآن يبحث عن شيء آخر، يبحث عن حُسن الختام وطيب الذكر، والوقت المتاح له قصير جدًّا لمحو ما سلف»!

كان مرتاحًا في كرسيه، والوثيقة بين يديه.

تحرك فضوله نحو الوثيقة الأخرى، فسحبها بلطف من قاع الصندوق الجميل.

حين فتح المغلف الثاني كاد يُصعَق في مكانه.

قرأ الوثيقة كلمة بعد أخرى ولم يستوعب ما بها. خلع نظارته رقيقة العدسات، وجذب من درج مكتبه نظارة القراءة. رفع الوثيقة الثانية أمام عينيه وراح يقرأ ببطء، يحدق في كلماتها بعينين مفتوحتين إلى آخرهما، الكلمات أمامه سُحب رمادية متراصة فوق بياض الصفحة. قبل سنوات أجرى عملية «مياه بيضاء» بعينه اليمنى، فهل عادت السحب تكدر صفاء رؤيته؟

خلع نظارة القراءة وراح يحملق بعينين عاريتين في الكلمات، في السطور.

زفر غاضبًا.

عاد فوضع نظارة القراءة على عينيه وقد بلغ به التوتر أقصاه، وقرأ مرة أخرى ببطء شديد، وأعاد القراءة مرات، الكلمات هي هي، التي أدركها وفهمها منذ البداية، كلمة بعد أخرى كانت عينه اليمنى تضيق وتضيق دون إرادته حتى صارت خيطًا رفيعًا، لم يرَ بها شيئًا منذ تلك اللحظة، صارت موجودة ومفتوحة قليلاً تحت عدسة نظارته، ولكنها لا ترى إلا فراغًا.

كانت الوثيقة تحوي أسماء أصحاب الأسهم الخمسة، وقد أعاد الحاج توزيع الأسهم، أخذ من هذا وأعطى ذاك، وأمام اسمه وضع نقطة واحدة، صفرًا، وكتبها أيضًا بالحروف.

«عدد أسهم عمر عبد الظاهر صفر واحد، كبير»!

- صفر، صفر!

ارتج جسده كله فوق كرسيه بضحك هستيري غزير، كصاعقة ليلية تضرب العروس كلها، وتصيب كل ما فيها.

ما هذا الجنون؟ لقد منحه الحاج رئاسة مجلس الإدارة، وفي الوقت نفسه سلبه كل الأسهم التي منحها له، وكل الأسهم التي اشتراها بحر ماله.

«أخذ كل أسهمي ووزعها على الآخرين»!

كان وحيدًا في مكتبه، وشرسًا كوحشٍ هائج، جائع إلى الطعام.

من دولاب زجاجي عن يمينه، قبض على رقبة زجاجة نبيذ، وزرعها بعنف على سطح مكتبه، وسحب كأسًا من بلور، وصب في الكأس حتى نهاية حافتها، وشربها في جرعة واحدة. ألقى الكأس الفارغة على سطح زجاج مكتبه، وقام يدور كأسد جريح في قفص، يتحرك من حائط إلى حائط، ومن الباب إلى الحائط خلف ظهره. لف ودار حول مائدة الاجتماعات في وسط المكتب، وتحسس الكراسي حولها. عاد وشرب كأسًا أخرى وجلس على كرسيه، وأراح ظهره إلى الخلف وأغمض عينيه، ثم فتحهما، ومال إلى الأمام يتأمل الطعنة الغادرة، الوثيقة الشنيعة، المستقرة على مكتبه.

آخر ما قاله له الحاج مرزوق عشم الله هو كلمة «مبروك» بعد أن أعطاه الصندوق.

«هل كان يهزأ بي»؟!

شرب كأسًا جديدة.

«الحاج لا يعرف شيئًا عمَّا جرى في العروس طيلة السنوات الأخيرة الماضية، لم يزُر العروس ولو مرة واحدة منذ سنوات، ولم يلتقِ أحدًا من ملَّاك الأسهم، فكيف له أن يعرفهم؟ وكيف يُقدِّر ما يستحقون؟ كيف يعرف ما لهم وما عليهم؟ كيف وزع الأسهم هكذا؟! أنا الوحيد الذي يعرف كل شيء عن العروس، يعرف كل حائط ومقعد ومنضدة وقطعة فيها، كل رجل وامرأة يأتيان إليها، وكل زبون عابر، أعرف ما يأكلون وما يشربون. أنا الوحيد الذي يعرف ثمن كل شيء وكل شخص، كل عامل نظافة وحارس وموظف ونادل فيها، ما يحدث فيها طوال الأربع والعشرين ساعة، أيُّ جنون هذا؟! الحاج لم يُصَب بالزهايمر بعدُ، لم يبُل على نفسه بعدُ، لكنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق. كبر وأصابه خرف الشيخوخة. عليَّ أن أتصرف وفق ما يمليه عليَّ ضميري، يجب الحفاظ على العروس، وتنميتها، وتكبيرها حتى تصير أكبر وأروع مكان في القاهرة، في مصر كلها. إنها ما زالت خمس نجوم فقط، يجب أن تصير ست، سبع، عشر.. تصير خارج المنافسة والتصنيف، ولن يفعل هذا غيري أنا، أنا.. لا أحد منهم يصلح لها، كل واحد منهم يريدها لنفسه، إنهم بشر بلا أخلاق وبلا ضمير، يكذبون، ويزورون، ويطعنون من الخلف، وفي الصدر، كم طعنوني عند الحاج، وشكوني، ووصموني بكل دنيء عنده. لكنه والحمد لله لم يصدقهم، ولم يكُن معهم عليَّ، لكنه في النهاية رضخ لهم وأخذ كل أسهمي ووزعها عليهم. حقي سآخذه بنفسي، بذراعي، وليكُن ما يكون».

جلس إلى الكمبيوتر الخاص به. فتح ملفًّا وبدأ يكتب، مستعينًا بوثيقة الحاج، نسخةً أخرى منها، النسخة الحقيقية التي يجب أن تكون. ومن أجل صالح الجميع، ومصلحة العروس وازدهارها، كتب النسخة المثالية التي كانت تراود خياله دائمًا، من أجل العروس التي يعشقها، التي وهبها عمره كله، وزع الأسهم على هواه، واحتفظ لنفسه بنصف الأسهم زائد سهم واحد، واحد وخمسين بالمئة من كل شيء في العروس، من كل حائط ومنضدة وكرسي وشوكة وسكين في مطبخها العامر، ومن كل الأرصدة في البنوك، ومنح الآخرين ما يستحقون تمامًا، بلا جور.

صارت الوثيقة الآن جاهزة.

«هكذا كان يجب أن تكتب يا حاج مرزوق، هذا هو الخير، وهذا هو العدل الذي كان المساهمون في العروس ينتظرونه منك. لقد أسأت التصرف وكنت تريد أن تشعل المعارك بيننا، ولكنني والحمد لله قادر على إصلاح ما أتلفت وما دمرت».

طبع الوثيقة على ورق مماثل تمامًا للورق الذي استخدمه الحاج، ومن درج سري في مكتبه أخرج خاتمًا، هو النسخة التي عملها من قبل لخاتم الحاج، وختم وثيقته بخاتم الحاج، وتأملها قليلاً راضيًا. قارنها بالأولى فوجدها مطابقة لها تمامًا، وتزيد عليها بتحقيقها للعدالة، وللنظام الأمثل.

تأمل الوثيقتين. «لن يستطيع أحد أن يعرف الفرق بين الوثيقتين أبدًا، إن قُدِّر لأحد غيري أن ينظر إلى ما صنع الحاج».

لكن توقيع الحاج كان بقلم أحمر سميك.

هذا أيضًا ما يجب أن يكون.

من بين أقلامه وجد قلمًا أحمر، لكن سنه أرق قليلاً من القلم الذي كتب به الحاج. ببطء ومهارة راح يقلد توقيع الحاج حتى أتم مهمته.

صارت وثيقته الآن رسمية، ممهورة بتوقيع الحاج ومختومة بخاتمه المعروف.

قرأها مرة ومرات حتى اطمئن إليها تمامًا. «نعم، هذا ما يجب أن يكون».

وضع وثيقته في الصندوق مع الوثيقة الأولى، ووضع وثيقة توزيع الأسهم الأصلية في جيب سترته الداخلي، وجلس يشرب ما بقي في الزجاجة. بعد لحظات وقع بصره على منضدة الاجتماعات الطويلة التي تتوسط مكتبه، فخاطب ظهر كرسي رئيس مجلس الإدارة.

«أنت كرسي جميل، أنت لي، لا أقوم من فوقك حتى أموت. يجب الاستحواذ على كل الأسهم، وأن يتحول كل الملاك إلى أجراء عندي. حان الوقت، من الليلة، الآن، وفورًا، يبدأ عهد جديد. عندهم الكثير، يملكون أكثر مما أملك، يسيبوا لي العروس، إن اضطُرِرت سأفعل كل شيء من أجلك، من أجلك أنت يا حلوة الحلوات».

انبسط من نفسه وهو يتساءل: «هيعمل إيه أبو درقة دلوقتي؟»

ضحك وهو يتخيل وجه فتحي وهو يتلقي نبأ قسمة الأسهم الجديدة، وأغلق عينيه سعيدًا.

وكان الحاج فتحي أبو درقة لا يزال عند زوجته الأولى، القديمة، الحاجة خديجة، يحاول بإصرار جبر خاطرها، وإرضاءها وإلا أشعلت معارك لن تنتهي براحته أبدًا.

صلى العشاء في «مسجد التوحيد» الذي بناه قبل سنوات، بلا قبة وبلا مئذنة، على قمة شارع الخليج المصري، وتلقى التهاني بعقد قرانه على زوجته الشابة الجديدة «مها السكري»، وذهب إلى برجه بشارع السد البراني، وصعد إلى الطابق الرابع، حيث زوجته الأولى.

كان قد ملَّ الجلوس صامتًا، بلا حراك، وسأم التململ في كرسيه المُذهَّب الذي يتصدر الصالون الفاخر، فأخذ يهز قدمه اليمنى برعشة رتيبة، ويضم عباءته الصوفية حول جسده الضخم كأنه يحميه من سهامها الجارحة. لم يعُد يحتمل أكثر، ولم يعُد يطيق نظرة عينيها إليه، وسبابها الوقح أكثر، وأخيرًا قرر إن سكوته يشجعها أكثر على التمادي في هذا الإفك، فنطق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تسمعه، ولم يتوقف سيل سبابها.

كانت واقفة في وسط صالة الاستقبال الواسعة فوق السجاد الأخضر الوثير منتصبة، كعصا طويلة نحيلة، تصرخ وتدور كعقرب ساعة لا يتوقف، تقترب منه وتبتعد عنه، تمد يدها الطويلة وتنخس كتفه مرة، وصدره أخرى، تقفز أمام وجهه وتلوح بكلتا يديها في وجهه، ترفع يدها مفتوحة في الهواء حتى تكاد تصفع خديه، وتتراجع إلى الوراء كأنها تعد رجلها لرفس بطنه وكرشه المنفوخة، تتكلم بصوت رفيع حاد، تعيد وتزيد ما تقول، ترغي وتزبد، تؤدبه، وتؤنبه، وتوبخه، تأكله بلسانها السليط، وبعينيها اللتين يتطاير منهما شر مريع. كل كيانها يقول له لو أستطيع أن آكلك بأسناني لأكلتك، بلعتك، وهضمتك يا زير النساء، وعرَّة الرجال.

وهو يحرك مسبحته الكهرمان السوداء بين يديه، ويحرك رقبته يمينًا ويسارًا راح يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

الغيرة تأكل قلبها فتعيد قصتها معه من جديد، منذ تزوجا قبل أربعين عامًا، تتكلم وتتكلم ويخرج من بين شفتيها ريم وبصاق، بإسهاب وباستطراد تعيد وتعيد حتى بلغ بها التعب آخره فجلست بوجه أحمر كالدم، ترتعش فيه كل خلية.

كادت الدموع تطفر من عينيه، وهو يراها تشد شعرها الأبيض المنكوش، الذي تركته دون أن تصبغه بالحناء الحمراء كما تفعل دائمًا، تشد أطرافه بجنون، تكاد تقتلعه من جذوره.

- يا خرابي.. يا خرابي.

قام ومد ذراعيه إلى الأمام كأنه يهم بالصلاة دون أن يجرؤ على لمسها:

- اهدي يا خديجة، صلي على النبي يا مؤمنة، والله أنت عارفة معزَّتك عندي.

رمقته بعيني لبؤة شرسة قد هدأت قليلاً، فواصل كلامه، بصوت خفيض ذليل.

أقسم بالله إن هذه المرة ستكون المرة الأخيرة، وإنه لن يتزوج بعدها أبدًا، وإنه لا يحب امرأة غيرها فهي أول بخته، و«أم طلحة»، الذكر الوحيد الذي أنجب، وأم البنات، وجدة الحفيدات، وإنه لا يريد امرأة غيرها أبدًا، لكن الضرورات تبيح المحظورات، وإنه يريد أن ينجب ذكرًا واحدًا آخر، فمن غير المعقول أن ترث البنات هذا البرج العملاق، ومعرض الموبيليا، وشركة «التوحيد» لتجارة الأخشاب والاستيراد والتصدير بالحلمية، ومعرض «جاردن سيتي»، والأهم، أسهم العروس، والأرصدة في البنوك هنا وفي الخارج.

– طلحة رغم جوازه بتلاتة ما بيخلِّفش غير بنات.. ومش هيخلف أولاد أبدًا!

انزاحت إلى آخر الأريكة الوثيرة مبتعدة عنه.

قالت إنها أسطوانته القديمة يقولها مع كل زيجة، وعذراء جديدة. وانطلقت في هذيان طويل، حكت فيه كل ما حدث بينهما، منذ رآها للمرة الأولى، وخطبها وتزوجها، وأخذها إلى شقته الصغيرة في حارة السيدة زينب القديمة، البيت المتهدم في آخر الحارة الآن، وعايرته بسنوات فقره الطويلة الأولى، ومعاناتها معه طوال أربعين عامًا. حدثته عن عينه الفارعة، وذيله الطويل، وفضل أبيها الحاج «درغام»، أكبر تجار الأخشاب في مصر كلها، عليه، وبكل ما وهبه وأعطاه. وهذا ما فعلته بي بعد موته:

– الله يرحمك يا بابا، كنت حايش عني البلاوي، هو يعني عشان ماليش إخوات رجالة تعمل فيَّ كدا؟!

سبَّته وشتمته وجرَّسته ككل مرة يتزوج فيها بامرأة أخرى.

تركها حتى سكتت، وتكلم برجاء ورقة، وسألها مرات أخرى عمَّن سيرث معارض الموبيليا، وشركة الأخشاب، وورش الناصرية، وكعب الأحبار.

– والعروس دي أبوكِ اللي مأسسها، وكل الموبيليا والأنتيكات والتحف من صنعة إيديه هو، مين اللي هيورث دا كله؟

قالت الحاجة خديجة:

- أستغفر الله العظيم، ما تجيبش سيرة أبويا على لسانك.

تجاهل قولها:

- أنا رجلي والقبر يا خديجة، وعايز أطمئن على ثروتنا قبل ما أموت. أنا عملت اللي عليَّ، وفاضل إنتو تكملوا الرسالة. ربنا يدِّيكِ طولة العمر يا أم طلحة.. قولي يا رب يخلف علينا بولد.. قولي من قلبك يا خديجة.

مصمصت شفتيها وفي عقلها تحت ناصيتها الضيقة يدور: «وهل أفلحت وأنجبت بنين من زيجاتك العديدة السابقة التي لا أعرف عددها؟ هل رضيت بواحدة أخرى فقط؟ أبدًا.. تتزوج البكارى وتطلقهن بلا عيب ولا خِشى، وأنت زي ما أنت، زي البغل»!

قالت تعايره:

- أنت اللي خلفتك كلها بنات.
- عيب يا خديجة، أومَّال أنا جِبت طلحة إزاي؟!

إن شاء الله المرة دي ربنا يبعت البنين، ونستريَّح بقى أنا وأنتِ.

وأدار عينيه بعيدًا عن عينيها.

عقدت يديها فوق بطنها البارزة أمامها في كرش صغيرة متدلية، وأطلقت من فمها زفرة يائسة، ثم فاهت بحكمتها الأثيرة:

- إيه.. اللي فيه داء ما يتوبش عنه.. ديل الكلب عمره ما يتعدل.

زأر الحاج فيها:

- شرع الله يا خديجة.

سكتت أخيرًا، واستسلمت.

صمت وهو يُجري أصابع يمناه على مسبحته.

– احلف مرة تانية.

– على إيه؟

– إنها آخر جوازة يا فتحي.

ذهب برأسه إلى الناحية الأخرى. «كل قسم وله كفارة».

– أقسم بالله إنها آخر جوازة إن شاء الله.

الحاجة خديجة ليس لها رجل آخر غيره، وشاخت ولم يعُد يعنيها سوى الأحفاد، لكنها ما زالت تغير وتستشيط غضبًا مثل شابة صغيرة، حديثة الزواج من رجل مزواج، تغضب فيستحيل لون وجهها الأبيض إلى سواد، وتزرق عيناها الخضراوان الواسعتان.

رغم كل شيء، ما زالت تؤمن بكل ما يقول الحاج، ولا تنكر هداياه التي تملأ صناديق مجوهراتها التي ورثتها عن أبيها، والتي اشتراها لها بسخاء عامًا وراء عام. تحب الذهب، واللؤلؤ، والألماس، ولا تخرج من بيتها إلا متزينة بجواهرها، وإلى المصيف في قصرها الكبير بالساحل الشمالي، طيلة أشهر الصيف مع خادماتها. لم تعُد مهتمة بشيء إلا بالصلوات في الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ومعرفة الحرام والحلال، الحلال هو ما يحلله الحاج، والحرام ما يحرمه.

«الحمد لله على كل حال».

تبسم لها الحاج فتحي وقام من جلسته، واقترب منها وربت على كتفها، وقال:

– أنا جبت لك كوليه دهب جديد عيار ٢٤، تمنه ٢٠٠ ألف، عندك على التسريحة في أوضة النوم. السلام عليكم.

– ٢٠٠ ألف؟!

– ٢٠٠ ألف يورو يا خديجة، مبروك عليكِ.

لمَّ عباءته وأخذ يُجري أصابعه على حبات مسبحته الكهرمان، وكان وجهها قد توجَّه شطر غرفة النوم، التي بها الجواهر الجديدة.

- السلام عليكم.

ونزل من عندها ساخطًا.

أضاعت عليه المساء بطوله. «لسه عندي اجتماع، ولولا إنه مهم لَمَا تركت عيون مها ورُحت العروس، إنما إيه يالّا.. الليل طويل، طويل يا حبيبي».

ركب المصعد فاندفع مع هبوطه صوت الشيخ سالم الرملي بدعاء ركوب الدابة: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.»

وكان هو يردد:

- سبحان الله، سبحان الله.

اجتاز الحاج الباب الحديدي الكبير لبرجه العملاق، وكان حارساه الشخصيان «مازن» و«مخلوف» في انتظاره، جالسين على كرسيين معدنيين أمام المعرض الكبير ذي الطوابق الثلاثة، خلفهما الأبواب مغلقة، والواجهات الزجاجية الشفافة العالية تعرض أفخر أثاث في مصر، ليل نهار.

جلس الحاج على الكنبة الخلفية لسيارته السوداء، وقفز حارساه إليها، واحد إلى جوار السائق، والآخر إلى جواره مباعدًا جسده عن الحاج، وانطلقت السيارة الفارهة.

كان بود الحاج أن يخطف ساعة ويذهب إلى فيلّته بشارع لندن، بجاردن سيتي، ليدخل بعروسه الجديدة، ولكنها الملعونة خديجة ظلت تناكفه، وتفاصل معه في قبض ثمن سكوتها عنها.

«طلحة وراء كل هذا، هو من أبلغها، وهو من حضر عقد القران في المسجد، وهو الذي يعلم أن العروس ستكون في فيلا جاردن سيتي بعد العشاء. طيب».

اتصل الحاج بهاتف «أم محمد»، خادمته التي تقوم على خدمة عروسه الجديدة، واطمئن منها على استعداد العروس للدخول بها. أبلغها أن تقول لها حين تخرج من استحمامها إنه لن يتأخر، وسيذهب إلى اجتماع هام وضروري، سينهيه بأسرع ما يستطيع ويأتي:

- مش هيجرى حاجة لما تسهر شوية.. بارك الله فيكِ يا أم محمد.

في مقعده على الكنبة الخلفية لسيارته، غفا الحاج فتحي أبو درقة، وارتاحت ذقنه على رقبته الغليظة، فمالت إلى الأمام قليلاً قلنسوته السوداء فوق رأسه، وراح في النوم، وأخرج صوت شخير متقطع، والسيارة تمضي به إلى شارع القصر العيني، وتواصل طريقها إلى ميدان التحرير.

٦

أُخبِر السيد عمر، الذي كان ممددًا بحذائه على أريكته الوثيرة، بوصول الأستاذ «باهر العقدة» المحامي، فأمر أن ينتظر عشر دقائق قبل السماح له بالمرور إلى مكتبه. وضع سماعة الهاتف العتيق، وقام يتمطع وينفض عن نفسه كسل الاسترخاء. دخل الحمام الملحق بمكتبه، خلع سترته الحريرية وعلقها على مشجب نحاسي في الركن، وبقي في قميصه الأبيض. خلع نظارته وراح يتأمل وجهه في المرآة الصافية، كبحيرة تحفها زهور ذهبية.

ما زالت التجاعيد على ناصيته وتحت عينيه قليلة، وجلد وجهه مشدودًا من أثر أقنعة الشد الطبيعية التي يواظب على استخدامها. تلمس آسفًا الدوائر المحفورة في حلقات حول رقبته: «ما كبرتش قوي يا عمر».

التقط صابونة وردية، نفاذة الرائحة، ودعك بها باطن يديه وظهرهما، وخلَّل بين أصابعه، وفتح الحنفية المذهبة إلى آخرها. فاضت رغوة كثيفة، وصارت يداه بيضاوين ككتلتين من ثلج. غسلهما مرات عديدة، كعادته القديمة، كأنه يخلصهما من وسخ الدنيا كلها، ويطهرهما من قذر غير موجود. شطف يديه ورفعهما أمامه فبدتا له كاملتي النظافة، حك الصابونة المبللة بوجهه محاذرًا أن ترتفع الرغوة إلى منابت شعره حتى لا تسيل الصبغة، وغسل وجهه مرات، ونشَّفه بمنشفة جديدة حتى تمام الجفاف.

وضع نظارته على عينيه، وارتدى سترته الرمادية، وسرَّح شعره ورجَّله إلى الخلف، وضبط ربطة عنقه. اطمئن أخيرًا إلى مظهره، فتح الدولاب الخشبي

الصغير في ركن الحمام، وسحب زجاجة عطره المفضل، ورش على سترته وأساور قميصه، وجلس إلى مكتبه.

رفع غطاء الصندوق، وفوق قطيفة قاعه الحمراء، وضع الوثيقتين بالترتيب الذي تسلمه من الحاج مرزوق: وثيقة التوزيع الجديد للأسهم أولاً، وفوقها الوثيقة الثانية التي تمنحه رئاسة مجلس الإدارة.

تحرك نحو الباب وفتح أكرته الذهبية، وتركه مواربًا، وعاد فجلس على كرسيه مستعدًا للقاء محامي العروس.

حضر الأستاذ باهر العقدة في موعده، قبل العشاء الذي أمر السيد بإعداده احتفالاً برأس السنة، وابتهاجًا بدخول العروس عامها الأول بعد السبعين، وكان عليه أن ينتظر. امتعض قليلاً، لكنه بعد الدقائق العشر وجد نفسه في الطابق الأرضي.

على الباب، وقف يضبط هيئته في انتظار أن يسمع السيد طرقاته الخافتة، وأن يُفتَح له. كان منحنيًا قليلاً، بظهر كقوس آلة رمي، بدلته زيتية اللون، وفوقها بالطو أسود لا يفارقه في ليالي الشتاء، وعلى عينيه نظارة طبية بعدستين سميكتين، وفي يده حقيبة من جلد نمر، تكاد تلتصق بقبضة يده، لا يتخيل نفسه يمضي إلى مكان دون أن تكون امتدادًا له، يطمئن وهي معه، وفيها ما يلزمه من أوراق وعقود وفلاشات.

بظهر يده أعاد قرع الباب فلم يسمع من الداخل شيئًا، وأخيرًا لاحظ أن الباب موارب، دفعه برفق فغشى بصره الكليل ضوء ساطع ينبعث من مصابيح فضية ونحاسية بالأركان، ونجفة بوسط السقف. رفع يده عن عينيه فرأى السيد عمر، شبحًا عملاقًا، جالسًا يطالع أوراقًا. لم ينظر إليه، ولم يقُم من كرسيه، وسمع صوته الآمر:

- اتفضَّل يا متر.. اتفضَّل.

تقدم وجلس على الكرسي الذي أشار إليه السيد، ووضع حقيبته إلى جوار قدمه في صمت.

رفع وجهه إليه، وأشار بإصبع السبابة في يده اليسرى إلى موضع الصندوق على طرف المكتب، وقال بنبرة خشنة:

- الحاج مرزوق بعت الصندوق دا. افتح وشوف.
- سيادتك فتحته؟

أومأ برأسه.

مد يديه متلهفتين إلى الصندوق الفاخر، وفتحه. أخرج الحافظة الجلدية الوردية، ورفعها في الهواء أمام نظارته، وراح يقرأ ما كُتِب فيها بتأنٍّ، ثم وضعها على المكتب، وقرَّب رأسه منها ودقق فيها. هز رأسه وابتسم للسيد الذي افتعل الانشغال بالأوراق أمامه، وقال بصوت قوي لا يناسب بنيته الضعيفة:

- ألف مبروك يا عمر بيه.
- شكرًا.. اقرا التانية.

أخرجها، ورفعها أمام وجهه، وراح يقرأ بتركيز.

وجه الأستاذ باهر شاحب وباهت، تختلط فيه الحمرة بالصفرة، وفوق نظارته حاجبان أبيضان كخيطين متعرجين رفيعين، أنفه صغير، وشفتاه رقيقتان وحمراوان، وشعره أحمر وقصير، ومفروق على جنب، وجهه كله وجه من وُلِد «عدوًّا للشمس».

لا يصدق ما يقرأ، ينكر كل ما تراه عيناه، توزيع الأسهم، والختم والتوقيع، ولكنه يفكر في شيء آخر: «كل شيء جائز، ومعقول، ما دمت سآخذ نصيبي ومقابل أتعابي».

قرأ الوثيقة مرة أخرى، وتوقف طويلاً عند عدد أسهمه، فوجد الزيادة ضئيلة، رقم تافه جدًّا. تجهم وجهه، أعاد وضع الوثيقة في الصندوق، وطأطأ رأسه يحدق في ركبتيه، وغاص في كرسيه ساكتًا.

لم يأمل السيد عمر في شيء أكثر من هذا.

نطق بعد صمت طويل، وتساءل بنبرة مُكذِّبة:

- إيه دا؟!

حدجه السيد عمر بنظرة قاسية:

- اللي قريته.
- همم!

حملق فيه السيد عمر بنظرة أخرسته، تألم منها، كأنه رماه بسهمين خرقا مقلتيه فلم ينطق بحرف آخر، وأعاد عينيه إلى النظر في مفصلي ركبتيه.

يعرف السيد عمر أن الأستاذ باهر خبير بختم الحاج مرزوق وتوقيعه، لكن وجهه لم يكشف عن لمحة من اضطراب أو توجس.

رفع الأستاذ باهر وجهًا ذليلاً إلى السيد يقول بلا كلمات: «عملتها يا عمر»؟!

ابتسم السيد وقد أدرك ما يجول بذهن الرجل «العقدة».

كأنه أزال سحبًا سوداء عن وجهه، تكلم السيد عمر بوجه صافٍ، فوعده بشيء أكبر من عدد الأسهم المقدرة في الوثيقة في العام المقبل، وخلع عليه صفة مستشاره القانوني الخاص، وأعطاه امتيازات جديدة في العروس، ولم ينتظر منه إجابة.

وأمر بسلطة حاكم مطلق:

- وقِّع.. في مكان توقيعك.

احتار بين إعلان شكه في الوثيقتين واحتجاجه على ما يحدث، وبين أن يبلع ما أُلقِي إليه، فرأى في البلع منفعة، وفي معاداة السيد عمر خسارة فادحة. ابتسم ابتسامة لزجة متواطئة، وحاول المساومة علَّه يحصل على نصيب أكبر:

- ولكن الختم يا عمر بيه؟

- ختم الحاج مرزوق عشم الله.
- والتوقيع؟
- توقيعه.
- وملّاك الأسهم الـ...

قاطعه السيد عمر بحدة:

- انتهينا يا عقدة بيه، أنت عارف إنه حقي، وإن الحاج مرزوق رجل عادل، وفي الآخر كل واحد بياخد نصيبه.
- طب والحاج فتحي؟

وابتسم بسخرية:

- دا واخد صفر!
- نصيبه، هنعمل له إيه.
- بس يعني؟
- انتهينا يا باهر، انتهينا.

بسلطة من يملك كل أمر:

- وقِّع.

أخرج الأستاذ باهر قلمه الذهبي من جيب سترته الداخلي، ووقَّع الوثيقتين منصاعًا، تحت صفة المستشار القانوني للعروس.

عاد السيد عمر بظهره إلى الخلف وتنهد مرتاحًا: «الواحد لا يرتفع سوى بالمرور فوق جسد آخر، أو دهسه. إنها المنافسة، السوق، وسوف ألتهمكم جميعًا قبل أن تأكلوني».

قام بهدوء، ومال على الأستاذ باهر، وابتسم ابتسامة مريعة، وهمس بصوت كفحيح:

- هاكلك مع العشا يا باهر إن نطقت بكلمة لأي حد.

ارتعشت ركبتا الأستاذ باهر تحت بنطلونه، فلاحظهما السيد عمر:

- اثبت يا مِتر.

وضحك بهستيرية.

لم يجد الأستاذ باهر مفرًّا سوى الضحك معه. رفع صوته قدر ما يستطيع، وفي قلبه وُلِد رعب من الرجل الذي يعرف جيدًا كم اقترف من جرائم.

- قول لي بقى.. إيه آخر أخبار قضايا القتل، والمخدرات؟

تراجع المحامي الكبير، المتخصص في تخليص رقاب الكبار، وأراح ظهره إلى ظهر مقعده، وزمَّ البالطو الأسود فوق بدلته الحريرية، ووضع يده اليمنى، مفتوحة الكف، فوق موضع قلبه كأنه يقسم، وقال بثقة:

- القضايا كتير يا عمر بيه، ودايمًا بكسبها براءة.

وسكت يتمعن في وجه السيد:

- لأن كل الموكلين عندي أبرياء.

خبط السيد عمر سطح المكتب ودوت قهقهاته.

انتظر المحامي وقتًا حتى نضب ضحك السيد. نظر بعيدًا عن وجهه، وحدق في طاولة الاجتماعات، وكأنه يكلم نفسه قال:

- التزوير عقوبته سبع سنوات أشغال شاقة.
- بتقول حاجة يا باهر؟

حملق في الفراغ:

- والرقص هنا، في العروس، ممكن يبقى جريمة، يبقى فسق وإثارة للغرائز، وفعل فاضح في محل عام، وممكن يكون فن رفيع لا غبار عليه.
- نعم؟!

- وبراحتي أخليها لك زي ما أنا عايز.

ازدادت حدة السيد عمر:

- بتقول حاجة يا باهر؟
- بقول إني محاميك، مستشارك القانوني يا عمر بيه.
- هه؟
- بقول كله رقص.. رقص، وأنا محاميك، وتحت أمرك.
- آه.. طيب.

هدأ السيد عمر، وأشعل سيجارة دون أن يقدم واحدة للأستاذ باهر. وفوق، في الصالة الكبرى، كان اللحن قد تغير، وأبدلت سماهر بدلة رقصها بأخرى، بلون زهرة بنفسج، لامعة بنجوم بيضاء، وتغيرت حركاتها منسجمة مع اللحن الجديد، وكانت منضدة جميلة تتابع رقصها، بلا سأم.

في ركن مُنزوٍ، يضيئه مصباحان مذهبان، معلقان على الحائط الوردي، منضدة دائرية ذات مفرش أحمر، تتوسطها مزهرية زرقاء بوردات قليلة ذابلة، كان مطر يجلس مرتاحًا، يداه الكبيرتان ساكنتان فوق المفرش الأحمر، يتأمل زهور الورد البلدي، الحمراء والصفراء والبيضاء الطازجة في سلة الصبية «أزهار» المعلقة في ذراعها.

وكانت أزهار واقفة إلى جوار الدكتورة نانيس، في فستان مشجر طويل وفوق وجهها ابتسامة خجلة. أزهار وردية الشفتين، والوجه، في الرابعة عشرة من عمرها، حضورها طازج ومنعش مثل زهرة تُوضَع في إناء فارغ فتُحييه.

برقة أم، لامت نانيس البنت الساهرة حتى الآن، فهمست:

- موسم يا دكتورة، كل سنة وحضرتك طيبة.

مدت يدها وربتت على كتفها. ضمتها إليها، واحتضنتها وقبلت وجنتيها، وأعطتها نقودًا كثيرة، وأخذت منها كل ما في سلتها من ورود، وأمرتها بحزم:

- روَّحي نامي يا أزهار.

طأطأت البنت رأسها، وخرجت من العروس تحجل في ظلمة الممر الخلفي، وتدندن مبتهجة. وضعت النقود في يدي أبيها، وجلست على ركبتيها إلى جواره تفرز معه زهورًا جديدة.

أخرجت نانيس الورود القليلة الذابلة من المزهرية، ووضعت الورد الجديد.

نسَّقت الصحبة متعددة الألوان بأصابع رشيقة ولمسات حانية، كأنها تعزف، حتى اطمأنت إلى جمال ما صنعت، ومالت إلى الحاضرة الغائبة عن يسارها:

- إيه رأيك كدا؟

- حلو.

وكان مطر يتأمل «عصفور الجنة» الرشيق الذي يتوسط الزهور، يُثبِّت شكله في مخيلته، ربما يرسمه، ينحته ذات يوم قريب أو بعيد.

رفع وجهه عن الزهور فلم يرَ أمامه سوى امرأة واحدة من المرأتين الجالستين معه تتبادلان الكلمات والاهتمام، سامية تتحدث بصوت شاكٍ حزين، وهو رأى نانيس وحدها، مشغولة عنه تنصت إلى صوت آخر، غير صوته، نظر إليها: «أريدك معي، معي وحدي، دائمًا».

لم تُدِر وجهها إليه. لم يسخط، ونظر حوله فبدا له أن المكان قد خلا، واختفى كل الناس، وتلاشت سامية التي ما زالت شفتاها تنفتحان ببطء وتخرجان الكلمات الحزينة. مد ذراعه الطويلة، ووضع يده على كتفها، وأمالها نحوه برقة، فنظرت إليه متسائلة، وسكتت سامية.

نظر في عينيها وتحركت يده على ظهرها، وأماله نحو صدره، ابتسمت له ابتسامة رائقة ومالت معه ككمان. عيناها في عينيه تقول «عايز إيه مني»؟ ووجهه، فاتح السمرة، يضيء لحظة بعد أخرى بشفق رقيق، شفتاه تهتزان برقَّة،

ولا ينفرج فمه بكلمة.

داعب خدها برقَّة للحظات، وفمه يكاد يلامس أذنها، همس لها:

- أبدًا، عايز أقول لك بحبك.

ردته عن رقبتها خجلة، وأبعدته عنها قليلاً، وانتصبت في مقعدها.

زجرته بدلال ورقَّة:

- وبعدين معاك؟ الله.

ونظرت إلى سامية معتذرة اعتذار تلميذة ضبطتها صديقتها في حالة حب.
انفرج وجه سامية الحزين، وابتسمت:

- الحب جميل.

تبادل الثلاثة النظر، وسكتوا حتى وقعوا في صمت مطبق، وسكون جامد.

كسرت نانيس الثلج الهابط ببطء حين رأت الأسى يزحف فوق وجه سامية.

- إيه رأيك في اللحن يا سامية؟
- لحن إيه؟

حولت وجهها نحو سماهر التي كانت ترقص على لحن آخر، جديد.

قالت سامية:

- ليالي الغرام.

قالت نانيس:

- أبدًا، ليالي الغرام اللحن اللي فات، اللحن دا لحن «آخر الليل» يا حلوة.
- آه.. مظبوط.. بس تعرفي.. الاتنين أحلى من بعض.

وكادت تصفق بيديها.

- دا كمان حلو قوي.

راحت نانيس تتحدث عن أبيها، وعن حكاية اللحن الشهير، وتلك الليلة التي وُلِد فيها، وكيف كان مزاج أبيها حين تحركت أنامله على العود وأبدعته، كيف كان يبدو وجهه وهو يتقدم فيه نغمة بعد أخرى وكيف ... تتحدث بلسانها ويديها ووجهها، ووجه مطر، الطويل المسحوب إلى أسفل، تتباين فوقه التعبيرات والصور، أذناه تلاحقان كلماتها، وروحه تعيش معها، مرة يداعب لحيته الرمادية الصغيرة، ومرة يمسح بأصابعه على شعره، مرة يطلق «هاه.. وبعدين»؟ ومرة يضحك للقفشة اللطيفة الجارية على لسانها، يعقد يديه الكبيرتين على صدره، وينتبه إلى حركات يديها، يثبت في مخيلته كل وضع جديد لها.

توقفت الأنغام في قفلة محكمة، وانتهى اللحن، وسماهر تقدم رجلها اليمنى وترفع يديها، وتثب راسمة بجسدها شكل زهرة كبرى متفتحة الأوراق، ثم انحنت قليلاً إلى الأمام تُحيِّي جمهورها الجديد.

دوى في صالة العروس تصفيق طويل، وحار، ولم تصفق سامية، وقد تملكها الغيظ إلى آخره.

قالت نانيس دون أن تتفضل برفع يديها من استرخائهما على المفرش الأحمر تحت يديها:

- كويسة.

وكان مطر يصفق بحرارة.

تململت نانيس في مقعدها، وسألته وهي تتصنع اللامبالاة، كأنها تذكرت شيئًا تافهًا، غاب عن بالها:

- أنت اللي جِبت الرقاصة دي؟

انتبهت سامية بكل جوارحها.

- لا.. أنا بس رشَّحتها لأسعد.

- وشُفتها فين؟

- في الهرم.
- فين في الهرم؟
- في مطعم البلبل.
- ههه.. مطعم ولا ملهى ولا كباريه؟!

قال مطر:

- مطعم وملهى، ومرقص البلبل.
- آه.. وعاجبك رقصها؟

أغاظها مطر وهو معتد بغيرتها عليه:

- جدًّا، عاجباني جدًّا.

لانت ملامح سامية وانفرجت أساريرها.

تنهدت نانيس:

- عارفة هتبرر إزاي، وهتقول إيه.
- إيه؟

تقمصت نانيس طريقة كلام مطر، وقلدته:

- دي فنانة، مبدعة في رقصها، وإذا مات الإبداع في بلد لم يمُت شعب البلد فقط، بل تموت دولته، ينقرض الشعب والبلد.
- تمام، برافو عليكِ.

ونظر إلى عينيها مباشرة صامتًا. «بحبِّك لوحدك».

صُدِمت سامية مما سمعت، تسرب إليها شك، لم تقتنع تمامًا ببراءة زوجها، لكنها أخذت تلوم نفسها على يقينها المر، والليالي السوداء التي كانت تتخيل فيها خالد يدور حول الراقصة الصغيرة، كم مرة تخيلته معها، يرقص معها، يتكلم معها، يلسمها، يقبلها، يذهب معها إلى السرير، و...

«أنا غبية جدًّا»!

زفرت: «الحمد لله.»

انزاح الهم الثقيل عن صدرها وإن لم تتبدد شكوكها. راق وجهها، وصفا، واختفت سماهر من المسرح الصغير، وأُنيرت أضواء في الخلف فظهرت الفرقة التي كانت تعزف خلفها، وتصدرت المشهد.

العازفون، الذين كانوا في الظلام، سقطت فوقهم الأضواء فصاروا أبطال الفقرة، وبلا راقصة، يعزفون في كامل أناقتهم، بدلهم رفيعة الذوق، وربطات أعناقهم مربوطة بإحكام، أيديهم على آلاتهم وعيونهم على العود والكمان والناي، وكان اللحن الجديد لحنًا راقصًا للموسيقار واصف عزيز أيضًا.

قام كثيرون وكثيرات واحتلوا المسرح والطرقات ورقصوا. ومع لحن أبيها، قامت نانيس واقفة وابتسمت لسامية، وقبلت خدها برقَّة، ومدت يدها إلى مطر فأخذها في كفه الخشنة، سحبته ببطء، فاقترب منها ووضع يده على كتفها، وراحا يتمايلان مع النغمات، إلى جوار منضدتهما الخالية إلا من سامية، التي كانت تراقبهما، كمن يشاهد فيلمًا فيه مشهد حب رقيق.

«آه.. الحب جميل، جميل».

همست نانيس في أذن مطر:

– أنا مش زعلانة منك، عندك حق، عندها فن.

كان يكلمها ويده على كتفها، والأخرى حول خصرها: «يا نانيس.. الكون كله يدور حول نفسه، مثل كل شيء، مثل كل واحد، الكون كله في حال عشق دائم، يدور حول ذاته وحول المعشوق، والمعشوق يدور حول نفسه وحول العاشق، ليس الكون كله إلا عاشق ومعشوق، ومعشوق وعاشق، واحد وكثير، فلماذا تلومين هذه البنت إن رقصت، وإن أخبر رقصها عن قصة العشق»؟

في مجلسها، كانت عينا سامية تبحثان عن خالد، وخالد كان قابعًا في المطبخ، لا يريد أن يراها!

قالت نانيس إن أحلى ألحان هي الألحان الراقصة، وأجمل ألحان راقصة عرفها الناس في مصر والعالم العربي هي ألحان أبيها، ألحان تخلع قلبك، تخرجك من جسدك لترقص، تشقيك وتدميك لكنها تنتزعك من مكانك لتقوم وترقص، ألحان أبي.

- ألحان أبيك أم ألحانك؟
- ألحاني وألحان أبويا يا حبيبي.
- حبيبي أنتِ وأبوك.

«آه من هذا الشوق الحار الذي أذاب ثلج هذا الليل، الذي أدفأني بعد برد طويل».

قالت سامية لنفسها: «آه منكما.. آه!»

فكرت أن تعود إلى كرسيها عند البار، وأن تنتظر أن يأتي خالد إليها، لكنها بعد دقيقة قررت أن تذهب إلى الحمام، وتغسل وجهها وتعيد وضع بعض كريم الأساس، والماسكرة، وتلون شفتيها بلون وردي.

في حمام السيدات الفاخر ثلاثة أحواض من رخام، ومرايا من البلور، الأرض رخام والحوائط من فسيفساء قديم، وكل شيء يلمع بالبياض.

كانت سامية تغسل وجهها أمام الحوض الأوسط حين دخلت هايدي، وادَّعت بـ«أوووووو.. سامية.. سامية حبيبتي» أنها فُوجِئت بوجود سامية الليلة هنا:

- سامية.. حبيبتي، حبيبتي إزيك؟ وإزي ندى وكريم؟ وإزي أبوكِ الحاج وأمّك الحاجة؟ نقلتِ حدايق الأهرام خلاص؟ كانت السيدة أحسن، بيئتِك وواخدة عليها.

حدقت سامية فيها.

– قصدي يعني مرتع طفولتِك وصباكِ.

وضحكت بسماجة.

بقيت سامية صامتة.

– بهزر معاكي يا سونسن، فيه إيه؟!

– بالراحة عليَّ يا هايدي.. عايزة أعرف هحط الماسكرة دي إزاي.

قالت من تحت ضرسها:

– والله أنتِ قمر من غير أي مكياج، وجسمك زي ما هوَّ، زي ما كان من عشر سنين، عيني عليكِ باردة.

أحست سامية بقشعريرة تجتاحها فأنهت زينتها سريعًا، وقالت لهايدي خارجة:

– عن إذنِك.

أغلقت هايدي طريقها:

– على فين؟ عايزاكِ في موضوع مهم جدًّا. استنّيني في الصالة، خمس دقايق وهاجي لِك.

فتحت هايدي حقيبة مكياجها، علبة معدنية مستطيلة، لها يد سوداء، تصطف فيها علب المكياج وأدواته في أدراج كأنها دولاب صغير، فيها من كل شيء، الكحل والماسكرة، أحمر الخدود، الكريمات، وغسلت يديها مرات عديدة، ثم غسلت وجهها بصابونة عطرة الرائحة، وراحت تعيد طلاء وجهها من جديد، كريم الأساس الأبيض الناعم أولاً، ومن بعده وضعت الكحل في عينيها، وظلال الجفون، وصبغت شفتيها بأحمر فاقع جدًّا.

وسامية عادت إلى الصالة. قبل أن تصل إلى كرسيها، اقتربت منها أزهار التي رجعت بسلتها، ممتلئة بورود جديدة، وبزهرات مفردات مغلفات في سوليفان وورق ملون، ومدت نحوها زهرة بيضاء.

- أنتِ رجعتِ تاني؟!
- ودي ليلة تتفات يا طنط سامية؟ دي ليلة موسم وبيع وفُرجة. خدي وردة.

ابتسمت سامية وأخذت الوردة فرحة:

- فُرجة!

مضت أزهار وسلتها الكبيرة ذات الألوان المبهجة معلقة في ذراعها اليمنى. اختفت البنت ذات الضفيرتين المجدولتين حول وجهها وسط زحام الصالة. «كم تشبهني هذه البنت حين كنت في مثل عمرها»!

حوَّلت بصرها إلى البار، وجدت كرسيها شاغرًا كأنه ينتظرها، يدعوها أن تأتي وتجلس وتتفرج، وتنبسط، فعادت إلى الجلوس وحيدة، ووجهها صوب المسرح الصغير.

بجوار طاولتهما كان مطر ونانيس لا يزالان يتمايلان كغصني شجرة واحدة:

- شُفتِ البنت كانت بترقص إزاي؟ جميلة، مبهرة.. مش كدا؟

قالت نانيس جادة:

- الجمال لا لوم عليه، اللوم على العيون التي لا ترى، والنفوس التي لا تطرب، والأرواح التي لا تحب.
- الله عليكِ.

توقف تمايل العاشقين حين ظهر أمامهما فجأة مستر أسعد لطيف.

امتعض لمنظرهما، وقال مزهوًّا بنفسه:

- إيه رأيك في المفاجأة دي يا دكتورة؟

قالت وهي تعود إلى الجلوس على مقعدها:

- كويس يا أسعد، كويس.

نظر أسعد إلى مطر وقال بخبث:

– البركة في الأستاذ مطر اللي دلّنا على الرقاصة، شكرًا يا أستاذ.

ضحك مطر في وجه أسعد:

– لا داعي لشكري يا أسعد بيه، دا واجب عليَّ.

اغتاظت الدكتورة نانيس قليلاً، لكنها لم تتمالك نفسها من الضحك مع مطر.

هبط وجوم على وجه أسعد لطيف.

كان يريد أن تكون كلماته مؤثرة أكثر، أن تغضب الدكتورة لأن الرجل الذي تصاحبه وتفضله عليه، والذي لن تستطيع الزواج منه أبدًا، يسهر في كباريهات الدرجة الثالثة ويكتشف الراقصات، ويأتي بهن إلى العروس، لكنها لم تغضب.

حاول كثيرًا أن يتخلص من مطر، طاردها بحبه، وبالتلويح بالزواج، ولكنها لا تعطيه ريقًا حلوًا أبدًا، تتجنبه، وتعامله برسمية، وتجالس هذا المثَّال التافه، وتتمايل وترقص معه على ألحان أبيها.

إنها خارجة عن الملة، فليتوقع منها الأسوأ، مع كل ذلك لم يستطِع أن يؤذيها أكثر، إنه يشتهيها على كل حال، يريد امتلاكها، هي وأسهمها في العروس، ويريدها في بيته ومعه.

قال مستر أسعد وهو ينظر إلى مطر بجفاء:

– ممكن يا دكتورة؟

وأشار إليها أن تقوم وتمضي معه.

– ...

– حاجة خاصة ومهمة.

وقفت، حاول أن يسحب ذراعها لكنها مالت مبتعدة عنه.

– اجتماع مجلس الإدارة بعد نصف ساعة يا دكتورة.

– في آخر الليل كدا، اجتماع؟!

قال حازمًا:

– أيوه، اجتماع خاص، شديد الأهمية.

أخبرها أنه اجتماع سري وخطير، وقد أخبر به الجميع قبل ساعات فقط، وأنه كان يعرف إنها ستأتي الليلة ولم يجد عيبًا في أن يخبرها قبله مباشرة:

– الاجتماع بعد العشا مباشرة.

مضطرة أومأت برأسها. استدار ومضى يفسح له طريقًا وسط الزحام. عادت إلى منضدتها واجمة قليلاً، تنظر إلى وجه مطر الذي كان يبتسم لها ويحدق في عينيها صامتًا، منتظرًا كلماتها: «هتستناني لحد ما أخلص الاجتماع»؟

كانت نانيس كلما حضرت اجتماعًا كهذا، وهبطت إلى الطابق السفلي، تشعر بغصة في حلقها، وانقباض في صدرها. كلما دُعِيَت إلى اجتماع لمجلس الإدارة تملصت، وتذرعت بأسباب واهية، واعتذرت بأنها مريضة، الاجتماع نفسه يمرضها، وجودها في الطابق الأرضي يؤلمها بلا سبب معروف لها، وبلا حدث، تعود منه مكتئبة لأيام، لا تحب أن تنزل إليهم، هؤلاء الملَّاك الذين يتشاجرون كلما جلسوا معًا، ويتصارعون على سهم واحد يريد أحدهم أن يأخذه لنفسه، لكنها الليلة لا تستطيع أن تعتذر؛ فالليلة ليلة الحساب الختامي.

– استنَّاني يا حبيبي.

– هاستنَّاكِ.

هبطت إلى الطابق السفلي، وجلس مطر يشرب راغبًا في أن يقضي كل الساعات القادمة مع نانيس وحدها.

ذهب مستر أسعد فأخبر ثروت بك بأن موعد العشاء الفاخر قد حان، ومضى. قام ثروت بك من على كرسيه، وعدل سترته القرمزية. وهو يعبر الصالة ألقى نظرة على سامية التي كانت تنظر في جهة أخرى. توقف وأجرى يده على رأسه العارية تمامًا من الشعر، وشد جسمه إلى أعلى كأنه يريد أن يصير أطول، يريدها أن تنظر نحوه

وترى كم هو عملاق عظيم، وثري وأحد ملَّاك العروس، لكنه فاته أن نظرتها كانت سارحة تنظر داخل رأسها، باحثة عن طريقة لاستعادة زوجها.

خلت مائدة ثروت بك منه، وبقي متشبثًا بمقاعدها من كان يجالسه منذ بداية السهرة، وجاء نادل وفي يده فاتورة الحساب.

مرت الفاتورة إلى يد هايدي فنظرت إليها وامتعضت، ووجدها كابتن ميدو باهظة جدًّا، فوضعها على المنضدة بعيدًا عنه، وحوَّل وجهه عنها.

قال طلحة بتشففٍ أصفر:

- لا مؤاخذة كل واحد يدفع حسابه.

صاح ميدو في طلحة غاضبًا:

- أنت إيه؟! معندكش ذوق.
- تعليمات الإدارة، مش معنى إني من ملَّاك العروس أحاسب لك.
- أنت؟! أنت تحاسب لي أنا؟ أنا كابتن ميدو النعيم يا جاهل.

زعق فيه طلحة بغلظة:

- بتقول إيه يا ... يا غلام أنت؟!
- غلام؟!
- غلام ورقيع كمان.
- أنت فعلاً فعلاً معندكش ذوق، ولا أدب.

قام النعيم ساخطًا، ومضى دون أن يودع صديقته التي ضحكت مع طلحة على وصفه بـ«غلام».

«بنت خاينة، وبتاعة مصلحتها، أنا مش هاعرفها تاني».

ابتعد عنهما، وراح يتجول في الصالة وكأسه في يده باحثًا عن رجل وحيد معه كأس، يمكن أن تُقرَع بالتي في يده.

وأمام باب العروس، توقفت سيارة سوداء فاخرة، سوداء الزجاج، مسدلة الستائر، ونزل منها شابان ضخما الجثة، تلفتا حولهما في كل اتجاه يستطلعان المكان. خلف السيارة كان «مازن» الحارس الأنيق في بدلته السوداء، وحول خصره، تحت سترته، طبنجته المرخصة ينظر في اتجاه الشمال، وأمام السيارة كان الحارس الثاني «مخلوف»، الكثيف الشارب الأسود، يولي بصره في الاتجاه المعاكس حيث ميدان مصطفى كامل، ومن باب السيارة الخلفي المفتوح خرجت قدم الحاج فتحي أبو درقة ووطئت الإسفلت، وامتدت يدا سائقه «محمد» تساعدانه على الخروج والوقوف.

ربت الحاج على كتف سائقه بامتنان.

وفي شارع مصطفى كامل الجانبي، كان شاهين البواب واقفًا في الضوء الشحيح ينظر إلى السيارة والحاج والحارسين ويتفرج: «ما كل هذه الأبهة؟ العظمة لله وحده»!

ظهر الحاج فتحي أبو درقة على شاشة المراقبة أمام عيني الهراوي. ضغط على زر عن يمينه فانفتحت ضلفتا الباب. قام واقفًا، وأحكم زم ربطة عنقه، ومشى نافخًا صدره وساعديه وشادًّا عضلات بطنه، وتحرك مسرعًا ليستقبل الحاج وكلماته تسبقه:

– أهلاً يا حاج.. العروس نورت.

لم يُعِره الحاج كثير اهتمام، شمخ بأنفه قليلاً، وهز رأسه وحوله حارساه.

– اتفضَّل يا حاج اتفضَّل، زارنا النبي.

ابتسم الحاج ابتسامة لزجة قليلاً، ومر من فوق السجادة الحمراء، وفي ظهره رشقتا عينا الهراوي، كعيني نمر، يزن حجم فريسته من الخلف.

دخل إلى الصالة الكبرى بخطوات متريثة. وقف وأجال نظره مبسوط المزاج، وقعت عيناه على عشرات الحسناوات، المكشوفات الأكتاف والصدور

والأفخاذ، ولاحظ وجود المسرح الجديد في صدر الصالة، واسترق نظرات إلى أزواج الراقصات والراقصين في الممرات وعلى المسرح والفرقة من خلفهم. لم يبدُ الأمر صادمًا بالنسبة إليه؛ فاحتفال رأس السنة في العروس كل عام به موسيقى ورقص وزحام، لكن الليلة أكثر من كل ما فات. متَّع نظره قليلاً: «إيه؟! الخير كتير الليلة، أكل ونسوان وشرب، العروس بقت ميغة ولا إيه؟»

في عينيه الخبيرة بالسلع الفاخرة، كانت تتلألأ الماركات العالمية، العابرة للقارات، حين مال عليه مازن، وهمس في أذنه.

- طلحة؟

أشار إلى مخلوف.

ذهب مخلوف إلى طلحة، واقترب منه منحنيًا باحترام:

- سلام عليكم يا حاج طلحة.

أراد طلحة أن تنشق صالة العروس الكبرى وتبتلعه، لكنها لم تنشق.

ترك كأس نبيذه ومسح شفتيه. كان يظن أن أباه مع عروسه الجديدة الليلة: «لماذا جاء إلى هنا الليلة؟ للعكننة عليَّ في ليلة مفترجة كهذه.»

ذهب إلى الحاج فقبَّل ظهري يديه.

- أنت هنا بتعمل إيه؟

لم يُجِب طلحة وطأطأ رأسه أكثر، ملتزمًا الأدب الجم.

- قُلنا الرقص والموسيقى والشرب حرام، حرام عليك وعلى أهلك، جاي تعمل إيه؟!

- يا بابا ...

- روَّح لأمك.. روَّح.

تراجع طلحة إلى الوراء حتى اختفى في زحام الصالة الكبرى.

لم يغادر العروس، وكانت عيناه تبحثان عن صيد. وكان الحاج فتحي أبو درقة، أيضًا، يبحث عن الشماشيرجي، «أسعد لطيف»، لكن، في كل الأحوال، الحاج يعرف طريقه إلى الطابق السفلي، حيث سيكون العشاء، ومن بعده الاجتماع السنوي المرتقب.

الحاج فتحي أبو درقة وجهه يميل إلى السمرة بحاجبين سوداوين كثيفين، وعينين ضيقتين لا لون محدد لهما، جبينه مخضب بالغضون، شاربه أبيض، ولحيته خفيفة، وجرمه غليظ وممتلئ وبكرش كنصف كرة تسبق خطواته. كان جسده الضخم ملفوفًا جيدًا في بدلته الفاخرة التى فوقها عباءة مقصبة بخطوط ذهبية رقيقة، وفوق رأسه طاقية طويلة، قلنسوة لها طراز خاص، لا هي بالبلدي ولا بالأفرنجي، طاقية سوداء مميزة، من صوف فاخر.

٧

قبل العشاء، شقَّ أسعد لطيف طريقه بنبرة حاسمة:

– عن إذنك يا بيه.. سوري يا مدام.

أبعد أجساد رجال ونساء واصطدم بأخرى، احتك بأكتاف وظهور وصدور حتى وصل إلى الركن الأخفت ضوءًا، الزاوية شبه الخافية عن عيون رواد العروس، وتوقف أمام درَج قديم.

انحنى له رجلان يسدان المدخل، وأمالا رأسيهما قليلاً إلى الأمام ثم اعتدلا ساكنين. كانا أقرعين، وجه كل منهما كرة كبيرة، ضخمي البنية كعمودي خرسانة مسلحة ولامعين من الخارج كالسيراميك، صارمين ومخيفين في سترتين سوداوين، وربطة عنق كل منهما حمراء محكمة الغلق حول العنق، وسلاحهما خفي.

تحرَّكا خطوتين وأفرجا بينهما فرجة واسعة، وانفرجت الأسارير الملساء قليلاً، وتحركت العضلات موسعة الفم ورافعة الشفاه إلى أعلى فبديا كأنهما يبتسمان لمستر أسعد ابتسامة سرية، غير مرئية لأحد سواه، فاكتفى السيد المدير بهمهمة رضا.

وضع يده اليسرى على الدرابزين الخشبي، وداس حذاؤه الإيطالي الفاخر الدرجة الأولى، وهبط في الضوء الشحيح، تدور الدرجات تحت قدميه كأنها حلزون وتحت يده خشب الزان ناعم ومصقول.

«أسعد لطيف يجب أن يعرف كل شيء في العروس، حتى دبيب النمل والهوام تحت الأرضيات وفي الأركان والزوايا، يجب أن يعرف كل شيء».

ما إن تركت قدمه الدرجة الأخيرة حتى سمع همهماتٍ وأصواتًا وكلامًا، وضحكات فتيات تسري تحت السقف المنخفض، وتأتيه خافتة من ناحية المطبخ، خطا نحوها خفيف الحركة، حابسًا أنفاسه، واضعًا يده على أذنه يتسمَّع بمظهر متلصص خبير. ارتفع رنين الضحكات في أذنيه حتى تكشفت له النبرات والطبقات وعرف أصحابها، وميزهم بأسمائهم.

في الركن الشرقي، في المطبخ الواسع، أبيض الحوائط والسقف، كن أربع فتيات جميلات، واحدة بيضاء، وأخرى سمراء، وثالثة خمرية، ورابعة شقراء، متحلقات حول حمُّو الترسة ومنضدة مستطيلة من رخام أبيض.

كان الذوَّاقة العجيب يضع لمسات متأنية على أطباقه الفريدة، ويرشها بتوابل وبهارات نادرة، والفتيات يحدقن فيه صامتات، يتابعنه بفضول ويداه تعملان بخفة حاوٍ متمرس، ولسانه الطويل يتحرك داخل فمه: «هذا الذي بين يديَّ هو الطعام الأثمن والأغلى في العالم، الفطر النادر الغريب، النبات الأعظم على وجه الأرض، لا يوجد في أعماق المحيطات ولا البحار ولا البحيرات المالحة ولا العذبة، الفطر الأشهى والأثمن على وجه اليابسة، والذي يوجد حيث لا توجد أية حياة، لا يوجد في كل صحراوات الأرض، يوجد فقط في كيلومتر مربع واحد من العالم، ولا يطلع كل سنة!»

- إيه هو دا؟!

كان جادًّا مثل عالم طبيعة يعلن على مجتمع علمي حقيقة عظمى للمرة الأولى، قانونًا عظيمًا اكتشفه وأثبته بكل المناهج العلمية والفلسفية، وكانت الفتيات يُقلِّبن في أدمغتهن ما يقول، ويحملقن في وجهه بعيون تلمع مستثارة.

- في كل كاااام سنة يظهر مرة واحدة، ينبت منه مئة نبتة فقط، لا غير، فطر عجيب يزور العالم لأيام قليلة، لا تزرعه يد، ولا يحصده فلاح، فشل كل العالم حتى في أوروبا وأمريكا في استنباته، ولكنه موجود عندنا فقط، هنا في هذا البلد،

وموجود عند شخص واحد، نفر واحد على وجه الكرة الأرضية.. سبحان الله.

- مين دا؟

تنحنح بوقار:

- أنا.

وأشار إلى جسمه الضخم، وشدَّد على مخارج ألفاظه:

- أنا.. أنا وبس.

صاحت الفتيات الأربع وضربن الكفوف:

- واو.. واو.. حقيقي واو.

بدقة وميزان كان يخرج من حلة خشبية حمراء بغطاء أخضر أقراصًا صغيرة رقيقة، ويضعها بعناية في الأطباق الفضية.

- اسمه إيه؟

لا يجيب.

- منين يا مستر؟

لا ينطق.

- بيتزرع فين يا حمُّو؟
- قلنا لا بيتزرع، ولا يستنبت.

غلَّبهن الرجل الثقيل.

تململت الفتيات:

- ييييييي... ييي.

لمسته الشقراء من كتفه، وهمست له برقَّة:

- أبوس خدك لو قلت لي.

غمزت له السمراء بعين عسلية ساحرة، طويلة الرموش، وابتسمت واعدة بأكثر من البوس، لم يبالِ.

تصنعت الخمرية:

- هزعل منك يا حمُّو.

لم يرفع إليها وجهه، وواصل نقل قرص من الحلة إلى طبق، وقرر جادًّا:

- الشغل أسرار يا عرايس البحر.

- طب فايدته إيه يعني؟

ضحك ضحكة متقطعة، غريبة:

- أعظم فايدة على وجه الأرض.

- هاه؟

- فطر يوري العجايب.

وسكت لحظات ينظر إلى نهدي الشقراء:

- أعظم متعة.. خصوصًا لعرايس البحر.

اغتاظت السمراء، وغارت البيضاء لأنه نظر إلى الشقراء، فاقتربت منه، فردت يدها ومدتها إلى صدره اللحيم، وبباطن كفها حاولت دفعه إلى الخلف، لم يتزحزح، مُدَّت الأيدي كلها نحوه وراحت تدق صدره.

أبعد أيديهن عنه وعبس:

- أدب يا عرايس.. أدب.

- طب ندوق حتة.

لفَّ رقبته الغليظة مرات رافضًا بحسم.

من جديد ضربت الأيدي الرقيقة صدره، وعلت ضحكات الفتيات المرحات.

اغتاظ مستر أسعد في وقفة تصنُّته.

«أنا الذي أمرته أن يهبط إلى هنا، وأن ينقل ألعابه إلى مطبخ الإدارة، وها هو يفعل، وبزيادة»!

خلع برنيطته وعلقها بأطراف أصابعه؛ فالضوء الخافت لن يفضح صبغة شعره التي بهتت قليلاً. سار نحو المطبخ ولون شعره يتغير مع كل ضوء يسقط عليه، ومع كل ضحكة أنثوية أعلى يتغير لون وجهه أكثر.

انقطع الضحك كأن محبسًا قد أُغلِق حين وصل.

نظر إلى الفتيات نظرة صارمة فتسمَّرن في أماكنهن، وانتصب حمُّو في وقفته، ثم أحنى رأسه.

- يالَّا..

أشار بيده إشارة لها معنى فانصرفت الفتيات إلى الدواليب الخشبية في أركان المطبخ، وواصل حمُّو عمله تحت نظر السيد المدير.

بعد دقيقة، رفع حمُّو يديه عن أطباقه وأطلقها في الهواء كموسيقار ينهي معزوفة، وقال بثقة:

- كدا تمام.. كله جاهز يا مستر أسعد.
- كُل حتة قدامي.

أكل قضمة واحدة، ومد شوكة طويلة بقطعة كبيرة:

- دُوق يا مستر.

رجع برأسه إلى الخلف مبتعدًا عن شوكة حمُّو.

تريث وانتظر يُمعن النظر إلى وجهه ليرى.

«هل سيتسمم؟ هل سيموت من جراء هذا الفطر الغريب»؟

تورد وجه حمُّو الباسم كأن ضوءًا لطيفًا يسري تحت جلده.

«همم.. على الأقل لا يوجد سم مهلك في هذا الفطر».

تردد قليلاً قبل أن يقرب فمه من الشوكة في يد حمُّو، وهو يغالب توجسه وريبته.

تذوق مستر أسعد ببطء. «ما هذا؟! ليس له طعم مميز، ليس حلوًا ولا حراقًا ولا حادقًا ولا مرًّا ولا ... طعم جديد أذوقه للمرة الأولى»!

أحاطه حمُّو ببصره يحدق فيه بعيني ساحر قديم.

- آآآ.. اسمه إيه؟

نظر حمُّو بتوجس إلى الفتيات عند الدواليب يخرجن المفارش والفوط، ومال على أذن مستر أسعد، وهمس كمن يبوح بسر حربي:

- الـ... الترفاس.

خرجت الفتيات من المطبخ تاركات المدير والذوَّاقة خلف ظهورهن، ورنَّت خطوات الكعوب العالية نحو منضدة العشاء.

- الترفاس؟!

قال حمُّو:

- فطر نادر جدًّا جدًّا يا مستر، قرص واحد منه يعطي القوة لسنوات، ويعيد الشباب.. يِدِّي قوة ميت حصان.

- لا يا شيخ.

سكت حمُّو بوجه جاد صارم.

أشار مستر أسعد إلى الإناء ذي القبة الفضية، بهدوء رفع حمُّو بابه إلى أعلى، وتنحى جانبًا فانطلقت سحابة من بخار ملون.

قرب مستر أسعد وجهه من الإناء فتصاعد نحوه بخار رقيق له رائحة خلابة، رجع برأسه قليلاً وراح يتشمم بعمق ككلب مدرب. كانت الرائحة ذكية وغامضة

ومجهولة، واللحم المسلوق لا هو أحمر ولا هو أبيض ولا أسود ولا بني، بدا له لونًا غريبًا لم يرَه للحم من قبل. تحول بنظره إلى كؤوس الكريستال التي أعدَّها حمُّو فوجدها تتلألأ بلون أحمر شفاف ورائق، كنبيذ معتق.

مستر أسعد ليس ممن يصدقون خرافات حمُّو وترهاته عن أثر أطباقه في الرجال والنساء، لكنه يعرف أن بين أعضاء مجلس الإدارة من سيصدق، ومن سيقدر مفاجآته المثيرة، ويدفع ثمنها فيما بعد، وكان يأمل أن يحب السيد عمر الطبق الجديد الذي يُقدَّم للمرة الأولى.

انتفخ حمُّو في كلامه أكثر من انتفاخ خديه وكرشه العظيمة وهو يتفاخر:

- هذا ألذ وأروع عشاء في العالم يا مستر أسعد.

من أقصى الركن الشرقي تحركت الفتيات الأربع، مطلقات الشعور، حاملات صواني نحاسية منقوشة، فوقها شمعدانات فضية وذهبية، ومفارش وفوط ومناديل، وملاعق، وشوك وسكاكين، وخطرن براقات في تنانير حمراء مشقوقة من الخلف، وبلوزات بيضاء حريرية مفتوحة الصدر، وعند منضدة العشاء توقفن ووضعن ما معهن بحركات رشيقة. فرشن مفرشًا أبيض ناصعًا، وأمام كل كرسي رتبن أطباقًا وملعقة وشوكة وسكينًا، وأطلقن في الهواء معطرات جو، وأنزلن الكراسي المعلقة عن حافة المنضدة، وأشعلن الشموع.

ألقى فريق الخدمة النسائي نظرة أخيرة على ترتيب كل شيء، وسكن ينتظر المستر.

- ها؟
- تمام يا مستر أسعد.

ألقى نظرة متعالية:

- مش بطَّال.

ومرَّ إلى حمام الإدارة في الركن الغربي.

عادت الفتيات إلى المطبخ، وتحلَّقن حول حمُّو وعربة الطعام، عربة معدنية في حجم وشكل عربة بليلة، كالتي تجوب شوارع الأحياء الشعبية في أمسيات وليالي الشتاء، لكنها فخيمة بمعدنها البراق وعجلاتها السوداء، وفوقها الإناء المُدوَّر بقبة من فضة.

نقل حمُّو أطباق الترفاس من طاولة المطبخ إلى العربة، ورتبها في دائرة وصفق، فتحركت الفتيات نحو منضدة العشاء بسلال خبز وأطباق مشهيات: كافيار وسالمون وجمبري، وسيمون فيميه، وعش الغراب.

حضر المدعوون الواحد تلو الآخر، ثروت بك، وبعده بلحظات الحاج فتحي أبو درقة، وكانا يتصافحان حين عبق الجو من حولهما بعطر الدكتورة نانيس. ابتسمت لهما ومدت يدها تصافحهما:

- كل سنة وأنتو طيبين.

خرج السيد عمر من مكتبه وخلفه الأستاذ باهر العقدة، ومشى خطوات، ونظر في اتجاه المائدة فرأى الثلاثة واقفين، توقف كلامهم، واتجهوا بأبصارهم نحوه. ابتسم لهم ثم نظر خلفه فالتقت عيناه بعيني باهر: «ولا كلمة يا عقدة!»

في الأعلى، في صالة العروس الكبرى، جذبت هايدي يد سامية، وأخذتها نحو المنضدة التي كانت تجلس إليها طيلة الليلة:

- أنتِ رُحتِ فين؟ عايزاكِ في موضوع مهم جدًّا.

أجلستها عن يسارها، ومالت بجذعها الرشيق نحوها تبتسم لها، وتكلمها، وكان الصخب قد خف كثيرًا من حولهما، وقد توقفت الفرقة عن العزف في استراحة قصيرة.

وكانت هايدي تقول لسامية إنها لا تعرف كم تحبها، ولا تعرف معزَّتها عندها، حين اقترب السيد عمر من الوليمة.

وقف إلى جوار كرسيه على رأس المائدة، ومد ذراعه اليمنى مفتوحة اليد، فتقدم أولاً الحاج فتحي أبو درقة، وصافح السيد عمر:

– كل سنة وأنت طيب يا عمر بيه.

– أهلاً يا حاج.

عاد الحاج فتحي فوقف إلى جوار مقعده، في الجهة المقابلة لكرسي السيد عمر، وتقدم ثروت بك فصافح السيد عمر:

– عيني عليك باردة، إيه الشباب دا.. إيه النور دا يا عمر بيه.

– أهلاً بيك.

جلس السيد ناصبًا ظهره، فجلسوا من بعده، وصار كل شيء في موضعه، السيد عمر عبد الظاهر على رأس المائدة، عن يمينه ثروت بك، وإلى يساره الأستاذ باهر العقدة، وفي الطرف المقابل فاض الكرسي بجسد الحاج

«أبو درقة» الضخم، وكان مقعد نانيس بين الحاج وثروت بك.

ترتيب قديم وتقليد راسخ في موائد عشاء المؤسسين من أول يوم جلسوا فيه حولها، مات ناس وحيي ناس والمقاعد ثابتة وترتيبها مرعي.

أمسك السيد عمر شوكته ورفعها بأناقة:

– أخبارك يا ثروت؟

امتدت الأيدي إلى الشوك ومدتها إلى أطباق المشهيات.

شكا ثروت بك من كثرة التصاريح اللازم استخراجها لقناته الفضائية الجديدة، وتهافت الإعلاميين عليه، وازدحامهم أمام بابه طالبين عملاً، ووخز الآخرين، الذين يربحون من الهواء بلا عمل، كسب أحدهم مئة مليون في ست ساعات، واشترى آخر طائرة خاصة جديدة، و...ارتسمت على وجه السيد عمر ابتسامة ساخرة فسكت خجلاً.

في وقته المحدد، خرج مستر أسعد لطيف من المطبخ بخطوات رشيقة وأناقة استعراضية، خلفه حمُّو، ثم عربة الطعام تحفها الفتيات الأربع من الجانبين، وتقدم الموكب الصغير نحو السادة، ولعجلات العربة الجميلة صوت رقيق على أرضية الطابق السفلي الباركيه.

التفت الجالسون إلى القادمين يتفرجون مسرورين، وسال لعاب الحاج فتحي وهو يحدق في الفتيات الأربع، والعربة الغريبة.

قال يُذكِّره بأنه لم يستقبله حين جاء:

– خير يا مستر أسعد؟!

ابتسم مستر أسعد ابتسامته الواسعة، ورفع يديه في الهواء كساحر على خشبة مسرح:

– كنت مشغول باللي هتشوفه.. اصبر على رزقك يا حاج.

– صبرنا.

أشار مستر أسعد إلى حمُّو، ذي البدلة الخضراء الطحلبية والببيونة الصفراء، والذي انحنى قليلاً بوقار يحيي الجميع، وخاطب السيد عمر:

– حمُّو الترسة، ذواقة وشي...

قاطعه حمُّو وهو يرفع يديه فوق رأسه بتحية السيد:

– لا مؤاخذة يا مستر أسعد، اسمي حمُّو الجاشنكير يا عمر باشا، متذوق أطباق الملوك، والسلاطين، والناس الأمرا، وشيف عالمي، ومحكم في المسابقات الدولية، و...

زجره مستر أسعد بنظرة قاسية فسكت.

انبسط الحاج فتحي بالشيف العالمي:

– هتأكِّلنا إيه يا حمُّو؟

دفعت الفتيات الأربع العربة فاستقرت قرب ثروت بك، حيث أشار مستر أسعد.

فوق العربة، الإناء المعدني مغلق بباب، وله يد مستطيلة طويلة، يُسحَب إلى أعلى فيُفتَح، ويُعاد إلى موضعه فيدور في مجراه ويغلق على ما فيه، محتفظًا بحرارة ما يجب أن يُقدَّم ساخنًا، وفي وسط الصينية النحاسية كان إبريق فضي كبير، وحوله رُصَّت كؤوس.

مد حمُّو يده إلى الإبريق ورفعه ببطء، وصب بحساب حتى منتصف الكأس، وأومأ للفتاة الشقراء. سحبت الكأس ووضعتها بانحناءة وابتسامة إلى جوار طبق ثروت بك.

رفع ثروت بك الكأس إلى شفتيه، ورشف رشفة قصيرة، وتذوق ببطء. تبسم وجهه وبدا مبسوطًا بالمذاق الفريد. شرب جرعة ثانية، وهو يحرك لسانه بين شفتيه، هز رأسه، مبديًا استحسانه.

وفي الطابق الأعلى، كانت هايدي تقرب كأس نبيذ أحمر إلى سامية:

- اللي يشرب كاس نبيت كل ليلة يعيش ميت سنة.
- بجد؟!
- آه، اشربي معايا يا حبيبتي، أنا مبسوطة بيكِ الليلة قوي.

لم تمد سامية يدها إلى الكأس:

- لا.. شكرًا.
- ليه؟! دا نوع فاخر، حلو قوي.

على أرضية الطابق السفلي، تحركت العربة واستقرت قرب الأستاذ باهر العقدة، وابتسمت له الفتاة الشقراء مغرية. عدل نظارته على أرنبة أنفه وأحكم وضعها فوق أذنيه الحمراوين الطويلتين، وحدق قليلاً في الكأس التي وُضِعت أمامه. رفعها إلى أنفه أولاً وتشممها، بدا مطمئنًا للرائحة الذكية، وللون الأحمر

الشفاف في كأسه. رشف جرعة وأغلق عينيه واستطعم «أووو». سرت في جوفه دغدغة لطيفة، وأحس بدفء يسري في أطرافه الباردة تحت معطفه الثقيل. تلهف على الرشفة الثانية، التي راح يحتسيها ببطء شديد، وقد راق مزاجه.

نقَّل الحاج فتحي عينيه من وجه ثروت بك إلى وجه الأستاذ باهر يفحص تأثير الشراب العجيب، الذي لم يتذوقه من قبل على كثرة ما شرب من نوادر وأكل من أطعمة غريبة. حقد على ما فيه الكهلين، وانفتحت نفسه أكثر مما فعلت به المشهيات التي أكلها بسرعة طبقًا بعد آخر. بدأ يحرك لسانه داخل فمه، ويعد شفتيه لشراب لذيذ، مشعل للحرارة في العروق، وكان يفكر في فائدته عند الدخول بالعروس الجديدة.

حلَّ دوره فاقتربت منه العربة، ووقف حمُّو رافعًا الإبريق، وصب في كأس الحاج بحرص، وكانت عينا الحاج ترقبانه والكأس.

بلهفة مد يده السمينة وأمسك بالكأس كأنه يقبض على طير صغير سيطير إن خففت قبضته:

– يعني إيه جاشنكير؟

قال حمُّو فخورًا بنفسه:

– متذوق أكل وشرب السلاطين يا حاج.

رفع الحاج كأسه عاليًا وهبط بها على شفتيه، ورشف جرعة كبيرة وطويلة، كأنه يشرب عصير قصب، وهو يصدر صوتًا متقطعًا، وأخرج لسانه وراح يمسح به شفته العليا ثم السفلى حتى لا تفوته القطرة الأخيرة. حرك شفتيه مستحسنًا الطعم، ورفع ما بقي في قعر كأسه كمن على وشك الموت عطشًا. اكتسى وجهه بحمرة وهاجة، وانفرجت شفتاه وتكرع، واسترخى في جلسته تمامًا، كمن انتهى من مواقعة بكر لحيمة.

اغتاظ ثروت بك من سرور الحاج فأراد أن يكدره:

- إزيك؟ وإزي الحاجة يا حاج؟

ابتسم الحاج ابتسامة صفراء:

- بخير.

وفي ذهنه يتردد: «ما زلت حيًّا أُرزَق وما زالت حية تسعى.»

في صالة العروس الكبرى، قالت هايدي، متخذة هيئة خبيرة بشؤون الإعلام، إن فرص العمل صارت ضيقة ومحدودة، فلا وجود لشاشات كثيرة ترحب بعملنا، ولا يوجد برامج جديدة في قناتنا، وأنا وأنتِ أمامنا فرصة كبيرة لتقديم برنامج «توك شو» كبير:

- يفيد الناس، ويشهرنا أنا وأنتِ بقى.

لم تكُن هايدي تزين كلماتها كما تفعل أمام الكاميرا، كان لسانها الطويل يلوك ما يشاء من ألفاظ فاحشة، ويلقي كل غضبه على المذيعات النجمات الشهيرات، والمخرجين التافهين، والجمهور البليد المتخلف:

- أنا عايزة حقي، وأنتِ كمان لازم تاخدي، إحنا مش هنفضل كدا محلَّك سر.

في وليمة الطابق السفلي، حركت الدكتورة نانيس يدها بلطف، رافضة، قبل أن تقترب عربة الطعام منها، لكن حمُّو رفع إبريقه الجميل النقوش في الهواء، وحدق في وجهها، يعدها بلذة كبرى.

اضطربت قليلاً من جرأته، ورددت بصرها بين الإبريق والكأس ساكتة.

رفع إبريقه وبدأ يصب، فانساب حبل أحمر شفاف من رقبة الإبريق إلى الكأس.

حدقت في الحبل الأحمر ورفعت صوتًا جافًّا:

- لا.. لا.

اهتز الإبريق في يد حمُّو وكاد يقع، لكنه تمالكه في قبضته بسرعة، ولم يتم الصب في كأسها التي امتلأت إلى ثلثها.

إلي جوارها، نظر ثروت بك بطمع إلى كأسها وقال آسفًا:

- خسارة، هيفوتك كتير.

تسمرت ست عيون، ذاق أصحابها هذا الشراب، على كأس نانيس وما صُبَّ فيها.

بافتعال، ابتسمت نانيس لثروت بك، ثم لفت رأسها بعيدًا عنه، وعن الكأس وهي تشعر باضطراب في معدتها، وبوادر غثيان.

بإشارة من مستر أسعد، حركت الفتيات العربة إلى يمين السيد عمر.

أومأ مستر أسعد لـ«حمُّو» فانصرف وهو يرفع يديه فوق رأسه:

- أنا في الخدمة يا باشاوات.

اختفى حمُّو، وبقيت الفتيات الأربع يخدمن السادة.

وقال مستر أسعد قبل أن ينصرف:

- بون ابيتي.

لم يُجِبه أحد من السادة المشغولين بالتهام أطباق المشهيات.

وهو يصعد سلالم الدرج إلى الطابق الأعلى، فكر أنه ليس له مقعد على مائدة عشاء الملّاك، وإنها، وحدها، الدكتورة نانيس، طريقه إلى حيازة مقعد بينهم، وامتلاك ما يستحق من أسهم في العروس: «ما زلت صغيرًا وسطهم! أنا وأنت والزمن يا ابنة طائفتي وديني».

على منضدة ثروت بك قالت هايدي:

- ثروت بيه منتظر مننا فكرة برنامج، وحلقة بايلوت. عايزين فكرة مطرقعة، فكرة تكسر الدنيا، وهيدفع لنا كتير.. كتيييييير قوي.

جاء وقت الطبق الرئيسي على المائدة الكبرى.

سحبت الفتاة السمراء غطاء الإناء المعدني فجرى في مجراه، وأزّ مرتطمًا بقمة القبة الفضية وهو يختفي خلف معدنها. كان الغطاء ساخنًا، لسع أصابع الفتاة وراحة يديها فتوجعت، هزت كفها ونترت أصابعها وراحت تنفخ في أصابعها لتبرد، ومن الإناء تصاعدت خيوط بخار كثيفة وتوالت صانعة سحبًا صغيرة تتجه إلى وسط المائدة، وفوق رؤوس الجميع، وفاحت رائحة شهية، تفتح النفس.

تطلعت عيون الحاج فتحي وثروت بك و«العقدة» إلى ما في الإناء.

رأوا كومة من لحم كأنها سنم جمل، ظهر غزال بري، ديك رومي، وليست كذلك، واللون لا هو بالأحمر ولا بالبني ولا بالأبيض، مزيج من الألوان كلها. أثارتهم الرائحة الحريفة الشهية، ولم يعودوا صابرين، لكن أحدًا منهم لم يرفع طبقه بالطلب.

بمهارة مدربة، بدأت الفتاة الشقراء تعالج اللحم بسكين عريض، وتقطع بهدوء، وتضع القطع الساخنة على حافة الإناء.

مالت الفتاة البيضاء وسحبت طبق ثروت بك، فهز لها رأسه مبتسمًا. وضعت الطبق بين يدي الفتاة الشقراء فملأته لحمًا، وغمزت لها.

في صالة العروس الكبرى، وقع بصر مستر أسعد على هايدي وهي تميل على أذن سامية، فابتسم ساخرًا، يريد أن يعرف ما تقول هايدي، ولكن ماذا ستقول غير ما يعرف؟

همست هايدي في أذن سامية:

– أجرك عن كل حلقة كبير جدًّا، حلو قوي، وبالدولار يا أستاذة، وثروت بيه سخي وكريم جدًّا.

وكان السادة يأكلون باستمتاع وتلذُّذ.

نانيس اكتفت بالمشهيات، وحين اقتربت الفتاة الشقراء، وبين يديها طبق اللحم، خطوتين من مقعدها، قالت بتأفف قبل أن تصل الفتاة إليها:

– شكرًا، مِرسي عاملة رجيم.

تراجعت الفتاة الشقراء بالطبق الذي تظنه فريدًا وشهيًّا ولا يمكن رفضه، وقد دارت عيناها في محجريهما، وعلا ملامح وجهها غضب خفي.

قال ثروت بك:

– كُل يا حاج كُل.. دا هايل علشانك، خصوصًا الليلة يا عريس.

استاء الحاج، غرس شوكته في آخر قطعة لحم في طبقه، وابتسم لثروت بك. قرَّب الشوكة من فمه، والتهم كتلة اللحم الكبيرة كلها، مرة واحدة، اختفت داخل فمه المطبق عليها، وأخذ الحاج يلوكها بين فكَّيه ببطء، واستمتاع.

- ألف مبروك يا حاج.

قال الأستاذ باهر:

– خير؟

قال ثروت بك ضاحكًا:

– الحاج فتحي عريس الليلة.

ابتسمت نانيس خجلة وساخرة، لم تُباغَت بالخبر ولم تُبالِ.

واصل الحاج طعامه بشهية عظيمة، وتسارعت حركة يده من أطباق الكافيار والإستاكوزا والجمبري وبلح البحر إلى فمه، وتسارع إيقاع الفتيات في استبدال الأطباق الفارغة أمامه بأخرى ممتلئة.

ثانية سأله ثروت بك بخبث:

– إزي الحاجة؟ وإزي صحتها؟

لم تتوقف يدا الحاج عن تقشير الجمبري الجامبو وهو يقول متفاكهًا:

– حية تسعى.

رنت ضحكات كثيرة فوق المائدة العامرة.

قال ثروت:

– طب اشرب يا عريس، اشرب، دا كمان حلو عشانك.

على منضدة ثروت بك، قالت هايدي بنظرة جريئة مقتحمة:

– قُلتِ إيه؟

صامتة كحجر صوان كانت سامية تحملق في وجه هايدي باستغراب ودهشة.

نفد صبر هايدي:

– اخلصي قلتِ إيه؟

تململت سامية في كرسيها غير مصدقة ما تسمع، لكن هايدي لم تتوقف عن الكلام، وهمست في أذنها:

– وفوق البرنامج هدية بسيطة، عقد لؤلؤ فاخر.

تحول وجه سامية إلى جمرة حمراء، أصابها خرس مباغت، وتحت يديها كانت المنضدة قد صارت متسخة تمامًا، ليس فوقها شيء نظيف، تلوث مفرشها الأبيض برماد، وفاضت المنفضة بكعوب سجائر، تركت شفتا هايدي عليها كتلاً وخيوطًا دامية الحمرة.

ولم يتوقف نفث هايدي للسموم، ولا حركة يديها المتوترة، مظهرها كتلة نار لها ألسنة لهب متعددة، ومع كل كلمة يرتفع اللهب إلى مسافة أعلى حتى يكاد يصل إلى سقف العروس، العالي البعيد.

مدت هايدي يدها إلى صدر سامية:

- الله.. حلو قوي العقد الفالصو اللي إنتِ لابساه دا.

وطرقت بكل إصرار تفتت صخرة صلبة بمعول طويل مسنون السلاح.

كانت العلاقة بينهما معقدة أصلاً، عملتا معًا لعدة سنوات، كل منهما لم تكُن تفهم الأخرى تمامًا، ولكنهما واصلتا العمل في إعداد النشرات وتقديمها؛ سامية خلف الكاميرا، تحرر الأخبار وتعدها وتراجعها، وهايدي على الشاشة، تذيع الأخبار على المشاهدين.

- من غير البرنامج دا هتفضلي مغمورة، وفقيرة، والناس بتعلا، وأنتِ واطية.

فاض بسامية الكيل، ولم تستطِع سماع كلمة أخرى.

وقفت يطير من وجهها شرر، وصاحت فيها:

- إيه؟! أنتِ إيه؟

وهمت أن تفتك بها فتك نمرة غاضبة بحيوان بشع غريب أثار نقمتها. قفزت هايدي من مقعدها مبتعدة، وسيجارتها ما زالت مشتعلة في يدها الطويلة الأظافر، الحمراء الطلي. ابتعدت قليلاً، وراحت تحدق فيها من كعب حذائها الأحمر إلى قمة شعر رأسها في احتقار.

غابت سامية في غضبها العارم، وامتدت يدها إلى فازة الورد فقبضت عليها، ورفعتها في الهواء، وكادت تلقي بها في وجه هايدي.

قبل أن تقذف الفازة بلحظة، لمست أعلى ظهرها يد أزهار بنت صِدِّيق أبو وردة:

- أبلة سامية.. أبلة سامية.

هدأ غضبها قليلاً، وجمدت قبضتها على الفازة في يدها.

كان وجه البنت دامعًا، والزهور في سلتها متناثرة، وقد انطفأ لمعانها، ونضب ماؤها.

رجتها وأطرافها ترتعش في هزات متتالية:

– أنا عايزة أخرج من هنا، تعالي معايا.

احتضنتها، وربتت على كتفها.

– مالك؟

سالت دموع البنت غزيرة حتى بللت صدر فستانها.

فزعت سامية مما بالبنت أكثر من غضبها على هايدي، فوضعت الفازة على المنضدة، وقبضت على يد أزهار وهي تكاد تبصق على هايدي. اجتازتها مفسحة لها وللبنت طريقًا، وهرولت في اتجاه الحمَّام.

على بعد خطوات كان مستر أسعد يراقب ما يجري. لم يفُته شيء مما حدث بين سامية وهايدي، ورأى بكاء البنت في حضن سامية، وخمَّن ما قد يكون طلحة قد فعل.

وفي الطابق السفلي، رفع السيد عمر يده، ووضع شوكته وسكينه متقاطعتين في طبقه، فكفَّ الجميع عن الأكل، ووضعوا شوكهم وسكاكينهم، إلا نانيس التي لم تأكل شيئًا، وكانت شوكتها وسكينها نظيفتين، ما زالتا ملفوفتين في قماش أبيض، والحاج فتحي أبو درقة، الذي لا يعرف هذه الحركة ومعناها، تنحنح محرجًا، وكفَّ عن الأكل مجبرًا، وضع شوكته وسكينه خارج طبقه، على مفرش المائدة، وأخرج سواكًا من جيب صديري بدلته، ونظف به أسنانه، ثلاث مرات، وأعاده إلى مكانه، ممتلئًا وسعيدًا.

– الحمد لله.

في الصالة الكبرى، عادت هايدي إلى كرسيها، وأشعلت سيجارة، وراحت تنفث الدخان من حولها كأنها نار خبت وانطفأت.

٨

أمام كشك «آمون»، كان شاهين قاعدًا على الكرسي الواطئ الذي لا ظهر له، وحوله آنية زهور لم تُفرَز بعد، وصِدِّيق في الداخل واقفًا يعد الشاي على بوتاجاز مسطح بعينين: واحدة كبيرة لتسخين حلة الطعام المعتادة كل عصر، وأخرى صغيرة في حجم الجنيه المعدني. وفي ركن الكشك، كانت أسطوانة غاز صفراء تمد خرطومها الأخضر إلى العين الكبرى، وتنفث اللهب تحت براد صاج قديم.

- ورحت زرت الحسين ورجعت؟!
- أيوه.. وقريت لك الفاتحة قدام مقامه، ودعيت لك.

تناول شاهين «خمسينة» الشاي من يد صِدِّيق، ونظر في عينيه مباشرة:

- روح نادي على أزهار.
- ...؟
- الوقت اتأخر يا ابني.

أدار صِدِّيق عينيه في وجه شاهين.

- روح، وأنا قاعد هنا لحد ما تيجي.

رشف صِدِّيق رشفة طويلة من شايه الأسود، كثير السكر، بصوت مسموع:

- حاضر.. أخلص كوباية الشاي.

قال شاهين جادًّا وعابسًا:

- اتحرَّك يا صِدِّيق، الله لا يسيئك.

حطَّ كوبه ممتلئًا إلى ثلثيه إلى جوار قدم شاهين. مسح جوربيه الصوفيين الثقيلين، ووضع قدميه العريضتين في فردتي حذائه الأبيض، طويل الرقبة، وهرول في البهو الواسع فزعًا:

– فيه إيه يا شاهين؟

في الخارج كانت تمطر زخات خفيفة.

أحكم الشال حول رأسه ورقبته، ووضع يديه في جيبي سترته الجلدية، وخرج إلى شارع مصطفى كامل. مشى خطوات حتى صار على الناصية، ودار إلى شارع قصر النيل، ووقف أمام باب العروس.

يعرف أن الكاميرا الكبرى مسلطة عليه الآن.

رفع يده في مستوى صدره وجسَّد طول ابنته، ليراه الهراوي على كرسيه. كتب حروف اسمها على الهواء ناطقًا بها ممطوطة:

– أز.. هاااار.. أزهار.

«يا رب تفهم».

تنحى عن مواجهة الباب إلى الجانب الأيمن، وارتكن إلى الحائط متقيًا المطر الذي اشتد قليلاً. عقد يديه على صدره ورفع رأسه إلى السماء بوجه حائر، وانتظر صابرًا، وقلق وتوجس يسريان في أوصاله.

بعد دقائق مرت عليه كدهر، فُتِح باب العروس، وخرجت أزهار بسلَّة فارغة وعينين حزينتين تحبسان دموعًا حارقة، واصطكت خلفها ضلفتا الباب منغلقتين.

تلفتت حولها تبحث عنه في كل اتجاه.

بلطف أمسك يدها التي تحمل السلة الفارغة، ووضع يده الأخرى على كتفها. ضمها إليه ونظر في عينيها يتساءل عمَّا بها. أخفضت رأسها، ونظرت تحت قدميها، إلى بركة صغيرة كونها المطر.

كانت منحنية تحدق في الماء الأسود، وتهرب من عينيه ساكتة. بعد برهة رفعت رأسها إليه، وابتسمت بصفاء حزين، ولم تقُل له شيئًا كما وعدت الأستاذة سامية.

أخرجت كل النقود من جيوب فستانها، ومدتها إليه:

- بعت كل الورد.

ترك النقود في يدها، وربت على كتفها:

- شاطرة يا أزهار.

أحاطها بذراعيه وضمها إليه، ومال على شعرها، الذي بلله المطر، يقبل خصلة منه.

قبل أن يصلا إليه، راق وجه شاهين، رفع كوب شايه الثقيل الذي برد إلى شفتيه، وشرب رشفته الأولى ببطء، وبلا صوت.

وضع الكوب إلى جوار قدمه، ورفع وجهه إلى أزهار وابتسم، وأخرج من سيَّالة جلبابه كيسًا صغيرًا:

- خدي يا أزهار.

تهلل وجهها:

- حمص وحلاوة!

- من سيدنا الحسين.

في داخل العروس، كانت سامية غاضبة، تكاد تنفجر من الغيظ وقد لمحت ظهر زوجها في الممر. «هايدي.. السافلة.. السافلة، والبيه واقف قدام باب الرقاصة»!

قامت من جلستها، وهرولت نحوه.

قال خالد:

- مش حلو بس، دا بديع، بديع جدًّا.

فرحت سماهر كطفلة حازت جوهرة مسحورة.

شبَّت على أطراف أصابعها، ومالت عليه، وطبعت قبلة رقيقة على خده:

- الله يجبر بخاطرك يا أستاذ خالد.

وتباعدت عنه خجلة.

رأت سامية كل شيء فلم تتمالك نفسها أكثر، واندفعت نحوهما كعاصفة.

صرخت فيهما:

- إيه؟ إيه القرف دا؟!

هبط الخرس على خالد فتسمر في مكانه، وتراجعت سماهر، وأسندت ظهرها إلى باب الغرفة خلفها مذعورة. لم تُطِق ألسنة النار التي ترسلها سامية من فمها مع كلماتها القاسية، أحست بها تلسع وجهها، وتحرق العباءة السوداء التي ارتدتها فوق آخر بدلة رقصت بها. استدارت، وشدت أكرة الباب إلى أسفل. دخلت، وأغلقت الباب خلفها، دون ضجة.

سكتت سامية ونظرت في عينيه بتحدي مصارع.

حوَّل عينيه عنها، وراغ منها، ورفع رأسه إلى السقف.

من عينيها سقط، وتحول إلى مجرم منحط:

- بتخوني؟

- ...

- ومع بنت من عمر ولادك؟!

لم يعرف هل يضحك أم يبكي أم ينفجر فيها كبركان خامد منذ سنين، آن له أن ينفجر أخيرًا.

- أنت إيه؟! معندكش دم.

رفع يده عليها، وقبل أن تهبط على خدها صاح فيها:

- أنتِ إيه اللي جابِك أصلاً؟! جاية تعملي إيه؟
- جاية أشوف فضيحتك.

قبض على ساعدها الأيمن ككلابة حديدية، وضغط عليه، وبيده الأخرى طرق باب سماهر. فتحت له بعد تردد قصير، ولم يزُل خوفها بعد. دفع سامية إلى الداخل، وبقي الثلاثة هناك، خلف الباب المغلق.

وكان مطر لا يزال ينتظر أن تفرغ نانيس من العشاء، وتأتي إليه ليخرجان من هنا إلى أي مكان آخر، المهم أن يبقيا معًا الساعة الآتية، ساعتين، ثلاثة، كل الوقت القادم، ولم يعُد يفكر، الآن، في أمه التي تنتظره في نزلة السمان، العجوز الوحيدة التي لا تروح في النوم قبل أن تسمع خطوات دخوله البيت، مع الفجر.

زاد قلقه حين أقبلت نانيس نحوه بوجه ممتقع مفزوع.

مال عليها. قالت تجاوب نظرة عينيه التي تسأل عمّا حدث:

- أكلوها.. أكلوها كلها، وشربوا دمها!
- أكلوا إيه؟

لم تُجِب، وقالت إنها لا تريد سوى أن يختفيا من هنا، لا تريد أن تهبط إلى الطابق الأرضي مرة أخرى، ولا ترغب في حضور الاجتماع، وإنها لم تعُد تطيق النظر إلى وجوههم، وكررت كلامها ذاهلة:

- دبحوها وشربوا دمها.

وأراحت رأسها على كتفه، وكادت تبكي.

ربت على ظهرها بلطف:

- في كل الأحوال، ومهما كانت الأسباب، لازم تحضري الاجتماع، مش هينفع ما تكونيش موجودة.

- طيب.

قامت وذهبت إلى الحمام. وقفت أمام الحوض الأوسط ذي المرآة الأكبر، وغسلت وجهها، ونظرت إلى نفسها في المرآة فرأتها تبتسم بلا كدر.

راق مزاجها قليلاً، وضعت بعض الأحمر الوردي الخفيف على خديها، وعادت إلى مطر فقبلت خده:

- استنَّاني، اوعى تمشي.

وخطت نحو الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي ومطر يحدق في ظهرها، ويقرض بأسنانه ظفر إبهامه الطويل.

على رأس طاولة الاجتماعات، كان السيد عمر في كامل هيبته، عن يمينه باهر العقدة، وعن يساره أسعد لطيف يقلب في أوراقه ومستنداته.

أومأ السيد برأسه فبدأ مستر أسعد تلاوة ميزانية العام المنصرم: المصروفات، الإيرادات، الأصول، والتكاليف.

كان يقرأ بسرعة، وبنبرة صارمة، ونانيس الجالسة إلى جواره تسترق النظر إلى أوراقه ويديه. اضطرب قليلاً حين أحس بمراقبتها له وتلعثم، لكنه واصل حتى انتهى من تلاوة كل أوراقه.

ران صمت طويل حتى قطعه صوت نانيس الحزين:

- كلنا خسرانين السنة دي!

تجاهل السيد عمر عبارتها، وطاف ببصره يفحص وجوههم، الواحد بعد الآخر، كأنه ينفذ إلى أعماقهم الخفية.

على الطرف المقابل من الطاولة، احتج الحاج فتحي بلا تهيُّب:

- هو كل سنة؟!

قالت الدكتورة نانيس:

- نزيف خساير دايم يا عمر بيه.

رد ثروت بك:

- الحكاية محتاجة استغلال أمثل لموارد العروس، ورفع الأسعار، وتقليص العمالة.

اتجهت الأبصار إلى السيد عمر، وفُتِحت الآذان عن آخرها تترقب كلماته، لكنه بقي صامتًا، ككرسيه.

قال مستر أسعد:

- لولا الدعم اللي قدمه الحاج مرزوق، ربنا يطول عمره ويدِّي له الصحة، ولولا عبقرية السيد عمر وحكمته، لأُغلِقت العروس نهائيًّا.

حملق في وجوههم، وقال بحدة:

- كانت قفلت وجابت ضلفها.

وأغلق حافظة الميزانية.

بإصبع وسطى يده اليمنى، نقر السيد عمر على الطاولة نقرة واحدة:

- نعدي الميزانية خلاص. فيه اللي أهم. اتفضل يا أستاذ باهر.

قرأ الأستاذ باهر وثيقة تفويض السيد عمر برئاسة مجلس الإدارة، ورفعها إلى أعلى، ممهورة بتوقيع الحاج مرزوق عشم الله، وبخاتمه.

ابتسم ثروت بك مسرورًا:

- مبروك يا عمر بيه، مبروك علينا سيادتك.

انقلب وجه الحاج فتحي، ونشف ريقه فجأة.

عندما التقت عيناه بعيني السيد عمر نطق:

- خير ما فعل الحاج مرزوق، ربنا يدِّي له الصحة وطولة العمر، مبروك يا عمر بيه.

- الوثيقة التانية يا أستاذ باهر.

فتح الأستاذ باهر حافظة الوثيقة، وتنحنح قبل أن يقول:

- التوزيع الجديد للأسهم ...

تكهرب كل شيء في المكتب، الحوائط والسقف، وخشب الطاولة تحت أيدي الملَّاك الذين يترقبون مصيرهم. ماذا سيكون لهم من أسهم؟ هل سيربحون أم سيخسرون؟ ماذا فعل بهم الحاج مرزوق عشم الله؟ ما النصيب الذي قرره لكلٍّ منهم؟

بدأ الأستاذ باهر بالسيد عمر، فأعلن امتلاكه لنصف الأسهم زائد واحد:

- واحد وخمسين بالمئة من كل أسهم العروس.

بلع ثروت بك ريقه، وقال وهو يعني عكس كل كلمة تمامًا:

- يا ... يا دوب كدا.

حط وجوم على وجه الدكتورة نانيس، وطفح تذمرها.

قرأ باهر عدد أسهم الحاج «أبو درقة»:

- وفقًا لما قرره الحاج مرزوق فقد صار الحاج فتحي أبو درقة يملك من الأسهم في العروس ..

وسكت برهة، ثم قال بصوت محايد كمن يذيع نتيجة مباراة لا يعنيه منها شيئًا:

- صفر.. وآلت كل الأسهم إلى ملَّاك العروس الآخرين، وتم تقسيمها وفقًا لرغبة الحاج مرزوق عشم الله، ومشيئته.

انتفض الحاج فتحي واقفًا، وصرخ صرخة مريعة:

- إيييييييييييه؟ إيييييييييييه؟!

رددت الحوائط، والسقف الداني فوق الرؤوس، صدى صرخته.

زعق فيه عمر بك آمرًا:

- اقعد مكانك.

لم يجلس وازداد هياجه.

نظر السيد عمر إلى أسعد لطيف فتحرك نحوه، وقال بهدوء:

- اقعد يا حاج فتحي.. هدِّي نفسك.
- أقعد؟ أقعد إيه؟! بتاكلوني يا أسعد!
- هاه؟! طب اتفضل بره، دا اجتماع لملَّاك العروس، وأنت ما بقيتش منهم خلاص.

صار وجه الحاج جمرة متقدة، وارتفعت يداه وهبطت كأنه يزيح من أمامه أعداء تكالبوا لقتله، وراح يشتم، ويسب ويلعن ويهدد، ويتوعدهم جميعًا بمصير وبال في الدنيا والآخرة، و..

خلع السيد عمر عبد الظاهر نظارته ووضعها في جيب سترته الداخلي، فظهر له وجه آخر، بارز العظام بعينين ضيقتين كخرزتين حمراوين، وضع قبضتي يديه على الطاولة متباعدتين، مثل نمر يراقب تمساحًا، وانتظر بصبر.

- كلكم كلاب، كلكم.

تناثرت من فم الحاج مع كلماته المتدافعة زخات من بصاق ورذاذ، طار بعضها في الهواء، واستقر بعضها على أطراف الطاولة، أمام وجوه الجميع.

كانوا صامتين، على رؤوسهم الطير.

- خونة.. خونة.

شد السيد عمر أصابع قبضتيه فصارتا ككتلتين من حديد مصمت.

انحنى أسعد لطيف بوجه ممسوح، كأنه حائط مستوٍ لا لون له، على الحاج فتحي، وحدق فيه بوجه مخيف:

- اخرس.

وجه الحاج كلامه إلى السيد عمر:

- أنت مزور، حرامي، ونصاب.. وأسهمي محدِّش هيسرقها قدام عيني، ومكاني محدِّش هياخده وأنا حي.

بهدوء قام السيد عمر عبد الظاهر من مقعده، بوجه من زجاج سميك، اقترب من الحاج ومال قليلاً، مد يديه الطويلتين، وفي لحظة كما يمرق شهاب، دفع الحاج بكل قوته. انقلب المقعد إلى الخلف، وارتطم بخشب الأرضية بقرقعة هادرة.

تألم الحاج بآهات مريعة وهو ينقلب على ظهره في مقعده، وتسارع تنفسه، واضطربت نبضات قلبه، ولم يعُد يُسمَع منه سوى صوت لقفه للهواء.

شهقت الدكتورة نانيس مفزوعة، واتنتر الجالسون من مقاعدهم مذهولين، وراحوا يحدقون في جسد الحاج فتحي المقلوب، يكذبون ما وقع في لحظة خاطفة.

قال ثروت بك:

- لسه فيه النفس.

تحرك السيد عمر مبتعدًا عن رأس الحاج فتحي، ومسح وجوههم جميعًا بنظرات قاسية، وقال بصوت كتيم، كرعد يتردد فوق جبل:

- إحنا هنا مش قرايب ولا أصحاب، نحن شركاء يملكون مطعمًا فاخرًا، وينتظرون زبائن، وعلينا أن نتبع هذه القاعدة. وأنا هنا، كما كنت من قبل رئيس مجلس الإدارة، ومعي كل الصلاحيات القانونية والمالية، ومش مسموح لحد يتهمني ويشتمني.

سكت للحظات ثم أردف:

- اللي مش عاجبه منكم ألف مين يشتري أسهمه، وأنا جاهز، والحاج مرزوق معايا، اللي مش عاجبه يتفضل بره، باب العروس يفوت جمل.

وبهدوء تحرك إلى المشجب القديم ليرتدي معطفه الرمادي، وكوفيته.

وقعت عيناه على عصا معلقة تحت المرآة تمامًا، عصا أبنوس قصيرة، فبدت له جميلة للغاية. «كيف لم أرَها من قبل»؟

كانت العصا موجودة هنا دومًا، أمامه وتحت عينيه، لكنه لم ينتبه إليها، ولم يسأل يومًا: «ملك من هذه العصا الساحرة؟ ربما يدل هذا الذوق الرفيع على الحاج مرزوق عشم الله. ولكن الحاج لم يجلس في هذا المكتب يومًا، لم يجلس على هذا الكرسي ولو لساعة واحدة. من الذي أتى بها إلى مكتبي»؟

لبس معطفه ووضع كوفيته الحمراء حول رقبته، وأمسك العصا وتأملها بين يديه. كانت لامعة بلا ذرة غبار، وناعمة جدًّا حين أجرى راحة يده عليها. هَمهَم وهو يضعها تحت إبطه يجربها، ثم نظر إلى نفسه في المرآة. اطمأن إلى مظهره الأنيق بها وحضورها الجميل معه. رفعها في الهواء كأنها عصا مايسترو يقود الأنغام، ومشى بخطوات مختالة في اتجاه الباب الذي فتحه له أسعد لطيف، وخرج.

كان الحاج فتحي لا يزال ممددًا على ظهره في كرسيه المقلوب، كجثة. قرفص أسعد لطيف على ركبتيه:

- يا حول الله.. قوم يا حاج قوم.

ومد يديه إليه يساعده على الخروج بجسده المحشور بالمقعد.

- سلامتك يا حاج.

اقترب منهما ثروت بك ومد يديه، يساعد.

بين أيدي ثروت وأسعد، قام الحاج فتحي ينفض ترابًا وهميًّا عن عباءته، وتلفت حوله بعينين زائغتين، كسيرًا مخذولًا، كأنه شهد الموت وراءه، ثم رُدَّت إليه الحياة.

قال ثروت بك:

– عيب اللي عملته دا.

وقال له أسعد:

– متجرأ قوي بالبودي جارد اللي جايبهم معاك؟!

لم يسمع ما قالا، كان ذاهلاً وغائبًا ينكر ما حدث له، أسهمه لم تضِع، مقعده في «العروس» لم يُمَس، السيد عمر لم يدفعه في صدره، لم يُطِح بجسده، لم يُلقِه على الأرض، لم يطرحه أرضًا، ولم يتمدد مثل جثة أمام بصر هؤلاء الرجال وهذه المرأة، لم يحدث شيء من هذا كله، ما حدث مجرد كابوس، وسينقضي بمجرد أن يعود إلى بيته في جاردن سيتي، ويدخل بعروسه، ويدخل الدنيا من جديد.

بخطوات واثقة، كان السيد عمر يخطو إلى الدرج، وتحت إبطه عصاه الجديدة. صعد السلالم القليلة وفتح بابه الخاص وخرج إلى بهو العمارة الخلفي، وكان صِدِّيق أبو وردة ما زال جالسًا في مكانه على كرسيه الذي بلا ظهر، يفرز صحبة جديدة من ورود وأزهار، ويكلم شاهين الواقف عن يمينه.

وداخل الكشك، كانت أزهار تواصل تغليف وردات مفردة بأفرخ من ورق شفاف.

رفع أبو وردة رأسه نحو شاهين، وقال كأنه يخاطب الهواء:

– أبدًا.. آدي اللي حصل، وقلت له بالسلامة يا باشا.

مرَّ السيد عمر بهدوء ووقار، وعبرهم كأنه لم يرَهم، ولم يسمع لهم صوتًا.

حدقت عيون صِدِّيق أبو وردة وشاهين في العصا الجديدة المرفوعة في يد السيد، وتبادلا نظرات، ثم انتقلت نظراتهما إلى داخل الكشك، إلى أزهار التي رفعت وجهها نحوهما، وابتسمت وقالت ببراءة:

– وشك حلو يا عم شاهين.

- ...؟
- بعت كتير الليلة.

في شارع مصطفى كامل، كانت سيارة بيضاء، فارهة وعريضة وعالية تقف منتظرة، والسيد عمر لم يكُن ينتظر أن يرى وجه سائقها وهو في طريقه إلى سيارته الخاصة.

خرج الحاج فتحي أبو درقة من مكتب السيد عمر، وكانت طاولة العشاء قد نُظِّفت، ورُفِع كل ما كان عليها، ورُصَّت فوقها كؤوس وزجاجات شامبانيا، ونبيذ وويسكي، وأُعِدَّت لشراب ابتهاج أخير.

اقترب الحاج وأمسك بأكبر زجاجة طالتها يداه.

خرج الذين كانوا مجتمعين، ورأوا الحاج واقفًا وبيده الزجاجة، فسكنوا في أماكنهم دون حراك. رفع الحاج وجهه إليهم ونظر إليهم غاضبًا، ساخطًا، طوح يديه وقذف الزجاجة إلى أعلى، ارتطمت فوهة الزجاجة بالسقف الواطئ، وانفجرت بدوي، وتناثرت شظاياها في كل اتجاه.

تراجع ثروت بك إلى الخلف، وسحب معه الدكتورة نانيس، ولم يتحرك مستر أسعد، والأستاذ باهر.

مرة أخرى التقط الحاج فتحي زجاجة كبرى، وقذفها إلى أعلى بأقوى ما يستطيع، ارتطمت بالسقف وانفجرت، وتناثرت شظاياها في كل اتجاه.

وبعد لحظات، غاص كل شيء في صمت تام.

٩

كان مطر ينتظر بصبر مديد وقد تلاشت الموسيقى، وتوقف رقص رواد العروس. صفقوا للفرقة، وعادوا إلى مقاعدهم، وخلا المسرح الصغير، فتعلقت عيناه بأهل مهنة نانيس الذين انتهوا من عزف اللحن الراقص الأخير.

كانوا يحتضنون آلاتهم بأيدٍ حانية، يربتون على أخشابها ومعادنها برقَّة كأنهم يمسُّون أكتاف حسناوات، وخشية أن تُخدَش أجسامها وأوتارها يمددونها بحرص في حقائبها، ويشدون السحَّابات الطويلة فتأز الأسنان المتقابلة، كأنها لفساتين سهرة.

أغلق الموسيقيون حقائبهم على كنوزهم الثمينة، وأخفوها عن العيون كأنهم يخفون عرائس ساحرة يجب سترها وراء حُجب مصمتة، بعد أن فتنت الجميع. حملوا حقائبهم على صدورهم، وعلقوها على أكتافهم وظهورهم، وانحنوا مبتسمين تحيةً للجميع، وغادروا المسرح تاركين الخشبة في ضوء خافت، وكان النحات يحدق في المساحة الفارغة التي خلفوها وراءهم.

ذات مرة نحت إبراهيم مطر تمثالاً لعازف ناي من بازلت أسود، نال جائزة كبرى، ونُصِب في حديقة دار الأوبرا.

ابتسم وهو يتذكر كم أعجب هذا التمثال أمه.

«لم تنَم أمي بعد».

كان الصخب يتبدد، والزحام يخف، والمقاعد تخلو، عندما انفرج باب سماهر، وخرجت سامية بوجه أسيان، تُغالب دموعًا عنيدة، غير مقتنعة بشيء مما سمعت، وظهر خلفها خالد متوترًا قلقًا.

في غرفة الراقصة، سكتت وأنصتت إليهما منتبهة إلى كل كلمة، وتركتهما يشرحان. قال خالد إنه كان في صحبة مطر حين شاهد سماهر ترقص في ملهى البلبل، بعدها بأيام اقترح مطر على أسعد لطيف أن يأتي بها للرقص في الاحتفال بليلة رأس السنة. ولأن مطر كان مسافرًا، صار خالد هو حلقة الوصل بين إدارة العروس والفنانة الشابة.

«أيُّ عيب في هذا»؟!

ومطر يعرف عن سماهر أكثر مما يعلم خالد؛ لأنها تقطن في عزبة سُوبِك، قريبًا من نزلة السمان حيث يقيم، وكثيرًا ما رآها ترقص في أفراح كبار النزلة.

«آه والله يا مدام سامية».

سامية لم تُعنِّف البنت التي رأتها غريرة، ساذجة، ولا تعرف الرجال جيدًا.

«صغيرة، وتحب الرقص، ولا تعرف ما يمكن أن يجلبه عليها رقصها في الملاهي، وهنا في العروس! وحتى لو كان خالد ليس أكثر من أخ أكبر عند هذه البنت التي تقول إنها غلبانة، وليس في قلبها نحوه سوى هذه المعزَّة البريئة، حتى لو لم يكُن أكثر من شخص معجب بفنها يحاول مساعدتها، وإن كانت هذه هي الحقيقة العارية، فإن ما بيننا لم يُسوَّ بعد، لم ينتهِ الحساب، ولا حققتُ أي شيء مما جئت إلى العروس من أجله.. يا أستاذ خالد».

أخذها من ذراعها وعبر بها طاولات خالية:

- فهمتِ؟ فهمتِ؟

نزعت ذراعها من يده بعصبية، فتقدمها إلى حيث مطر، الذي هش لهما وأشار إلى المقعدين.

جلس خالد عن يمينه، وترددت سامية للحظات، ثم جلست عن يساره:

- دكتورة نانيس راحت فين؟

قال مطر:

- نانيس لسه تحت.

سألت سامية:

- تحت؟! تحت فين؟

- في الاجتماع.

- اجتماع إيه؟

قال خالد:

- اجتماع مجلس الإدارة.

وسألها مطر باسمًا، وهو يتأمل وجهها لأول مرة عن قرب:

- إنتِ من السيدة زينب؟

قالت وقد انفرجت أساريرها قليلاً لذكر السيدة:

- آه.

وقد شملته غبطة هتف:

- السيدة! السيدة زينب.. حيث تتجاور بيتزا الحرية، وألبان العبد، ومسمط الشعب!

ضحكت:

- بل حيث السيدة أم هاشم، الست الغفيرة.

- الغفيرة؟!

- الغفيرة، والمشيرة ورئيسة الدواوين.. إيه؟ ما تعرفش؟! دا حتى أمي تعرف!

انبسط مطر:

- صح!

قال خالد ساخرًا:

- أومَّال نقلنا ليه؟! سِبتِ السيدة ليه؟ عزِّلنا ليه بالظبط؟!

قالت جادة:

- دا موضوع تاني.

وسألت مطر:

- وإنت منين؟
- لا.. أنا الحمد لله من نزلة السمان، مولود وعايش هناك.

وضحك.

قام مطر وهو يقول إنه سيخرج ليشم الهواء قليلاً ويعود. يجب أن يبقى إلى أن تفرغ نانيس من الاجتماع.

وقبل أن يمضي، قال كأنه نسي إخبارها بشيء مهم:

- خالد بيحبك.
- ...؟
- حب حقيقي.
- إيه؟!
- بيحبك حب عميق.. عميق جدًّا، من كل قلبه.

ونقل نظره من وجهها إلى وجه خالد:

- والحب يغير كل شيء.

وضع يديه الكبيرتين في جيبيه، وسار في اتجاه باب الخروج على شارع قصر النيل.

تلاقت نظراتهما في عتاب.

لم تصفُ سامية، ولم تُرِد أن تكدر ما بينهما أكثر، لكنها تذكرت ما وقع من هايدي. يجب أن تقول له كل ما حدث، وتخبره بعرضها البغيض، والقذارة المُقترَحة، ومقاصدها السافلة.

من طيلة عشرته معها تعلَّم أن يصمت، ويتركها تشكو كما يحلو لها، لكنها هي أيضًا تعلمت السكوت والابتعاد عنه، وكانت الحياة في بيتهما قد تحولت إلى زورق صغير على صفحة بحر صاخب الأمواج، يجدف هو إلى الأمام، فتجدف هي إلى الخلف، تتجه هي إلى اليمين فيتحرك هو نحو اليسار، وفي خن القارب ولد وبنت يتأرجحان يمينًا ويسارًا، باكيين، خائفين.

كم مرة كان قاربهما الهش يهتز، يقرقع ويصارع الأمواج، يخبط بعضه في بعضه حتى صار على وشك التفكك والغرق؟

كست المرارة وجهه، وهي صامتة تحدق فيه بتحدٍّ.

كم مرة قالت إنها ليست متحققة معه، ليست سعيدة، كم مرة قالت له لا أريدك، كم من ليالٍ طويلة ذهبت ونامت في حجرة ندى، كم مرة صرخت في وجهه: «نام لوحدك، كُل نفسك».

كانا يتبادلان النظرات في صمت كئيب، وأخيرًا نطقت بشيء.

قالت بتهكم مريع:

– بترقص حلو قوي البنت دي.

«هل جاءت إلى هنا لتتفرج على الراقصة وتبدي إعجابها بها»؟!

هزَّ رأسه موافقًا:

– بترقص حلو قوي، أحلى من رقصك!

مد يده وأمسك بمعصمها، وحدق في عينيها.

اضطربت قليلاً:

– سيب إيدي!

ترك يدها بعد لحظات طويلة.

- طب قومي.
- أقوم ليه؟!

وقف، ووضع يده على كتفها برقة.

- تعالي معايا.. نرجع لها تاني.. نخلي البنت تحلف على المصحف! على الإنجيل، على التوراة، على زرادشت!

نفد صبره، وتعب.

ابتسمت رغمًا عنها:

- زرادشت!
- أعمل لك إيه؟ أعمل في نفسي إيه؟!

سكتت، ووضعت رأسها بين يديها.

عاد فجلس.

«لن تفهمي أبدًا أنني كنت أتحدث ببراءة، وعن الرقص، وليس عن شخص الراقصة. الجمال له سلطان منفصل عن صانعه، وحتى لو وقعنا في محبة الجمال وصانعه فليس في ذلك عنصر فردي، شخصي، ولا يعني أن أتركك، وأن أذهب إلى امرأة أخرى. الغيرة تجعلكِ قبيحة، دميمة جدًّا، وشرسة، تحول أظافركِ إلى مخالب، وأسنانكِ إلى أنياب وحش جائع. سخطكِ يعميك يا سامية، وحقدكِ مدمر وهدَّام، أنتِ تقتلين رجلكِ المحب، الذي عشقكِ وأخلص لكِ سنوات طويلة.. آه.. أما آن لكِ أن تهدئي يا نمرتي الشرسة»؟!

لم تهدأ، ولم تفهم، فقط سخرت:

- هه! فيلم عجيب، مدهش.
- فيلم إيه؟!
- الفيلم اللي عملتوه عليَّ إنت والبنت الرقاصة!

زفر من أعماقه غاضبًا:

- يووووووووووه! تاني؟!

الجحيم الذي تعيش فيه جحيم امرأة شكاكة، ليست متأكدة أن رجلها ذهب إلى سرير امرأة أخرى، ومارس الغرام معها، لكنها على يقين أنه سيفعل، إن لم يكُن الليلة فغدًا. كانت خائفة من وقوع الزلزال في أية لحظة، ينتابها جنون مريع كلما تملكتها فكرة وجود امرأة يمكنها أن تجتذب إليها رجلها الخاص، ذكرها، فتصير بوجه محتقن أحمر وجسد صلب كصخرة.

هل تقوم وتصيح في وجهه الآن: «أنا تعبت.. طلقني طلقني!» لترى هل يطلقها أم لا؟ هل تطلقها في وجهه الآن؟!

رفعت وجهها إليه وراحت تنثر شكوكها ومخاوفها.

- أنا خايفة تسيبني، خايفة و...

لم يكُن ينصت إليها، كان ما يسمعه، ما يعبر من أذنيه إلى مؤخرة دماغه، كلام آخر رددته عشرات المرات من قبل، كلام غير هذا الكلام.

من الماضي، كان يتردد في أذنيه صوت سامية المتطلب الساخط:

- أنا عايزة فلوس، فلوس أكتر، إحنا معندناش حاجات كتير، إحنا ناقصنا حاجات كتير، الفلوس خلصت، أنا بدبَّق من كل حتة والفلوس بتطير في الهواء، إنت ما عملتليش حاجة، ولا عملت للعيال حاجة، إنت واقف في مكانك، ما بتعملش حاجة، إحنا ما بنتقدمش، وأنا تعبانة، بروح الشغل، وبغسل وأنشر وأذاكر للعيال وأمسح البلاط وأنضف وساختك ومش واخدة حاجة.. أنا تعبانة، أنا مش متحققة معاك، أحلامي راحت فين؟! أنا ما بصحاش من النوم غير عشان ندى وكريم، ريَّحني وطلقني يا خالد، طلقني.

كان محبطًا ومصدومًا وتعيسًا حين سألته:

- ساكت ليه؟! هتسيبني؟! رُدّ عليَّ، مش بمزاجك تسكت وقت ما تحب،

وتتكلم وقت ما تحب!

سألها شاردًا:

- إيه؟!

- بقول لك هات مفتاح الشقة.

سكت.

انتظرت ثواني قليلة.

أفاق من سرحانه وكلام دماغه.

تنهدت، ووقفت وهي تعلنه ساخطة:

- طب أنا ماشية، راجعة بيت بابا.

انتبه بكل جوارحه:

- بيت أبوكِ؟! ما كنتِ هناك بقى لِك شهر!

رمقته بغضب:

- إنت السبب!

«أنا؟! أنا السبب في كل شيء، سبب كل هذا الخراب»!

لليالٍ طويلة ناما متجاورين، ومتباعدين، جسدان يحترقان ببطء، وذهنان في جحيم، ترتع فيهما أفكار سوداء، تفكر هي بموته، ويفكر هو بخلاصه منها ولو قتلته.

قال:

- ماشي.. جيتِ ليه؟

- ليه؟! جيت عشان آخد مفتاح بيتي، دا بيتي وبيت ندى وكريم.. وإنت شوف لك حتة تانية تلمَّك.

أخرج من جيبه مفتاحًا من الفضة، على شكل مفتاح الحياة المصري القديم، مفتاح «عنخ»، ونظر إليها حزينًا، فكادت تصعقه نظرة الحقد التي ملأت عينيها.

- ابقى تعالى خد هدومك، وابقى شوف مين هيغسلها لك!

وبدأت الدموع تترقرق في عينيها.

- هات بقى.
- ...

تفرس فيها يحاول أن يفهم ما في أعماق هذه المرأة المتناقضة، التي استعصى عليه فهمها عشر سنوات.

رفع المفتاح في الهواء.

نظرت إلى المفتاح في يده، وقالت في نفسها: «ليس لي حياة من دونك، من غيرك أموت يا خالد». لكنها لم تقُل شيئًا، لم تقُل إنها تحبه قط، فقط قالت في مرات نادرة: «لا أستطيع أن أتركك وحيدًا، لا أستطيع أن أحيا من دونك».

هدأت قليلًا:

- هات المفتاح بقول لك!
- مفتاح إيه؟
- مفتاح شقتنا يا خالد.
- طيب.. رايحة فين دلوقتي؟
- ملكش دعوة، إنت مالك؟!

مدَّ المفتاح وأبقاه في يده، فمدت أصابعها إلى طرفه ولمسته. نظر في عينيها، ولاحت على وجهه ابتسامة لا تكاد تبين. شدت المفتاح إليها فتشبث بطرفه الآخر، وكادت أنامله تلمس أصابعها.

- سيبه!

باعد ما بين أصابعه، وكان المفتاح الفضي على راحة يده يلمع. مدت أصابعها وحاولت التقاطه حريصة على ألا تمس بطن يده. ابتسم ملاعبًا إياها، وضم قبضته عليه:

- ما قلتلِيش يا حبيبي!

استاءت من حركته:

- إيه؟ حبيبي؟!
- قولي لي سيب المفتاح يا حبيبي.
- نعم؟! سيب المفتاح يا خالد، عايزة ألحق أروَّح قبل المطر ما يزيد، ويملا الدنيا طين.
- طين؟!

فتح قبضته وترك لها المفتاح.

- طيب.. أنا رايح أشوف شغلي.

وقام يملؤه اليأس منها، يريد لو يتلاشى مثل دخان، قال لنفسه وهو يعطيها ظهره: «نسوان.. نسوان»!

بدا له أن قلب سامية لا يشعر إلا بالحاجة، بالغيرة، بالحقد على من وصلوا إلى المكان الآخر، هناك، حيث المال والراحة. مئة مرة رأى قلبها بلا موضع له فيه، ولا لأي شخص آخر. إنها مستغرقة في حلم الوصول إلى المحطة التي تريدها، ولا تعرف ألا وجود لمثل هذه المحطة إلا في خيالها. لا توجد محطة في أي مكان، في أي اتجاه. إنها موجودة في المحطة التي تريدها، لكنها لا تدري! إنها في محطة الوصول فعلاً!

إنها لا تفهم أنها هُرِعت إلى القطار الذي لا رقم له ولا اتجاه محدد سينطلق إليه، لحقته وجلست تعيسة، حزينة، معدومة الطاقة، تنتظر أن تصل، والقطار متهالك وقديم، وسائقه غشيم!

«سائقه هو أنا، أنا السائق المنصت لكلام الراكبة التي تريد الوصول إلى محطتها بسرعة الضوء، وتصيح كل دقيقة: أسرع، أسرع أكثر، أنا خائفة، أنا تعيسة، أنا تعبانة، أنا زهقانة.. أسرع حتى أصل وأرتاح»!

صار المفتاح في راحة يدها. تأملته بسرور وضمت راحتها عليه دون أن تنظر نظرة امتنان إلى ظهر زوجها. وقفت وهرولت إلى باب الخروج دون أن تخبره إن كانت ستذهب إلى حدائق الأهرام أم ستعود إلى بيت أبيها في السيدة.

خرجت وهي محبطة، لم تستطِع أن تروض حصانها البري الآبق.

كم هو جامح وبعيد عن يديها! حر من لجامها وطليق بالرغم من الولد والبنت، وجمالها، وفتنتها في الفراش.

خرجت وقد نسيت تمامًا طرحتها على حامل المعاطف إلى جوار مكتب الهراوي العالي، واجتازت الباب الذي عبره مطر قبلها.

بعد لحظات، كان خالد يهرول خلفها، تابعها بنظره حتى ركبت سيارتها.

على بعد خطوات منه، وجد مطر يدخن. وقف معه، وكان المطر رذاذًا خفيفًا، فاحتميا بالطوار تحت بلكونات عمارة العروس.

خطا خالد نحو الممر الخلفي ونادى:

- شاهين.. شاهين.

وطلب من مطر مفتاح سيارته، فأعطاه له دون أن يسأله لماذا. أخذه خالد بامتنان، ومده إلى شاهين الذي حضر سريعًا كأنه كان ينتظر نداءه. تساءل وجه شاهين عمّا يريد.

رجا خالد «شاهين» أن يتبع سامية بسيارة مطر ليعرف إلى أين تمضي، إلى الأهرام أم إلى السيدة. أومأ شاهين برأسه فاهمًا، والتقط مفتاح السيارة، وذهب إلى حيث مكانها بالجراج القريب.

عاد الصديقان إلى العروس، ودخلا إلى الصالة الكبرى. جلس مطر إلى منضدة نانيس بقلب مثقل، وبدأ يفكر في أمه التي تنتظره بالبيت، وذهب خالد إلى المطبخ.

وكانت سامية تقود سيارتها في اتجاه ميدان طلعت حرب، تعاند دموعها العصية، وتبقيها في ظلامها، ولم تلحظ تلك السيارة الحمراء العالية، التي تتبعها عن بعد، وخلف عجلة قيادتها كان شاهين العجوز.

«لا تجعلها تغيب عن عينيك يا شاهين، لا تجعلها تمضي في الليل وحدها».

وفي شارع مصطفى كامل، كانت سيارة السيد عمر السوداء، ذات الستائر المسدلة، والزجاج الرصاصي الذي لا يكشف من خلفه شيئًا، تنتظره بمحاذاة الرصيف. ما إن لمحه سائقه «حسن صبرة» حتى سحب يديه من فوق عجلة القيادة، وخرج من السيارة في بدلته السوداء وببيونته البيضاء. كهل أسمر نحيل، بعينين جاحظتين، وشعر أبيض مجعد كثيف، لحقه بعض رذاذ ماء. رفع يده بتحية، وفتح الباب الخلفي للسيد عمر، وانتظر منتصب الوقفة.

كان الباب مفتوحًا والسيد عمر على وشك الركوب حين سمع صوت كلاكس مميز يعرفه جيدًا، يأتي من سيارة فاخرة بيضاء، راكنة في الاتجاه المعاكس. انتبه السيد عمر إلى الصوت الداعي الذي يعرفه، وتحرك نحوها واقترب، ولم يكُن بحاجة إلى النظر إلى داخلها ليعرف قائدها.

ابتسم له فؤاد بك ابتسامته المعهودة:

– اتفضَّل.

أحنى السيد عمر رأسه لفؤاد بك محييًا، وقال لسائقه الذي كان لا يزال واقفًا على بعد خطوتين منه:

– خليك هنا زي ما إنت، هاكلمك.

وركب إلى جوار فؤاد بك، فانطلقت السيارة بهدوء نحو ميدان مصطفى كامل، القريب جدًّا من «العروس».

أراح السيد عمر ظهره إلى الخلف وأغمض عينيه: «لو أعرف بماذا تفكر يا فؤاد، وماذا تريد، لو عرفتك لملكتك، وصرت أنت أيضًا من رجالي، ودِنت لي حتى اليوم الأخير».

يعرف السيد عمر أن «فؤاد» بك يمكنه أن يقبض روحه، وينقله في لحظة خاطفة إلى العالم الآخر، لكنه لا يستطيع بغير أمر من الحاج مرزوق. إنه يستطيع أن يرسله إلى الموت بخفة وسرعة، ولكنه مقيد في كل فعل بأمر الحاج، ولكنه هو الأقوى الليلة، صار سيدًا حقًّا، سيد نفسه وسيد مصيره، وبلا قيد، ولا قيد الحاج مرزوق نفسه، بعد أن سوَّى أهم أموره بنفسه، وبمعرفته.

كان في السابق معترفًا بعلو «فؤاد» عليه؛ فهو الأقرب إلى الحاج مرزوق، ومن المؤكد أنه أغنى كثيرًا منه، وله رجال أكثر. كان حريصًا على مداهنته، ونفاقه، وتحمل غلظته وزهوه بنفسه، لكن الأمر قد تغير كليًّا الليلة.

– عايز إيه مني يا فؤاد؟

كانت السيارة تمضي بهدوء نحو ميدان الأوبرا شبه الخالي من المارة، وثمة تمثال لفارس يقف فوق حصانه في مركز الميدان، وسط حديقة صغيرة، شبه مظلمة وخالية.

قال فؤاد:

– ولا حاجة.

وضحك ساخرًا لأول مرة، فصار لوجهه ملامح بشرية في عيني السيد عمر.

من المؤكد أن «فؤاد» يعرف كل ما فعل، منذ اللحظة التي فتح فيها الصندوق، وأخرج خاتم الحاج مرزوق وختم به ما خطَّت يداه، ويعرف كل ما دار في العشاء والاجتماع، وربما عرف بمجرد أن فكر السيد عمر في فعل ما فعل داخل مكتبه،

وما دبر وما صنع.

«ليكُن. ليعرف فؤاد، ويعرف الحاج مرزوق كل ما وقع، ماذا بوسعهما أن يفعلا بي؟! لقد تم الأمر وانتهى».

قال فؤاد:

- أنت لم تخيب ظني فيك.

تساءل وجه السيد عمر.

قال فؤاد:

- أنا قلت للحاج مرزوق إنك شخص فاسد، وخاين للأمانة، ومع ذلك كان يأتمنك ويعنفني.

هبطت السيارة إلى نفق الأزهر، فاندفع ضوء غزير من حولهما، بامتداد النفق الطويل.

- لا تفرح بنفسك هكذا، أنت لا تعرف الكثير عن العروس، ولا عن الحياة يا.. فؤاد بيه.

وهمس كأنه يكلم نفسه: «أنا أؤدي واجبي، وأقوم بدوري خير قيام، والسيد مرزوق لا يغضب عليَّ أبدًا، إنه يحبني من قبل أن يراني. أنت جاهل يا سيد فؤاد، تتظاهر بأنك تعرف كل شيء وأنت لا تعرف أي شيء. الحاج مرزوق هو الذي طرق باب مكتبي قبل سنوات طويلة، وهو الذي وضعني على كرسي إدارة العروس، وجعلني وكيل كل أعماله التجارية، وهو الذي رفعني وائتمنني على كل أمواله، وعلى اسمه العظيم، ولم أكُن أفعل شيئًا دون أمره وإذنه، وما فعلته الليلة كان إرادته وفعله، وتوقيعه صحيح، وختمه هو ختمه، وكل ما يجري بأمره وبمشيئته، أنت فقط لا تفهم، لا يمكنك أن تفهم. الحاج مرزوق يحبني وقربني إليه، وما خنت الأمانة طيلة عمري، أأخونها الآن؟ أنت غيران مني، مع أنك الأقرب إليه، وأغنى مني. أنت تظن نفسك أرفع مقامًا.. هه! أنت تزدريني،

وقلبك ملآن بالحقد عليّ، لكنك لم تستطِع أن تدس لي كثيرًا عنده، فلا هو طردني من خدمته، ولا هو عاقبني، ولا هو عنفني ولو مرة واحدة. أنت لا تفهم أشياء كثيرة عن الحياة وعن البشر، إنه يحبني يا فؤاد، ويبغضك، يكرهك لأن قلبك أسود وعقلك خفيف، وروحك، إن كانت لك روح، مستعرة بالكراهية. أنا السيد عمر عبد الظاهر يا فؤاد.. ها أنا قد قلت لك كل ما لا تريد أن تعرف، وأريتك كل ما لا تريد أن ترى. أنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا على الإطلاق إلا بأمره هو، وهو لن يأمرك أبدًا بإيذائي، وإن كنت تعتقد أن ما فعلته في الاجتماع جريمة فأنت المجرم والمذنب الوحيد، لأنك جاهل، ولا تعرف شيئًا عن فتحي أبو درقة، ولا عن نانيس وأسعد وباهر، ولا حتى عن شاهين وأبو وردة المجنون، ولا عن خالد عبد الباري ولا عن سامية بشندي. أنت مجمع جهل يا فؤاد بيه»!

خرجت السيارة من النفق كأنها صاروخ مجنح، فطارت في شارع صلاح سالم، وحلقت تطير من النفق إلى هضبة المقطم، وأمام فيلا السيد عمر حطَّت.

خرج السيد عمر من السيارة وهو مبتهج، وابتسم ابتسامة واسعة لـ«فؤاد» بك، وقال بلا أسف:

– أنا عارف إنك عارف كل حاجة، لكن هتعمل إيه؟! مش بإيدك يا فؤاد بيه.

لم يغتَظ فؤاد بك؛ فقد كان الرجل يقرر حقيقة.

– ولو أني لن أراك مرة أخرى إلا أنني أقول لك أشوف وشك بخير يا فؤاد!

ابتسم فؤاد بك ولم يرد.

«هكذا أفضل، ما هذا بإنسان».

أعطاه السيد عمر عبد الظاهر ظهره ومضى نحو باب فيلته. نظر إلى السماء من فوقه للحظات فرأى بأطراف ظلامها العميق سحابات بيضاء مشبعة بالمطر، تعبره في بطء، فابتهج أكثر.

اختفت السيارة كأن لم تكُن، وداخلها «فؤاد» وقد تخلص من حمل ثقيل، كان يضايقه ويضنيه طيلة أعوام.

شعر السيد عمر أيضًا بسعادة غامرة تجتاحه؛ فلن يأتي فؤاد بك مرة أخرى ليلقي إليه بالأوامر والنواهي، ولن يعكر صفو استقلاله وحريته أحد بعد الليلة. الكل يجب أن يصمت في حضرته، ويسمع ويتعلم، فقد آن الأوان.

ألقى نظرات إعجاب على أشجاره، حراس ليله، وعلى سور حديقته وبوابته، وهو يفكر أنه مهما كان من أمر فؤاد هذا فلن يفعل شيئًا من تلقاء نفسه في ما يخص «العروس» ويخصه هو. لقد أخافه، لكنه لا يملك له أذى. إنه عبد مأمور، والآمر المهيمن لن يأمره بشيء، وأرسله إليه ليعيده إلى المقطم خوفًا عليه من بطش الحاج «أبو درقة» ورجاله. الحاج مرزوق سيظل يحبه، ويعرف في قرارة نفسه أن «عمر»، حبيبه، لم يفعل شيئًا إلا ما أراده هو. هذه إرادة الحاج وليست إرادته هو، فكيف يعاقبه على شيء لم يفعله بنفسه. الحاج يريد أن تنمو وتكبر وتزدهر العروس، وأن يصير لها فروع في كل المدن الكبرى في مصر، وأراد أن تكون الأشهر والأبهى والأجمل، والحاج يعرف أن كل ذلك لن يكون إلا بتدبيره هو، وبامتلاكه لنصفها على الأقل، وبإزاحة المجرمين الأشرار من طريقه.

عالج أقفال فيلته، وصعد الدرَج إلى الطابق الثاني، وارتاح على أريكته الوثيرة، أمامه الحائط الزجاجي الذي يدور مع حوائط الفيلا. سحب الستائر، وكانت القلعة أمامه حاضرة، بأنوارها الساطعة، ومآذنها العالية وقبابها.

«مشهد عظيم».

أحضر كأسًا من نبيذ فاخر وجلس يشرب في هدوء وبطء.

ومد يده إلى تليفونه المحمول واتصل بـ«أسعد لطيف».

حين نظر أسعد لطيف إلى شاشة تليفونه، ورأى اسم السيد، هرول نازلًا الدرَج إلى مكتبه بالطابق السفلي، وهناك صار يردد بصوت خانع:

– نعم يا عمر بيه.. آه.. تمام.. أوامر سيادتك.

أنصت طويلاً إلى السيد عمر وهو يلقنه الترتيبات الجديدة ويخبره بالقرارات التي اتخذها.

كان مخلصًا جدًّا لمبادئه، مخلصًا لمصالحه الخاصة، ولعشرة السنين الطويلة في رفقة السيد عمر.

– وقائمة الأسعار الجديدة يا عمر بيه؟

سمع ردًّا أسعده جدًّا.

– يُعمَل بها من الليلة يا أسعد.

لم ينسَ مستر أسعد نصيبه، وفاكهته المنتظرة. قال للسيد عمر:

– آسف يا عمر بيه.. وموضوع الدكتورة نانيس؟!

وعده السيد عمر خيرًا.

وفي هذا الوقت، كان الحاج فتحي أبو درقة في طريقه إلى بيت الحاجة خديجة. لم يذهب إلى عروسه الجديدة في جاردن سيتي؛ فقد بدا له أنه لن يستطيع، لن يقدر على هذا الشيء، وكان غير راغب الآن إلا في الاستلقاء على سريره القديم، إلى جوار الجسد العجوز الذي احتمله كل هذه السنين، ومدَّه بالمال حين كان فقيرًا، والأمن حين كان ضعيفًا في حاجة إلى الحماية، وها هو يعود إليها عجوزًا مهانًا، بلا حول ولا قوة.

١٠

ابتعدت سامية بشندي عشرات الأمتار عن «العروس»، تقود سيارتها دون أن تضبط المرآة الجانبية التي تكشف لها ما يأتي من الخلف، وتترقرق في عينيها دموع غبشت رؤيتها للطريق أمامها.

مرت بميدان التحرير، ولم تنتبه إلى رجال متفرقين في أنحاء الميدان الشحيح الأضواء، وإلى حلقة شباب وفتيات تحت سارية عَلم عملاق، لكنها سمعت ضرب دفوفهم وغناءهم الخافت، وأدركت أنها أغنية جديدة: لحن لم تسمعه من قبل، وكلمات طازجة.

على جانبي كوبري قصر النيل، كان عدة أفراد متباعدين، وأزواج من العشاق، يحدقون في مياه النهر من تحتهم مرة، ويتطلعون إلى الأفق وإلى الهلال الوليد مرات، صامتين.

ابتسمت بالرغم من حزنها وهي تمر بفتاة صغيرة ترتدي فستان سهرة، خفيف الزرقة بنجوم فضية، ترقص في انسجام مع نفسها، ظهرها إلى بوابة دار الأوبرا ووجهها إلى أسدي كوبري قصر النيل، كانت تتمايل بخفة فراشة ووجهها باسم، يداها مرفوعتان إلى أعلى في رشاقة آسرة، وكفاها مفتوحتان لالتقاط رذاذ المطر.

اتسعت ابتسامتها لرؤية راقصة الليل الجريئة:

- بنت مجنونة.

وعادت إلى تيار أفكارها المتدفق.

«صحتَ في وجهي مرات كثيرة: الزواج مؤسسة فاشلة يا أستاذة»!

فرت دمعات على خديها: «أسرتي الصغيرة كائن هلامي، كائن هلامي! والرقاصة كائن حقيقي؟! يا أخي.. أنت غبي، لم تفهمني، لم تراني»!

كانت لا تكاد ترى الطريق، وتتألم من تذكر الليالي التي ناما فيها على سرير واحد غريمين، هي كتلة من توتر وغضب، ولهيب حارق يصَّاعد من جسمها مع أنفاسها، قلبها يغلي كمرجل ورأسها يكاد ينفجر، وهو إلى جوارها حجر قاسٍ، مستغرق في سبات عميق، كجثة.

«يا رب تموت»!

تساءلت مع نفسها: «وآخرتها إيه؟ خليت الكلاب تتجرأ عليَّ وتنبح في وشي، تمد إيديها وتنهش فيَّ، تقطع في لحمي وإنت ساكت، وما بتعملش حاجة! إيه يا زوجي العزيز، يا شريك حياتي؟! كافحت طويلاً من أجل الانتقال من السيدة زينب إلى حدائق الأهرام، وشربت الأمرَّين لتملك شقة زي كل خلق الله، أربع غرف، بشرفات واسعة، والشمس تدخل كل شبر، تقف في بلكونتها فتقع عيناك على الأهرام، وحديقة تحت العمارة، يلعب فيها كريم وندى، فيه أحلى من كدا؟ مش عاجبك ليه؟! هادية وبعيدة عن زحام السيدة، لماذا تشكو مني ومنها؟! ألا ترى كل الجمال الذي صنعته من أجلك؟! ما إنت بتروح السيدة كل يوم! متمرد على إيه»؟!

كثيرًا ما وضعت الولد والبنت أمامها كمتراسين بشريين صارخة فيه بلا هوادة: «العيال مش مبسوطين هنا، عايزين مكان تاني، بيت واسع، وعفش جميل، وأنا عايزة حياة جديدة، إيه القرف اللي إحنا فيه دا»؟!

بعد ثلاث سنوات من إلحاحها المثابر، رضخ، فاشترت كل شيء بالتقسيط، غير المريح، لكن ما باليد حيلة.

«يقول لي أنت لا تعرفين ما معنى أن يبيت رجل مهمومًا، مثقلاً بالديون؟! كل الناس مديونة يا أستاذ، عايزنا نموت بالحيا يعني؟! لا يعرف شيئًا عن كيف يعيش أمثالي، أنا أستحق أكثر كثيرًا من شقة أبيك الضيقة، أستأهل الوسع والبراح،

والعيال لازم يكونوا مبسوطين، أنت لا تحس، لا تشعر ببؤسي وضيق العيال، وآخرتها بتحب رقاصة قد بنتك يا شايب»؟!

زفرت من أعماقها يائسة من كل شيء:

- يا رب.

في الطريق إلى القُرب من الهرم، وإلى البيت المودرن الذي أرادته، كان الشجار قد تضاعف، ونضب الحب.

اجتازت نفق الهرم وخلفها «شاهين» يتبعها بعينين واسعتين، حانيتين.

في «العروس»، جلس ثروت بك إلى منضدته فغُيِّر المفرش، وجاءت شمبونيرة ذهبية، وزجاجة ويسكي مغلقة، وكان حمُّو الترسة واقفًا بركن، ينتظر عودة البك من الطابق السفلي.

اقترب خطوات منحنيًا قليلاً:

- باشا.. لو سمحت يا باشا.

بطرف عينه نظر إليه وقال لنفسه: «أتسلى بيه».

لم يدعُه للجلوس فظل منحنيًا على البك، محافظًا على مسافة معقولة.

- عايز حاجة يا حمُّو؟

أخرج محفظة نقوده وأخذ يقلبها بين يديه مختالاً.

المحفظة كبيرة وجيوبها عديدة، ومكتظة بالبنكنوت، ومن جلد تمساح. تكلم حمُّو وقد سرقت انتباهه، وثروت بك هز رأسه وهو يفتحها، ويخرج من الجيب الكبير أوراقًا نقدية جديدة، فئة المئتي جنيه، وراح يفرها بين يديه ورقة وراء أخرى، كمحاسب بنك شغلته العد، وإطلاق صوتها المريح للنفس، والجميل في الأذن. تسلطت عينا حمُّو على البنكنوت، وعينا ثروت بك تروحان وتجيئان من النقود إلى وجه حمُّو السمين.

أنهى حمُّو همسه، وسكت مبتلعًا ريقه.

ابتسم: «إنت جعان يا حمُّو.. لذة أن أرى وجهك هكذا». وواصل العد كأن لا نهاية لهذه الأوراق، التي لا يجمعها أستك أو حد.

ثروت بك يحب الاستعراض والصفقات التجارية والنقود كعينيه، يخرج رزمة نقوده بمناسبة ومن دون مناسبة، ويفر ورق البنكنوت تحت أعين الجميع، بتلذذ من يستمني في غرفة نومه، وحيدًا.

«من هذه الورقة الثمينة خُلِق العالم، أحبها، أعشقها من كل قلبي».

في غرفة نومه خزانة قديمة، من بقايا أثاث قصر «فاضل» باشا الكبير، ملأها بأكوام من الجنية والدولار واليورو والإسترليني والين الياباني واليوان الصيني، ولا يتعامل بها، إنها مقتنيات خاصة عزيزة، وهواية من الطفولة.

قال ثروت بك:

- عارف يا حمُّو؟!
- أيوه يا باشا.
- رغم كل اللي إنت قلته ...
- آه.
- أنا ما بحبش المتعالمين من أمثالك!
- متعالم! متعالم إزاي يعني؟

ضحك وهو ينظر إلى حمُّو من تحت إلى فوق.

- اللي بيدَّعوا إنهم يعرفوا حاجات أنا ما أعرفهاش!
- أنا.. أنا..
- إنت خطر يا حمُّو، ومش هتشتغل في العروس طول ما أنا موجود على رأس مجلس إدارتها.
- هو حضرتك الرأس؟!

- اخرس.

- حاضر.

طأطأ رأسه ولم يقُل: «إذا كنت يا ثروت موجودًا، فالسيد عمر موجود، وهو رئيس مجلس الإدارة.» وقال جملة أخرى:

- على العموم أنا كنت عامل حساب سيادتك في طبقين ترفاس، نادرين جدًّا، ما أعتقدش حضرتك دُقت زيهم قبل كدا.

لمَّ ثروت بك أوراقه النقدية، ورتبها بهدوء في جيوب حافظته.

- الطبقين هدية خاصة لسيادتك.

وسَّع حمُّو فمه وفتحه عن آخره فصار ثقبًا أسود مطلق الجاذبية يبتلع كل ما حوله في لحظة، وابتسم، ومد يده في جيب الصديرى البمبي، وأخرج علبة ذهبية مستطيلة، فتحها ببطء، والتقط منها إصبعًا طويلاً.

وأمام عينى ثروت بك رفع سيجارًا غريب الشكل، نوعًا لم يرَ مثله من قبل، على خبرته الطويلة في تدخين كل فاخر منها.

كان السيجار فاتح البنية وورديًّا، له نفس لون وطول السيجار الذي في يد ثروت بك، ولكنه مستطيل، ويلمع بخطوط ذهبية رقيقة.

سخر ثروت بك:

- واللي في إيدي دا إيه؟!

قال حمُّو:

- صنف رديء يا باشا، باين من ريحته!

كادت يد ثروت بك أن ترتفع وتنزل صافعة قفا حمُّو الغليظ.

- جرَّب دا.

بتأفُّف التقط السيجار، وتفضل فقبل النار اللطيفة الآتية من الولاعة الصفراء في يد حمُّو.

شد النفس الأول، وأغمض عينيه يتذوق، أحس كأن نسيمًا يدخل صدره، ويخرج مع الدخان من فمه وقد جلاه. شعر براحة عجيبة على الفور. شد نفسًا ثانيًا فارتاح أكثر، ومع النفس الثالث انفرجت شفتاه بابتسامة صافية، عذبة.

- إيه دا؟
- دي؟! دي.. ديدي، سيجار خرافي، اخترعته أنا، مصنوع من أندر زهرة في العالم.
- نعم؟!
- شيء لا يعرفه حتى الملوك والسلاطين، سيجار ديدي إبداعي الخاص، ومن أغلى زهرة في الدنيا.

سحب نفسًا آخر طويلاً، فغرق في سرور مفاجئ وشامل، وروائح ذكية، وألوان ساطعة.

- إنت اللي اكتشفته؟!
- بالظبط كدا!
- إنت هجّاص يا حمُّو.
- باشا؟!
- إنت مين يا ابني؟
- أنا؟! أنا رسول السعادة.. رسول سعادة الكبار قوي يا ثروت باشا.. يا كبير.

هز ثروت بك رأسه راضيًا، وبطرف إصبعه أشار لـ«حمُّو» أن ينصرف.

فرك يديه:

- أعتبر موضوعي منتهي يا ثروت بيه؟

هز رأسه.

- ليلتك سعيدة يا باشا، عن إذن معاليك.

تحرك إلى الخلف، وإلى الدرَج المؤدي إلى الطابق السفلي، للقاء مستر أسعد، وليرَ ما سيكون، هل سيعمل هنا؟ هل سيقبله السيد عمر؟

«يا رب».

وكان ثروت بك قد صار في مزاج طرب يواصل تجرع كأسه في هدوء.

الآن فقط بدت له الليلة عظيمة، كسب أسهمًا إضافية، وأشياء فريدة، وثمة وعد بامرأة فاتنة في الطريق، وعندها سينتقم من الشخص الأخطر في العروس، التافه «خالد عبد الباري».

لم يهنأ بوحدته طويلاً، فقد حضر باهر العقدة، وجلس إلى جواره.

بعد كأسه الأول من زجاجة ثروت بك، سأل:

- إزي الحال؟
- الحال تمام.. تمام.
- تمام إزاي؟! إنت راضي عن اللي حصل؟
- عن إيه بالظبط؟
- عن تقسيم الأسهم.
- طبعًا، إنت ليك رأي تاني؟!

علق لسان باهر العقدة بسقف حلقه، ولم يفتح شفتيه.

انتقل ثروت بك إلى موضوع آخر، فأخذ يشرح نظريته في الإدارة وفي الحياة. قال إنه كلما كان موظفوك وخدمك جهلاء أدوا بشكل أفضل، وأخذت منهم كل ما تريد، وهذا ما يجب أن يسير عليه كل شيء في «العروس». عندك مثلاً، هايدي، امرأة جاهلة وغبية تصلح جدًّا لتقديم برنامج يتابعه الملايين! وسأنتجه

لها أنا، ولكن بعد أن تخضع بشكل مطلق وتام، وترتكب ما يشينها ويدينها ويخجلها، حتى أتأكد تمامًا أنها:

- جزمة لميع وفاخرة وتعيش!

وضحك ضحكًا مجلجلاً.

ابتسم باهر العقدة وهز رقبته في إعجاب:

- أووو أووو.. إنت عبقري.

في الطابق السفلي، صرف مستر أسعد «حمُّو» دون «عُقاد نافع»، فخرج يهمهم بعد أن أغلق الباب خلفه.

من الدرج السري لمكتبه، أخرج قائمتي الأسعار الجديدتين، ممهورتين بتوقيع السيد عمر عبد الظاهر، ومختومتين بختمه الجديد، والذي سيُعمَل به من الآن فصاعدًا في كل شؤون العروس، وسيُعتمَد في كل معاملاتها القانونية، والمالية، والسياحية، وستُختَم به كل فاتورة تُقدَّم لزبون، وكل فاتورة يقبضها متعهد أغذية ومشروبات، كل إذن دفع وشِيك، وورقة تخص طباخي العروس، ونُدُلها وموظفيها وحراسها، وكل مستند بقرش صاغ يُصرَف لمتعامل معها، و«آكل عيش» من استمرار فتحها، وبقاء بابها مفتوحًا، وصالتها الكبرى عامرة.

بين يديه الناعمتين، رفع مستر أسعد ورقة حمراء مصقولة، القائمة السرية التي تحوي أسعار ثلاثة أصناف فقط، وثبتها أمام عينيه الخضراوين الضيقتين، وراجع أسعار «أطباق السلاطين» المُدوَّنة بالدولار، التي وضعها السيد عمر بنفسه. حدق فيها للحظات فلمعت عيناه واتسعتا، وسال لعابه سعيدًا بالطبقين الجديدين: «عروس البحر» و«الترفاس»، واغتبط بالسعر الخرافي للمشروب المبتكر الذي اقترح تسميته «نبيذ الأعالي»، فوافقه السيد عمر بهزة من رأسه، واعتمده اسمًا للمشروب، ووقع على القائمة، وختمها بعد انتهاء العشاء بقليل، قبل الاجتماع.

«ثمن الطبق العادي الذي يُقدَّم في العروس يجب أن يبعد الرعاع والمتطفلين والهواة، وسعر المشروب يجب أن يبعد المفلسين والفضوليين، أما الأطباق السرية فيجب أن تبعد الكل إلا ... إلا الشخصيات العامة الكبرى، صفوة الأغنياء.. نخبة كبار البلد.. أفراد يُعَدُّون على أصابع كف يد واحدة، أعرفهم كلهم بالاسم والصفة.. وستُقدَّم تحت إشرافي أنا شخصيًّا، وبمعرفة حمو الترسة وحده، فقط لا غير، وفي تكتم شديد وحذر تام ستُوضَع على موائد خاصة الخاصة.. خلِّيهم ياكلوا وينبسطوا.. ههههه، رغم إن ذبح السلاحف بكل أنواعها مُجرَّم في هذا البلد، والترفاس فطر نادر مجهول لا يُرى على وجه الكرة الأرضية إلا في صحراء مرسى مطروح، فطر سري بيطلع شيطاني، لذيذ جدًّا وشبه سام ولا يُقدَّم على موائد المطاعم العامة في أي مكان في العالم، ونبيذ الأعالي.. هههههههه.. عالٍ جدًّا وقد يؤدي إلى الجنون! هنا يجب أن يُقدَّم كل فاخر وغريب ونادر جدًّا، والعروس يجب أن تهزم جميع المطاعم والبارات والملاهي، ويجب أن أربح أنا الكل، يجب أن أنتصر على الجميع».

وضع القائمة في جيب سترته الداخلي:

- ههه.. خليهم يحسوا إنهم رجالة جامدين قوي، كله بتمنه.

لنفسه ضحك مستر أسعد من فكرته اللذيذة؛ فالأسرار تمتعه، والعمل في الممنوع مشوق، يبهج الروح.

ربت على موضع القائمة كأنه يهنئ نفسه، والتقط من فوق مكتبه مغلف القائمة الأساسية، والمُسعَّرة بالجنيه المصري، والتي تُقدَّم للزبون العادي، فتحها وقرأ ورقاتها الخمس بتأنٍّ، وردد الأسعار مرات حتى حفظ سعر كل طبق في ذاكرته الحساسة للأرقام. وصل إلى نهاية القائمة فأغمض عينيه وراح يستظهر اسم الطبق وسعره. لم يخطئ مرة واحدة.

- برافو.. برافو.

وثق من دقة حفظه، وانتابه اختيال بذاكرته الحديدية، التي تحفظ أسعار مئات الأطباق وعشرات المشروبات. تقريبًا يحفظ أسماء وأسعار كل ما يُقدَّم على مائدة في مطعم، في أي مكان عام في العالم.

ونفسه شبعانة بعد جوع، فرحة بالأرباح المتوقعة التي ستأتي في أيام «العروس» القادمة. التقط قلمه الثمين، الأحمر الحبر، الذهبي اللون، وأشَّر به على القائمة بـ«تُنفَّذ فورًا، بفواتير الليلة»، ووقَّع.

استدعى الفتاة الشقراء، التي قطعت بيديها الجميلتين السلحفاة بمهارة محترفة، وأعطاها قائمة الأسعار الجديدة، وأمرها بتصويرها نسخًا كثيرة، وتعليقها في لوحات الإعلانات، وفي البهو الرئيسي، وعند أبواب العروس الثلاثة، وبتوزيعها على الكباتن والندُّل والمحاسبين:

- مؤقتًا.. لحد ما نطبعها ونغلفها.

- أمرك يا مستر.

وهي خارجة خطرت لها فكرة، فسألته بصوت أملس ناعم كزحف كوبرا تتريض:

- ننشرها على موقع العروس على الإنترنت يا مستر؟
- كويس إنِّك عارفة شغلِك.

رفع سماعة التليفون الداخلي وكلم محسن الهراوي، وأمره أن يأتي إليه فورًا بـ«طلحة أبو درقة»:

- لسه ما غارش من هنا.

أمام عيني مستر أسعد، كانت إحدى الشاشات تُظهر طلحة جالسًا إلى البار، يلقف فمه حبات من الجوز واللوز، ويشرب النبيذ في رشفات طويلة كأنه عصير قصب، ويلاحق ببصره ما بقي من مراهقات في العروس.

تحركت الفتاة من تلقاء نفسها إلى جانب الحائط الخلفي، المواجه لمكتب مستر أسعد، وأمسكت بحبل أبيض لتسدل الستارة الحمراء السميكة على شاشات المراقبة، كالمعتاد في حال قدوم ضيف لا يجب أن يطلع على الأسرار، ويرى مجمع الشاشات.

كانت على وشك شد الحبل الأبيض حين حدجها مستر أسعد بنظرة جاحدة لما تظنه جميلاً، ورفع يده اليمنى فضم إصبعي الإبهام والسبابة في دائرة، ونصب الوسطى والبنصر كفوهة مسدس، وهز يده يمينًا ويسارًا:

- No No.. عايزها ظاهرة، مكشوفة، واضحة قدام عينيه.

خمَّنت أن مستر أسعد في سبيله لإثارة فزع الشخص القادم إلى مكتب المستر وإرهابه.

- أمرك.

كأنه تذكر شيئًا تافهًا:

- آه.. اعملي إعلان عن مسابقة وظائف، مضيفات للعمل في العروس.

بتلقائية احتجت:

- عندنا منهم كتير يا مستر!

- عارف يا لوسي!

سكتت «لوسي الشقرا» ووضعت يديها في وسطها النحيل، كأنها عروسة مولد، ودارت عيناها الخضراوان، وهي تفكر في فضول.

- مش مضيفات بالظبط.. ريكلامز.. سوبر ريكلامز.

رفعت يدها اليمنى، ووضعت أصابعها على فمها لتحبس شهقة كادت تفلت منها:

- ريكلامز في العروس؟!

هز رأسه:

- آه.. بس ما تكتبيش في الإعلان ريكلام طبعًا!

ضحك مثل ساحرة شريرة، وفهمت هي كل شيء فانفرجت أساريرها، ولمعت عيناها بوميض ساطع.

- عايز بنات سوبر، السن لا يزيد عن.. عن تلاتين، والباقي إنتِ عارفاه.

ابتهجت بالمهمة اللذيذة، واثقة أنها ستصير المشرفة على فتيات المؤانسة الجديدات، اللاتي سيتناثرن على موائد العروس، لأول مرة في تاريخها.

- كدا حلو.. حلو قوي يا مستر.

تنحنح جادًّا وقد أدرك ما يدور في رأسها، وصرفها بإشارة من يده، فخرجت تتمايل، تؤرجح مؤخرتها المستديرة كبطيخة ضخمة، كأنها تعرض فنها فوق مسرح تعرٍّ. برشاقة خصرها وثقل عجيزتها تذكره بكفاءتها التي لا يقدرها حق قدرها، ولا يثمنها كما ينبغي. انزلقت عيناه للحظات على ردفيها اللذين يتبادلان الصعود والهبوط في حركة منسجمة مع حركة ساقيها الممتلئتين، تحت ركبتيها العاريتين، وتحت عينيه كانت سمانتاها المكتنزتان ساطعتين ولامعتين كأوراق النقد الجديدة المبهجة. «آه.. فاخرة، فاخرة جدًّا، وثمنها يجب أن يكون غاليًا جدًّا».

وهي على الباب، لفَّت خصرها الرشيق واستدارت، مالت إلى الأمام قليلاً، ووضعت يدها على قمة شعرها الطويل، وغمزت له بعين خضراء:

- أسيب الباب موارب.. يا مستر؟

هز رأسه هزة واحدة، فأعطته ظهرها ومضت تاركة الباب مواربًا.

ابتلع ريقه باطمئنان كعصفور يُطلَق سراحه من قبضة آسره، وتنفس بعمق ليتمالك جسده، ويتجاهل رائحة عطرها، التي لا زالت تسري في الهواء من حوله. أغمض عينيه حتى ينسى صورة تغنجها المثير الذي باغته في غير وقته، وفتح شهيته، وكهرب أعضاءه.

كان حاسمًا تجاه غنجها دائمًا؛ لا يجوز لمدير أن يستسلم لإغواء إحدى خادماته، وإلا سقط بسرعة سقوط حجر من منحدر شاهق.

فتح عينيه وقال:

- أغيَّر الموووود.

التقط برنيطته الأنيقة من فوق سطح المكتب ووضعها على رأسه، وشد جسمه، وفرد يديه متباعدتين مستقيمتين، وعدل أساور قميصه تحت السوار الذهبي لساعته الألماس، ووضع نظارة القراءة فوق عينيه، واتخذ سمت محقق سيستقبل مجرمًا خطرًا بعد لحظة.

دُفِع الباب برفق فارتد إلى الداخل وصرَّت مفاصله النحاسية، ومن فرجة الباب ظهر الكابتن محسن الهراوي يقود الذي خلفه:

- اتفضَّل يا أخ.

اضطرب طلحة أبو درقة، فهي المرة الأولى التي يهبط فيها إلى الطابق السفلي، مدعوًّا إلى مكتب مستر أسعد، فراح يدير وجهه في الأثاث العتيق، في دهشة.

نخس الهراوي كتف طلحة، وأشار إلى المقعد المذهب على يسار مكتب مستر أسعد، وقال بنبرة خشنة:

- اقعد.

انحنى طلحة ورفع يده مُحَيِّيًا مستر أسعد وهو يجلس مباعدًا ما بين قدميه كأنه يرتدي جلبابًا، فتباعدت فردتي بنطلونه. تنحنح كأنما يتجشأ فنظر الهراوي إلى جلسة طلحة باشمئزاز، وصوب نحوه نظرة احتقار، وانصرف بعد ابتسامة متواطئة، وهزة رأس راضية من مستر أسعد تقول: «عمل جيد يا كابتن».

وضع طلحة يديه على فخذيه العريضتين، واستراح في جلسته، وانتظر كلمة ترحيب.

واصل مستر أسعد تشاغله بتصفح أوراق أمامه، فبدأ طلحة يحرك كفيه فوق فخذيه، ويهز ساقيه.

بعد دقائق، خلع مستر أسعد نظارة قراءته:

- أهلًا يا أخ طلحة، كل سنة وإنت طيب.
- أهلًا مستر أسعد.

حوَّل بصره عن طلحة إلى شاشات المراقبة، التي تغطي كل الحائط الخلفي، من منتصفه حتى السقف، فنظر طلحة في اتجاهها كالمسرنم، بلا إرادة.

تتابعت فوق الشاشات مشاهد مما يجري في الطابق الأعلى.

- الشاشات دي عجيبة، بتسجل كل اللي حصل، وبيحصل، وهيحصل.. ما بيفوتهاش حاجة أبدًا.

نقر طلحة بأصابعه الغليظة على فخذيه، وارتعشت أطراف أصابعه داخل حذائه.

- خير يا مستر أسعد!

سكت للحظات محدقًا في عينيه، كأنه يخلع عنه ملابسه قطعة بعد أخرى.

راغ منه:

- حضرتك أكيد مش جايبني عشان أتفرج معاك!
- طبعًا مش عشان تتفرج معايا.. مستدعيك عشان حاجة أهم.
- خير يا مستر أسعد؟

خرج من خلف مكتبه، ووقف عند رأس طلحة:

- خير.. بس فيه حاجات مش كويسة حصلت الليلة في العروس.. حاجات مخزية للأسف.

اسودَّ وجه طلحة، وسكنت يديه على فخذيه.

- حاجة مؤسفة جدًّا، جريمة حصلت من واحد ... واحد عزيز عليَّ خالص!

تشبث بغلق شفتيه والنظر إلى أسفل.

ربت مستر أسعد على كتفه:

- بس أنا ممكن أخرَّجه من الجريمة دي!

لم يتمالك طلحة نفسه أكثر، ورفع وجهًا متصلبًا إليه:

- جريمة إيه؟!

رفع يده عن كتفه:

- جريمة تودي صاحبها ورا الشمس، تدخل السجن سبع سنين، تمانية، عشرة.. الله أعلم.

غالب خوفه:

- جايبني تحكي لي حواديت يا مستر أسعد؟!

سكت مستر أسعد وفتح راحتي يديه في الهواء، وابتسم.

ابتعد خطوة عن رأس طلحة، وظل واقفًا بلا حراك للحظات طويلة، ثم عاد إلى مقعده فجلس:

- كل سنة وإنت طيب، الحدوتة خلصت خلاص.. ممكن تتفضل!

لم يتحرك طلحة من مقعده، وبدأ يعاني من جفاف حلقه.

- كل اللي حصل متسجل صوت وصورة، والجريمة ثابتة، وموثقة.

صار وجه طلحة قطعة من جليد كثيف.

عذَّبه مستر أسعد بسكوت طويل، وأخيرًا قال برقَّة:

- بس أنا بعزَّك.

بالكاد استطاع طلحة بلع ريقه.

- بعزِّك.. وعايز مصلحتك!
- ...
- جريمة التحرش ببنت قاصر جريمة خطيرة، ومشينة، و...

دارت عينا طلحة باحثة في وجه مستر أسعد عن المنفذ.

- لكن تجاوزها ممكن!

لقف طلحة الهواء كمن على وشك الاختناق.

- جناية كبيرة ...

وشدَّد على حروف كل كلمة:

- بس إحنا ممكن نمحيها، نمسحها.. لو عُزنا.

وتكلم، مزهوًّا بنفسه، عن خبرته في مثل هذه القضايا، وحكمته الشخصية في معالجة هذه الجرائم، النادرة الحدوث في أي مكان يديره، ولكنها للأسف تقع أحيانًا، وقال إن أية جريمة حتى ولو كانت شنيعة يمكن تسويتها، والتغاضي عنها، ونسيانها كأنها لم تكُن!

انفرج وجه طلحة قليلاً.

ابتسم له مستر أسعد ابتسامة واسعة كفوهة بئر، وتحدث بصوت مغنٍّ يشدو من طبقة القرار قائلاً إن السيد عمر قد يتسامح معه، ويعفو عنه، والأكثر من ذلك أنه قد يوافق على منحه امتيازات ثمينة لا يحظى بها سوى القلائل من الموعودين!

رفع طلحة رأسه إليه بابتسامة طامعة، لزجة.

همس، بنبرة من يقود امرأة إلى فراش رجل آخر، إنه حتى قد يقترح على السيد عمر أن يمنحه مائدة مجانية كل ليلة، وفي الصف الأول أمام المسرح الجديد، يأكل ويشرب ويسهر وينبسط، ويتلقى خدمة فايف ستارز، دون فاتورة، ودون أن يدفع جنيهًا واحدًا، وهذا تشريف معنوي كبير قبل أن يكون منحة مالية، وقد ...

كان مستر أسعد يتكلم وخيال طلحة قد نشط، فرأى نفسه جالسًا إلى مائدة عامرة بما لذ وطاب، في الوسط خروف كامل مُحمَّر، عالٍ كسنم جمل، وحوله زجاجات خمور فاخرة من كل صنف ونوع، وبين يديه صبايا جميلات، بيضاوات وشقراوات وسمراوات، كلهن يملن عليه كاشفات مفاتنهن، يخدمنه ويداعبنه كأنه سلطان عظيم من زمن قديم، وعلى بعد خطوة منه البنت سماهر ترقص كأنها حور عين في الجنة، تمد يدها وتستند إلى كتفه وتصعد فوق مائدته فيصير فخذاها في محاذاة عينيه، وترقص له وحده، وكل ما حوله جواريه وعبيده.

أعاده المستر مما هو فيه، وهو يشرح، كمخطط استراتيجي.

ليس هذا فحسب، بل على المدى المتوسط ليس من المستبعد أن يمنحه السيد عمر أسهمًا في ملكية «العروس» نفسها، ويصير من الملّاك، وأعضاء مجلس الإدارة، وعلى المدى البعيد ليس من المستبعد أن يمتلك كل الأسهم التي كان يمتلكها أبوه، وربما أكثر منه.

ارتاح طلحة تمامًا، وزال كل كربه.

- طبعًا عرفت اللي حصل في الاجتماع؟

طأطأ رأسه، بلا تعبير، لا غيظ ولا سرور.

كالحزين حرك مستر أسعد رأسه يمينًا ويسارًا، وقال إن ما حدث الليلة سيئ جدًّا، مؤسف للغاية، ولكن عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وأضاف إن الحاج فتحي للأسف أخطأ في حق نفسه أولاً، وأخطأ أيضًا أخطاء فادحة في حق السيد عمر، وحق كل الملّاك المحترمين، أعضاء مجلس الإدارة، ومع ذلك فهو شخصيًّا يعرف أن السيد عمر ما زال يقدر الحاج فتحي، ولكن الجرم كبير وفظيع.

واتخذ مظهر الراثي لحال الحاج «أبو درقة» قائلاً إن السيد عمر ليس له ذنب في توزيع الأسهم، وإنه الحاج مرزوق هو من فعل كل شيء، من وزع الأسهم

بمعرفته، وإن أباه ربح كثيرًا جدًّا من العروس، وكسب أموالًا طائلة في السنوات الطويلة الماضية، وإن السيد عمر ما زال يراعي العشرة، ولكن:

– يرضيك؟! السيد عمر! السيد عمر شخصيًّا يتسب ويُتَّهَم بإنه حرامي ومزور؟! هل هذا يجوز؟!

لم ينطق طلحة أبو درقة بغير ذهول شمل صفحة وجهه المربع الحاد الخطوط.

هدل مستر أسعد كحمامة سلام، وقال إنهم جميعًا ناس كبار، وفضلاء وأصحاب العروس، وشركاء، وما كان لهذا أن يحدث، لكن الفأس وقعت في الرأس، وإن أفضل شيء الآن هو الوضع الراهن، وإن كل أسهم الحاج فتحي ستؤول إليه تدريجيًّا، وسيصبح «طلحة بك أبو درقة» هو مالك كل أسهم الحاج فتحي أبو درقة، وربما يكسب أسهمًا أكثر، وأكثر.

أنصت طلحة مفتوح العينين عن آخرهما، وتجمد وجهه في ابتسامة رائقة، وقد أصبح مستعدًّا للقتال من أجل ما وُعِد به.

– كل وقت وله أذان يا أخ طلحة، وما عليك غير التعاون مع السيد عمر، والخير قادم ووفير إن شاء الله.

كل هذا رائع، ولكن طلحة يكره «العروس» من أعماق روحه، فيها يشعر بغربة، يحس بأنه ضئيل وتافه وسط هؤلاء الباشاوات والبهوات، المحاطين بالنساء والفتيات الخارقات الأنوثة. لكنه كان دومًا يحلم بمائدة فيها له وحده، وامتلاك ولو سهم واحد باسمه، اسمه هو لا اسم أبيه. إنه رسميًّا لا يمتلك شيئًا من كل أملاك أبيه؛ فمحلات الأثاث والورش باسمه هو، والأرصدة في بنوك الداخل والخارج باسمه هو. لقد سئم انتظار موت أبيه حتى يرث كل شيء، أبوه لا يموت، يعيش بصحة جيدة ويتزوج أيضًا، بل ويريد أن ينجب ذكرًا، ذكورًا كثيرين إن استطاع.. اللعنة!

جلس مستر أسعد إلى مكتبه في هدوء تاركًا طلحة لأحلام يقظته، التي رأى فيها نفسه ينتقل من السيدة إلى «كومباوند العظماء»، على أعلى ربوة في العاصمة، ويصير أحد أعضاء الطبقة العليا جدًّا، الذين يمرحون في جنان سماوية، قصور وذهب وخدم وحشم، وخليلات صغيرات بلا عدد ولا حصر. تبًّا لزوجاته الثلاث، كل واحدة تزوجها كان لأبيه عند أبيها مصلحة ومنفعة وحلف، وكلهن دميمات وسمينات ووقحات، لا يشبعنه في الفراش كما ينبغي لفحل مثله، ولا ينجبن سوى البنات.. اللعنة!

قال مستر أسعد كأنه يخاطب هواء مكتبه لا طلحة:

– العروس أحلى مكان في الدنيا.

ورأى طلحة نفسه على المائدة الأولى أمام المسرح وفوقها سماهر ترقص، ورأى ثروت» بك، ذلك الثري المنفوخ الكريه، يتودد إليه ويخدمه ويصب له كأسه.

لمَّح مستر أسعد إلى أن ثروت بك لديه مفاجأة سارة أخرى له.

– إيه؟

– بيزنس جديد يا طلحة بيه.. هيكلمك فيه بنفسه الليلة.

ابتسم طلحة بك بسرور عن أسنان مفلوجة.

– وهو كذلك.

– عين العقل.

وهو يصافحه بيد باردة على باب المكتب، همس في أذنه كأب عطوف بأن الأفعال الشائنة تخزي أصحابها، وأن الكاميرات في مكتبه سجلت كل شيء حدث الليلة، وأنه لا يصح لرجل مثله، في مثل سنه ومتزوج من ثلاث، أن يتحرش بـ«أزهار» ابنة صِدِّيق أبو وردة!

لكن، ولا يهمك، كل شيء يمكن إصلاحه لأني أحبك، أنت عزيز وغالٍ.

– لا تشغل بالك يا طلحة بيه، سوف أعالج هذا الأمر بمعرفتي.. إحنا عايزينك

معانا، من رجالتنا، مع السلامة.

خرج وهو في كامل الخزي من جهة، ومبتهجًا من جهة أخرى؛ فقد فُتِحت له أبواب جديدة، أبواب السماء السابعة.

وهو سارح في أمنياته السارة، عابرًا إلى الدرَج الخشبي ليصعد إلى أعلى، اصطدم بقوة بكتف خالد عبد الباري، فاهتز قليلاً وتراجع إلى الخلف خطوتين:

- مش تفتَّح يا بني آدم!
- لا مؤاخذة، أنا آسف.
- آسف إيه وخرا إيه!

واتخذ طريقه إلى الدرَج كسيد من سادة العروس الجدد.

دخل خالد عبد الباري مكتب مستر أسعد، ووقف صامتًا في وسط المكتب.

كانت يداه معقودتين أسفل خصره، وله وجه مِتردوتيل محترف.

رفع مستر أسعد وجهه، وباقتضاب أمره أن يصحب سماهر إلى فيلا السيد عمر بالمقطم، وأخبره أن حسن صبرة ينتظر بسيارة عمر بك في شارع مصطفى كامل.

لفظ كلماته بسرعة، وعاد إلى التحديق في الأوراق التي أمامه كأنه لم يأمر المِتردوتيل القديم بشيء.

كانت المرة الأولى طيلة عمره الطويل في العروس التي يسمع فيها مثل هذا الكلام، والتي يطلب منه أحد مهما علا شأنه في العروس أمرًا كهذا. دخل العروس صبيًّا في يد أبيه، وتجاوز الأربعين ولم يسمع طلبًا كهذا.

«يا الله ما الذي يجري في كونك»!

أُسقِط في يده فلم ينبس بكلمة، أدار للمستر ظهره وجر قدميه نحو الباب واجمًا حزينًا كمن فقد أباه منذ لحظات، وكانت عينا مستر أسعد مرشوقتين في ظهره، كأنهما سهمين من حديد صلب، طويل ورفيع.

بعد كل الموسيقي والرقص والصخب، أُخفِضت الأنوار في الصالة الكبرى وتناثرت مصابيح قليلة مضيئة، وبقيت مناضد قليلة، عامرة برجال ونساء آخر الليل، كانوا يواصلون الشراب والطعام حين لفظ الطابق السفلي من جوفه بالمِترودتيل خالد عبد الباري.

عبرهم وهو لا يرى سوى أطياف جالسة على كراسي عالية الظهور كأنها مقاعد قضاة، أشباح مذكرة ومؤنثة تأكل وتشرب، وتهتز فتصدر أصواتًا رتيبة منتظمة وحادة كأنها بنادل ساعات ترن في أذنيه، أيدٍ طويلة ترتفع بكؤوس وتمتد لتقرع أخرى مرفوعة في أيادٍ أخرى، وأفواه تُفتَح إلى آخرها وتطلق في الهواء موجات صوتية عاتية، أشباح حين رأته همت واقفة وصارت تُخرِج أصواتًا تشبه الضحكات البشرية لكنها ضحكات ليست من أصوات البشر، لها أصداء ورنين كأنها صادرة عن اصطكاك حلل وأوانٍ وصوانٍ من صلب ونحاس واستانلس، تتصادم فتحدث هذه الأصوات المقيتة، أجساد تضحك وتشير بأصابعها الطويلة الوقحة إليه، تهتز وتتمايل وتصدر من أفواها كلمة بذيئة:

«رجل عر... عر...»

عيونهم جميعًا مُصوَّبة نحوه هو، الرجل الضئيل التافه، الذي صار ينتمي إلى طائفة نادرة من البشر، لا يستطيع ذكر اسمها.

- عر... عر...

مشى الخطوات الباقية حتى باب سماهر في هدوء وصمت، ولم يُلقِ نظرة على منضدة الدكتورة نانيس، ولا سمع هذه المرة صوت مطر الذي كان يناديه في جلسته مع الدكتورة.

برفق، دق خالد عبد الباري باب حجرة سماهر.

وكانت الراقصة الصغيرة قد ارتدت الملابس التي جاءت بها من نزلة السمان؛ فستانًا طويلاً مشجرًا كأنه ثوب فلاحة، وفوقه أحكمت العباءة السوداء

الفضفاضة، ولفت شعرها وغطته. كانت تتأهب لمغادرة العروس منتظرة من يخبرها بحضور الأسطى «قدري»، سائق التاكسي الأبيض الذي اعتاد توصيلها في ليالي عملها. سمعت مثل غيرها بخبر رئاسة السيد عمر لمجلس إدارة العروس، وعرفت أنه أصبح الرجل الأول، وقبل أن تدخل غرفتها رأت الوجوم على وجوه بعض الندّل، وسمعت جلبة وأصوات قرع مغارف وشوك وسكاكين بأوانٍ معدنية، وصيحات احتجاج ضعيفة، ولغطًا آتيًا من المطبخ.

فتحت له، دخل وأغلق الباب خلفه في رفق، وراح يجيب على الأسئلة الحائرة التي سطعت في عينيها السوداوين، الواسعتين كطبقين من عسل أسود.

١١

كانت هايدي كمال ثملة حين نفدت كأسها وأرادت المزيد، وثروت بك استكثر ما شربت على حسابه دون أن تعطيه إجابة شافية عمّا وقع بينها وبين سامية، وسئم إلحاحها المُضجِر، فقام وعدل هيئته، ونفض بدلته الحريرية من لا شيء:

- باي.

ردت بابتسامة باهتة.

نفخت في الجهة الأخرى بعد أن أعطاها ظهره، ومضى نحو الممر المفضي إلى دورات المياه.

رفعت زجاجة النبيذ الباقية فانتبهت إلى أن كل الأطباق والكؤوس قد اختفت، وإلى أنها صارت امرأة وحيدة تجلس إلى طاولة خالية، مضجرة، وبمفرش أحمر جديد.

قبضت على عنق كأسها، وأمالت بيدها الأخرى الزجاجة على حافة الكأس وصبت، لم ينزل من فمها سوى قطرات قليلة، بوجه تعيس تابعتها في مسارها نحو القاع، انقطعت القطرات للحظات ثم سالت قطرة، زادت ميل الزجاجة، هزتها بقوة، قطرة واحدة ومن بعدها قطرة ثم.. لا شيء. حطت الزجاجة، طويلة العنق، بغيظ عارم كأنها تدك غريمة لها فقرقع قعرها السميك بصوت كتيم. كفت يدها عنها يائسة، ساخطة.

مالت وأراحت نصفها الأعلى على المفرش، وعقدت يديها تحت نهديها تحدق في كأسها شبه الفارغة وقد كسا قاعها قرص رقيق كدم متخثر، وقطرات عرق تسيل تحت إبطيها العاريين.

تجرعت ما في كأسها رشفة واحدة، وأبعدتها بظهر يدها في استياء. عدلت حمالات فستانها، وجذبت علبة سجائرها الأجنبية ونظرت داخلها مغمضة عينها اليسرى، أزاحتها فارغة وأشاحت عنها متأففة. سقطت عيناها على المقاعد الثلاثة الخالية حولها فتضاعف إحساسها بالوحدة، التي تخشاها خشيتها من كلاب شرسة، تنبح في وجهها، سادَّة طريقها.

كانت بلا نديم، وبلا شراب، وبلا سيجارة.

«أيوه.. كحالي في الحياة عمومًا»!

نضح وجهها بالضجر، بأطراف أصابعها راحت تنقر المنضدة نقرات سريعة وهي تتلفت حولها. بعد دقيقتين ملت، وخطر لها أن تلعب قليلاً. قامت فاردة قوامها الممشوق، وتبخترت في اختيال بنفسها، كنجمة سينمائية على السجادة الحمراء لمهرجان دولي، لكن، للأسف لم يبقَ سوى محترفي السهر حتى الصباح.

«قلة لا تستحق عرضًا مبهرًا كعرضي.. بس هنعمل إيه، أمري لله».

تمايلت في فستانها القصير، لامعة الركبتين والمفرق بين النهدين، وشعرها الأصفر الناعم ينساب خلفها حتى عجيزتها، تستعرض وجوه الرجال والنساء في كل اتجاه، وترفع يدها بتحية من تعرف، ومن تجهل، لكن أكثرهم لا يعرفونها، مجاملة كان بعضهم يرفع يده بفتور ويهزها بلا اكتراث، وآخرون كانوا يتساءلون بلا مبالاة: «من هذه الشقراء ذات الشعر الطويل، والحواجب الثقيلة المُزَجَّجة؟» والذين يُقيِّمون أنوثة النساء بجودة الخلف سألوا متفاكهين، وهم يعاينون ما وراء ظهرها: «من صاحبة المؤخرة الممسوحة؟»

كانت تقدم رجلها اليمنى نصف خطوة وتثنيها وتبقي اليسرى مستقيمة، وتثبت في وضعها مطوقة خصرها بيديها، تستدير وتتغنج، وتميل في كل اتجاه، مرة تلبس قناع اللطيفة، ومرة قناع المثيرة، ومرات قناع المغوية والداعية إلى السرير، تبتسم وتجد لتمنح المشاهدين صورًا لذيذة.

«أنا هنا.. ألا تراني؟! انظر إليَّ.. أنا جذابة وفاتنة».

منتشية بسريان الكحول في عروقها، كانت تفرج جمهورها على فستانها الأحمر وتسريحتها، تياهة بلمعان بشرتها البيضاء، ونهديها المدورين.

«أنا، أنا وبس.. أنا أجمل من في هذا الاحتفال يا بقر».

تلقي نظراتها على الرجال عرضًا، ولا تأبه كثيرًا، وعند النساء تتوقف، وفي الجميلات تحدق بعينين قاسيتين فتغيض ابتسامتها المصنوعة من بلاستيك أبيض، كدمية «باربي» رفيقة طفولتها، أصابها الغم من النساء الأجمل اللاتي يرتدين الفساتين الفاخرة، ويتزينَّ بالأقراط والعقود والسلاسل الثمينة، لا بد إنهن أشهر منها وأغنى، وبينهن نجمات بيزنس، وسيدات مجتمع مخملي، يتلألأن ببريق أخاذ يغشى العيون، هذه هي المذيعة المشهورة فلانة، وتلك الممثلة اللامعة، وهذه نجمة إعلانات، وهذه سيدة أعمال، و.. تذكرت صيدها الذي اختفى فدارت عيناها في كل زاوية وركن، تبحثان عنه.

«الكلبة.. هربت من وشي.. بس هتروح مني فين»؟

في جولتها الاستعراضية، غمها أكثر أزواج العشاق الذين يتهامسون، ويتبادلون اللمسات الحانية والقبلات السريعة، وقد راق لهم الوقت وصفا المكان. يشقيها أن ترى الحب في أربع عيون تتناجى وهي وحيدة تعيسة، وينخلع قلبها حين ترى امرأة سعيدة في أحضان رجل.

أبصرت الدكتورة نانيس قابضة بكلتا يديها على يدي مطر، فسرى في دماغها صوت غيور ساخر: «الحب حلو.. الحب جميل، ههه.. يا أخي أحـ..!»

سرَّها أن ترى خيط دموع ينساب من عيني الدكتورة، وأضناها أن ترى مطر يحدق فيها بوجه عاشق متيم، يرفع يديها إلى شفتيه، ويقبل باطني كفيها في رقة.

«كتنا نيلة في حظنا الهباب».

حولت وجهها عنهما، ودارت متجنبة أزواج العشاق، باحثة عن الوجوه التي تعزيها، وتضع فرحة الانتصار على أساريرها، تفتش عن الوجوه الكئيبة، الحزينة في ليلة العيد، وجدت واحدة منهن، اثنتين، ثلاثًا. أشرقت واجتاحها سرور، وأسنانها المُصفَرة تلمع بين شفتيها الممسوحتين، وتألق حضورها أكثر حين فكرت أن تعاسة كثير من الأخريات أعمق وأشد.

مع الحركة سكرت أكثر، وتطوحت، تبحث عن رفيقها الأثير، وتهتز في مشيتها كبندول ساعة: «فين النعيم؟ فين النعيم؟»

كان ميدو النعيم وحيدًا على البار يشرب كأسه ببطء. رآها تلوح له، تستدعيه إليها. حوَّل وجهه عنها، وتغابى كأنه لم يفهم حركتها، عاد للنظر إليها وهي تخطو نحوه كنمرة في اتجاه رفيقها، وتقترب منه كقضاء لا يمكن رده، ابتسم لها ابتسامة شاحبة وهز رأسه، ووضع عينيه على خشب البار تحت يديه.

كان محصورًا، كئيب الوجه: «ماذا تريد مني؟ لا أريد المزيد من التعاسة الليلة، يكفيني ما أخذت!»

رمت ذراعها اليسرى على ظهره، ومدت يدها اليمنى إلى صلعته تمسحها وتنقرها بلطف:

- يللا بينا يا نعيم.

همس ممتعضًا:

- على فين؟
- نشوف حتة نكمل فيها السهرة، العروسة بقى دمها تقيل قوي.

«ليس هناك فرصة للإفلات، على كل حال ليس هناك صاحب حلو لك الليلة يا ميدو»!

- طيب.

نزل من مقعده العالي متلكعًا، وهي تجذبه من معصمه حتى استقر واقفًا.

تأبطت ذراعه، وأسندت رأسها إلى كتفه، وقالت غير يائسة:

- سامية هربت من وشي يا نعيم، وخالد مش باين له أثر.. بس هيروحوا مني فين؟
- آه.. هيروحوا منك فين؟!

وهما متجهان نحو الباب الفاتح على شارع قصر النيل، مسحها من كعب حذائها إلى صدرها العاري، وقال باحتجاج خافت، وهو يضع يديه في وسطه:

- هتخرجي للشارع كدا؟
- لا طبعًا يا فالح.. هنعدي نجيب الجاكت من على الشماعة في الاستقبال.

في طريقهما إلى حامل المعاطف، سقطت عيناها على المسرح الصغير المنطفئ الأنوار، فتذكرت الصبية التي رقصت فوقه وصلات.

«حتى البنت الغجرية ستصبح نجمة مشهورة! كتنا نيلة في حظنا الهباب».

ازدادت ضغينتها نحو كل ما تحت سقف العروس، وخطرت ساخطة، معلقة بإبط النعيم.

كان خالد عبد الباري في حجرة سماهر، لا يعرف كيف يخبرها بأمر السيد، وكلام المستر، وكان غضبه شرسًا لكنه كتمه في نفسه كما يليق بكهل غزا الشيب شعره، وانتشر.

«كثيرون في العروس يقومون بمهمة الترفيه عن السيد عمر، وإيناس وحدة لياليه، وتوصيل الشابات إليه، ولم أكُن ولو لمرة واحدة واحدًا منهم، فلماذا يطلبون مني هذا الليلة»؟!

كانا قاعدين، ساكتين، ترفع إليه وجهًا يملؤه الفضول، مستديرًا وطريًّا كوجه طفلة، وفمه مغلق، والكلمات تعبر صفحة ذهنه: «هؤلاء الناس لم يعودوا بشرًا، صاروا وحوشًا يا صغيرتي الساذجة.. هؤلاء الـ...»

تأمل وجهها فطال تردده، وازدادت شفقته: «هل ستدرك معنى ما ستسمع؟»

بعد صمت تنحنح كمن يجلو صوته، وقال بنبرة حزينة إن «العروس» ليست جميلة جدًّا كما تبدو في الظاهر، هناك أشياء أخرى لا يمكن أن تخطر بالبال.

– فعلاً؟!

– فعلاً.

– زي إيه؟

أبعد عينيه عنها، وقال إنه قد يُطلَب منها أشياء وأفعال غير الرقص!

– نعم؟!

حدست ما قد يكون وراء كلماته مصدومة. وضعت ساقًا على ساق، ورفعت رجلها العارية القدم في اتجاه وجهه، وراحت تهزها، واكتسى وجهها بجدية وقورة مثل جدتها «مسألش»، سحَّارة عزبة سوبك التي سكبت في أذنيها الكثير عن خبث الناس ولؤمهم، منذ كانت في اللفة.

قالت وهي مأخوذة كأنها تحدث نفسها إنها ليست لمثل هذه الأعمال المعيبة، ولم تكُن يومًا من الساقطات ولن تكون أبدًا من «البنات الشِّمال»:

– فاهم؟!

– ...

ارتفع صوتها:

– بالعربي الفصيح أنا فنانة استعراضية وبس يا أستاذ.

هدأ سخطه في صدره.

قالت، معتدة بنفسها، إنها تحب الرقص، مفتونة به، عاشقة له، والرقص فن بديع:

– أنا برقص من وأنا في اللفة، وبلبس بدلة الرقص زي ما ... زي ما السبَّاحة بتلبس زِي العوم.

قفزت الكلمات من دماغها الصلب إلى لسانها الطويل:

- بلبس بدلة الرقص عشان أرقص لجمهور، ستات ورجالة، مش عشان أرقص لراجل واحد بعينه، وبرقص على مسرح مش في أوضة نوم يا أستاذ يا محترم.

ابتسم لها في لطف.

قالت حالمة كأنها ترى مصيرها المنتظر، الذي لا تتصور لنفسها مصيرًا غيره، إنها ستصير نجمة شهيرة، يعرفها كل الناس، ويقدرون فنها، وستحقق نبوءة «مسألش»، وإنها ستصبح يومًا ما أستاذة في فنها، مثل الراقصات العظيمات اللاتي عرفتهن هذه البلاد.

«بنت غريرة وساذجة لكنها مثيرة للإعجاب».

عادت إلى النظر إلى ما بين قدميها العاريتين، وطفح وجهها بأسى مرير، وهي تقول إنها حتى الآن، وبعد سنوات من العمل في «البلبل»، ما زالت راقصة مغمورة، ولكن هذا لا يعني أنها لن تصير نجمة، ولا يعني أن بإمكان أحد تدمير أحلامها، وأكلها حية.

- ما اتخلقش لسه اللي يقدر ياكلني.. أنا حفيدة مسألش السحَّارة يا أستاذ!

مثل مراهقة عنيدة تتحدى أباها الطيب، الذي لا يعرف شيئًا عن عالمها السري، شرحت للأستاذ أن الرقص سلاح في يد كل أنثى، السلاح الأفتك الذي تملكه فتاة فقيرة وضعيفة مثلها.

- بتبُص لي باندهاش كدا ليه؟

«بنت سابقة سنها بكتير».

رأت ذهوله على قسمات وجهه:

- ما تستغربش.. أنا معايا مؤهل عالي، ومثقفة.

- إيه؟!

- ليسانس في علم الاجتماع، وبحب القراية زي الرقص.

ازدادت دهشة الأستاذ خالد، وقد ظنها أمية ككثيرات من راقصات ملهى البلبل.

- أنا يا أستاذ خريجة خدمة اجتماعية.. الكلية اللي في المنيل.. عارفها؟
- عارفها.

قالت إنها تعلمت الكثير عن اجتماع البشر في كل مكان وزمان، وإن الرقص فن قديم قِدم الإنسان، كانوا يرقصون في المعبد نفسه، والراقصة كانت كاهنة مقدسة، والرقص له وظائف اجتماعية كثيرة، ويمتع ويبهج.

- الرقص فن عظيم، وخدمة للناس.
- جميل.

كأنها لم تسمعه هامت:

- الرقص حياة، كل الكائنات الحية بترقص، وبتحب الرقص، الأموات بس هما اللي ما بيرقصوش، ولا بيحبوا الرقص.

ضحك من أعماق قلبه:

- ما كنتش أعرف إنِّك فصيحة قوي كدا.

جادة قالت:

- وأديك عرفت.. عايز مني إيه بالظبط يا كابتن؟
- مش أنا اللي عايز يا سماهر.
- مش إنت! أومَّال مين؟

أخبرها بما قاله أسعد لطيف، وما يريده السيد عمر عبد الظاهر، وسكت. أنزلت ساقها من فوق الأخرى ووقفت مواجهة له، ونظرت في عينيه مباشرة، وقالت بإصرار:

- لازم أبقى نجمة كبيرة، مشهورة جدًّا.

قام من مجلسه، اقترب منها وربت على كتفها، كأنه لم يسمع جملتها الأخيرة. قال إن عليها أن تهرب مسرعة من هنا، وتذهب إلى بيتها وحضن جدتها، وألا تأتي للرقص هنا مرة أخرى مهما أغروها، فالرقص هنا ثمنه غالٍ جدًّا، وعليها أن تفهم أنها إذا رقصت هنا فستصير يومًا ما مشهورة ونجمة كما تحلم، ولكنها أيضًا ستصبح من «البنات إياهم»، وأنها إذا فعلت هذا الليلة فستفعله كل ليلة، الليلة يطلبها السيد عمر عبد الظاهر، وغدًا يريدها ثروت بك، وبعده ... وبعده.

- دي هتبقى عربخانة يا بنتي!

قالت بخبث الغازية:

- ممكن تكون غلطان والراجل عايزيني عشان أرقص له بس.

ضحك بمرارة:

- عربيته مستنياكي بره.. براحتك.
- وإنت مش هتوصلني؟

بلا تفكير رد بكلمة قبيحة جدًّا:

- أحـ...

ضحكت الغازية اللئيمة الكامنة في سماهر الراقصة.

قال بنبرة قاسية:

- ما تضيعيش وقتي.. عربيته بره مستنياكي.

تحدَّته باستهانة:

- هئ.. طب وإنت هتعصى أمره كدا عادي؟

قال بحزم:

- دي آخر ليلة ليه هنا.. آخر ساعة.

حدقت في وجهه مندهشة، ومعجبة بالمِتردوتيل الذي لا تعرف عنه الكثير.

وهو خارج من حجرتها قال برقَّة:

– خلي بالك من نفسك يا.. يا أستاذة.

وخرج مغلقًا الباب خلفه في رفق.

صارت حبيسة كأنها هرة في قفص، تتحرك وتدور حول نفسها، وفي رأسها العنيد تدور أفكار: «ليه يا رب؟! كلهم عايزين ياكلوني، وحدك شايف وعارف.»

فرت من عينيها دموع من أُصيب بسهم نافد، وتقلب في دماغها كل ما وقع لها الليلة. إن ذهبت إلى فيلا السيد عمر عبد الظاهر فستُسجَن في «العروس» إلى الأبد، ستكبر وتصبح مشهورة ومطلوبة، ومن الرقص ستعبر إلى التمثيل في الأفلام السينمائية، وستظهر على شاشات الفضائيات، وستحصل على مئات الآلاف، لكنها ستفقد عذريتها، وحريتها وفنها.

كانت تفكر وتقاوم الإغواء: «أرجع البلبل؟»

في «البلبل» لا تحصل على الكثير من النقود، ولكن المدير لم يدعُها إلى سريره، بل على العكس كانت محمية مثل جوهرة في صندوق قطيفة، وليس هناك من يريد أن يسجنها في كنفه، ويقيدها بقيود من حديد، وليس هناك من يرسل إليها قوادًا ليقودها إليه.

«اعمل إيه يا جدتي»؟

تحت سقف الحجرة الضيقة تردد صوته: «هذا آخر يوم لي هنا، آخر ليلة في العروس.. وأنتِ لا تأتِ للرقص هنا مرة أخرى أبدًا.»

نطقت وهي تجمع بدلها وإكسسواراتها وتحشو بها حقيبتها:

– يا خسارة.. فرحة ما تمت يا سماهر.. أمرك لله.

تذكرت، فهبدت بيدها صدرها:

- والعقد اللي مضّاني عليه مستر أسعد، ومضيته وأنا مغمضة وفرحانة؟ يا نهار أسود هيكون فيه إيه؟

سرت مرارات في عروقها وشرايينها، وانتشرت في جسدها، الذي كان يبدع في فنه، وينثر النشوات في «العروس» منذ دقائق قليلة.

«لكني سأرقص على كل حال، في أي مكان آخر، في داخلي رقص دائم، كل خلية في جسمي ترقص، عقلي يرقص، خلايا مخي تهتز في جمجمتي، بطني ووركي حتى مشطا قدمي، روحي ترقص.. آه لو تعرفون ماذا يعني أن يكون لك جسم راقص يا ناس؟ يا خرابي.. العقد عند مستر أسعد».

أعلى الدرَج المؤدي إلى الطابق السفلي، ظهر مستر أسعد وفي يده نصف سيجار غليظ مشتعل، ألقى نظرة على الصالة والزبائن الباقين، وحسبها مع نفسه، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة: «فاز من لم يبقَ لوقت أطول، وحاسب بالأسعار القديمة للأسف، لكن كثيرين ما زالوا يأكلون ويشربون وسوف يدفعون بالأسعار الجديدة.»

تجول كطاووس، منفوش الريش، يدخن وينفث الدخان من حوله وهو يختلس النظر إليها، ازداد افتتانه بها، وحنق عليها لما رأى كرسيها قد تزحزح من مكانه، وصار إلى جوار مقعد مطر، يفصل بين جسديهما سنتيمترات قليلة فحسب. كتم غيظه وانفجاره وهو يرى يد مطر وأصابعه الطويلة تمسد شعرها وتداعب كتفها، وهي تميل إليه تكاد تضع رأسها على صدره، تكاد تكون في حضنه.

«هذا الشخص يجب أن يُطرَد من هنا، إلى الأبد».

هرول نحوهما، وبين رأسيهما وقف. أحست بوجوده فتراجعت بظهرها إلى الخلف، واعتدلت في جلستها، دون أن ترفع عينيها إليه.

أخرج سيجاره من فمه، وقال بنبرة قاسية:

- ممكن دقيقة يا دكتورة نانيس؟

سألت في سخط:

- فيه إيه تاني؟
- دقيقة يا دكتورة.. دقيقة من فضلك.

غاضبة قالت:

- مش قايمة من مكاني.

حوَّل رأسه جانبًا، ونزع سيجاره من بين شفتيه، وبصق بصقة قصيرة، وعاد فوضع طرف سيجاره مرة أخرى في فمه، وراح يشعله من جديد بولاعته الحمراء، وحدج مطر بنظرة في برود الثلج.

قام مطر من مقعده، وربت على كتف نانيس، وهمس لها إنه ذاهب إلى الحمام. جلس مكانه مسرعًا، وانحنى نحوها قليلاً، ونظر في عينيها مباشرة:

- الموضوع دا لازم يخلص، والليلة.
- موضوع إيه؟
- جوازنا، جوازنا يا دكتورة.
- جواز إيه؟!
- جوازنا أنا وإنتِ!

زفرت ساخطة زفرة طويلة، ولم تقُل شيئًا.

بنعومة كرافتته الحريرية همس:

- أنا بحبّك.. بحبّك يا نانيس.
- ...
- أنا عندي كل شيء، عندي الفلوس والبرستيج والحماية، عايزة إيه تاني؟!
- ...
- نانيس.. اسمعيني وافهمي كلامي كويس.. الجدع دا لا من دينِك، ولا من

طايفتِك، ومستحيل تتجوزوا، مستحيل يحصل وأنا حي، مستحيل.

- ...

هزَّ نصف سيجاره بين إصبعي السبابة والوسطى كأنه يهددها:

- إلا بقى لو ... لو غيرتي دينِك.

بلا وعي احتجت، رافعة صوتها:

- أغيَّر ديني؟!

كان وجهه قد تحول إلى كتلة نار تنذر بكل شر.

- طبعًا، أومَّال هتتجوزي واحد زيه إزاي؟!

حدقت فيه بلا خوف:

- إنت عايز إيه بالظبط؟

همس:

- عايزِك.. عايزِك إنتِ.

ابتسمت ساخرة:

- إنت عايز أسهمي في العروس، وورثي من بابا، وجسمي فوق البيعة.
- تملكي! تملكي إيه؟! سيادتِك مش واخدة بالِك، إنتِ تقريبًا بقيتِ على الحديدة، لا أسهم ولا أملاك، إنتِ أفلستِ خلاص، ومش ناقص غير إعلان إفلاسِك، بورتوستو يا دكتورة.

غير مصدقة ما تسمع:

- إنت كداب.
- أنا كداب؟! أنا عايز أنقذِك يا حبيبتي.

سكتت دقيقة، وكانت عيناه متشبثتين بشفتيها.

حاولت تغيير الموضوع برمته:

- إيه حكاية الأسعار الجديدة دي؟

قال بلهجة من يقرر الحقائق الكبرى:

- الأسعار الحقيقية، وعشان ما يبقاش فيه خساير السنة الجاية يا دكتورة، وقريب جدًّا هيبدأ عصر الركلام في العروس، إحنا بنحافظ على اللي بقي من أسهمِك يا دكتورة.
- ريكلام! ريكلام في العروس؟!
- ما تستغربيش، كله عشان مصلحتِك.
- مصلحتي؟
- طبعًا، مصلحتِك، ومصلحة كل الملّاك.
- أسعد.
- نعم.
- ممكن تسيبني في حالي؟
- مش ممكن أبدًا.. دا أنا بحبّك يا نانيس.

تطاير شرر من عينيها وصاحت به:

- من فضلك سيبني لوحدي.
- مش قبل ما أرسّيكِ يا دكتورة.
- ...

تحول وجهه إلى وجه شحاذ جائع وهو يقول:

- كل شيء هيتغير في العروس، والرقص واللعب هيبقى كل ليلة، والملايين جاية جاية.
- ...؟!

ضحك ملء شدقيه.

- ومش هتلاقي حد قلبه عليكِ غيري.

- نعم؟!

قال يغيظها للنهاية:

- وما تفتكريش إني ما كنتش أعرف الرقاصة.
- رقاصة مين؟

تخابث أسعد كأنها يقصدها هي:

- الرقاصة اللي كانت بترقص!
- ...

ابتسم بجلافة:

- البنت اللي كانت بترقص هنا من شوية.

رفع يده وأشار إلى المسرح الصغير الخاوي من كل شيء.

- اسمها سماهر، عارفها من زمان، من أيام كباريه البلبل، ولما كانت بترقص بضفيرتين!
- وأنا مالي، بتقول لي أنا ليه؟
- أبدًا عشان تعرفي إن العروس هتبقى ملهى.
- كباريه؟
- طق طق خالص، هتبقى ملهى فاخر، وكازينو عظيم.

وقال إن رخصة نادي القمار المزمع إنشاؤه في العروس وصلت أخيرًا، وإنه سيُقتطَع جزء من الصالة الكبرى ويُقام نادٍ بها، على غرار نوادي لاس فيجاس، ومونت كارلو، نادٍ للخاصة والكبار جدًّا فقط.

وضعت وجهها في المنضدة أمامها بعيدًا عن وجهه، وكلماته.

- أنا بحبّك بجنون.

رفعت وجهها وحدقت فيه ساكتة، وفي ذهنها يجري: «الماديون لا يعرفون الحب، ومن يبحثون عن السلطة لا يسمعون حديث القلوب.»

- ...
- آن الآوان يا نانيس، مش قادر أصبر عليكِ أكتر من كدا.
- ...
- نتجوز.
- تاني؟ إنت إيه؟ ما بتفهمش؟!
- شوفي أنا تعبت وبتعذب.
- إنت آخر واحد ممكن أرتبط بيه.
- طق طق، إنتِ ليه ب...
- يوووووووه!
- أنا اتكلمت مع السيد عمر وهو يتصرف بقى.
- عمر بيه؟

قالت، وهي تهز رقبتها الطويلة الرشيقة يمينًا ويسارًا، بعزم راسخ:

- مستحيل يا مستر أسعد.

قام من مقعده وحاول أن يربت على كتفها، فأزاحت يده قبل أن تصل إليها.

بسماجة مفرطة ردد:

- كل سنة وإنتِ طيبة.. هابي نيو يير.

ووضع ما بقي من سيجاره في المنفضة، وسط المنضدة، وتركه مشتعلاً، ومضى.

١٢

خرج خالد عبد الباري من باب حجرة سماهر وقد أزاح عن صدره الثقل المريع الذي دخل به. ألقى نظرة فاحصة على الصالة الكبرى، لم يرَ «مطر» جالسًا مع نانيس في ركنهما، لم يجد سوى أسعد يواجه نانيس بجسد مشدود ويد مرفوعة بنصف سيجار غليظ، يلوح به أمام وجهها. تعكر مزاجه من جديد، وأحس ثانية بقدميه ثقيلتين، رفع يده اليمنى ونترها في الهواء ساخطًا:

- صفيق.. صفيق.

أعطى ظهره للصالة، وخطا على سجادة الطرقة يكاد يعرج ويتعثر وهو ينقل قدمه أمام الأخرى.

كانت الحركة في المطبخ هادئة حين اجتاز العتبة، عقد يديه خلف ظهره وحدق في الرخام تحت قدميه، ثم رفع رأسه وتطلع إلى ما حوله، كأنه يدخل المكان للمرة الأولى. رأى، كمن يلمح أشباحًا وغيومًا، ثلاثة طباخين أمام ثلاثة مواقد يتصاعد منها بخار كثيف، يواصلون الطهي بأيدٍ سريعة الحركة، وسفرجية كثيرين يعودون حاملين صوانيهم بأطباق فارغة، وقليلين يخرجون بأطباق ممتلئة.

وأمام الموقد الكبير ذي العين العملاقة، كثيرة الثقوب، كفوهة نار أزلية، بدا له الطباخ القديم، «برسوم» قصير القامة، طويلاً كسارية، على رأسه طاقيته البيضاء العالية، وثوبه الأبيض ناصعًا، شفافًا كهالة ضوء تحيط به، وفي يده مغرفة خشبية طويلة يقلب بها الأرز في آنية ضخمة.

كانت يده تدور حين ثبتت عينا خالد على مؤخرة رأسه: «وأنت، ما الذي يدور في رأسك يا برسوم الطيب؟ ماذا ستفعل وقد أتاك حمُّو الترسة؟!»

تحرك من وسط المطبخ إلى ركنه المعتاد، وقعد على كرسي قديم ككراسي المقاهي، وخلفه باب حديدي من ضلفة واحدة، يفضي إلى الخارج، إلى ممر ضيق يفصل عمارة العروس عن بناية البنك الحكومي المجاور.

وضع يديه على فخذيه، ونظر إلى جرم برسوم. خمَّن حال رفيق كفاح أبيه، فتصاعد في داخله المضطرب إشفاق على العجوز، الذي كان يواصل التقليب باستغراق، كأنه واليد الخشبية والأرز كيان واحد، يدور في فلك خالٍ.

نزع البيبونة الحمراء عن ياقة قميصه، ووضعها في جيب سترته، فتح زر قميصه الأعلى، وأدخل يده في جيب داخلي، وأخرج دفتره الأخضر، وقلمه الرصاص، وراح يكتب.

هل يستطيع خالد عبد الباري أن يفعل ما قاله لـ«سماهر» حقًّا؟ هل يجرؤ على ترك عمله في العروس ويذهب بعيدًا عنها إلى نهاية عمره؟

من قبله كان أبوه ساقيًا فيها، ووطئتها قدماه للمرة الأولى وهو طفل.

ذات مساء بعيد، دخلها قابضًا على يد أبيه، كبيرة الراحة، ورفع رأسه، غزير الشعر، ونظر في زهو إلى وجه أبيه الباسم، وإلى اليد التي ترتفع في الهواء بتحية كل من يلقى:

– مساء الخير.

– مساء النور يا عم عبده.

يبتسم ويبش ويعيد يده المرفوعة ويمس بكفه موضع قلبه ممتنًّا.

وكان الولد يدير عينيه مبهورًا، مأخوذًا بالسقف العالي واللوحات على الحوائط، بالمناضد والكراسي، وبالرجال المتأنقين في بدلهم الفاخرة، والنساء، لامعات الوجوه، عاريات الأكتاف، طويلات الشعور.

في الصالة الكبرى قال لأبيه:

- الله.. حلوة قوي العروسة دي يا بابا.

ضحك:

- اسمها العروس يا خالد.. العروس.

لم يرَ أطفالاً خلال رحلته في يد أبيه من الصالة إلى المطبخ، فازدادت بهجته وهو يدرك أنه الطفل الوحيد في المكان الساحر.

في المطبخ، أكل من يد العم برسوم طبق حلوى رائع الألوان، لذيذ الطعم، لا يعرف اسمه.

- اسمه إيه دا يا عمو؟

قال العم برسوم:

- صوابع زينب يا حبيبي.
- حلوة قوي يا عمو.
- بالهنا والشفا يا ابن الغالي.

وفي تلك الليلة، في المطبخ نفسه، ذاق رشفات من مشروبات مُرَّة ومُسكِّرة قدمها له النُدَّل ضاحكين، فبلع المرارة في حلقه وضحك معهم. شم روائح خلابة غريبة ومختلطة، وسمع كلمات ودودة، ولعب، وضحك حتى بكى وهو يغادر العروس في يد أبيه قبيل الفجر.

تذكر أنه بكى في تلك الليلة مثلما عيَّط في النهار حين أنزله أبوه من فوق فيل الركوب في حديقة الحيوانات، حيث رأى الأشياء صغيرة جدًّا وجميلة للغاية مثل قطعة حلوى ملونة.

ربما لو لم يتشبث بأبيه في ذلك المساء وهو ذاهب إلى عمله، ولم تصِح أمه: «بالجملة.. ما تاخده معاك يا عبده، هيجرى إيه يعني؟» ربما لو لم تلح أمه لما كان قد عرف هذه «العروس»، ولا عمل بها بعد ذلك، وهو في أولى ثانوي.

لم يخرجا من الباب الذي دخلا منه، غادرا من باب مطبخ العروس، الباب الذي مد يده ومسه الآن، كأنه يتأكد من وجوده خلف كرسيه.

«لم يزَل موجودًا، وصلبًا».

تبسَّم وهو يلمح طيف أبيه ينظر إلى ما يصنع برسوم الطباخ.

في العروس قضى معظم سنوات عمره، وبعد أن مات في سريره في شقة السيدة، لا بد أن روحه طارت، وجاءت إلى العروس، وسكنت في هوائها، وفي كل موضع، وقطعة أثاث فيها.

تمتم خالد عبد الباري دون أن يشعر:

- ألف رحمة ونور.

توقفت أيدي الطباخين للحظات، وتوجهت نحوه عيون متسائلة، وحده برسوم ردد خلفه عارفًا:

- ألف رحمة ونور.

هل يستطيع أن يترك العروس، هكذا ببساطة، لمجرد أنهم قالوا له «أوصل الراقصة إلى فيلا السيد عمر»؟! ألم تأتِ من أجل أن ترقص؟! ألم يكُن هو ومطر من جاءا بها أصلًا إلى العروس ورشَّحاها للعمل؟

ثم.. من أين ستأتي النقود، ومعظم الدخل يأتي من العروس؟

من سيدفع لـ«سامية» أقساط الشقة، والأثاث، ومصاريف المدارس والأولاد؟

«أعمل إيه»؟

عند رأسه ابتسم بندق، والبخار يتصاعد من صينيته الممتلئة بالأطباق فوق كفه العريضة:

- كتبت إيه يا كابتن؟

دون أن يرفع عينيه إلى وجهه قال بنبرة ودية:

- روح شوف شغلك يا بندق.
- الناس كلها بتسأل إنت بتكتب إيه بقى لك سنين؟!
- وإنت مالك؟!

زعل حين رأى الغضب على وجه الكابتن.

- روح شوف شغلك.

ابتسم وقد انفرج وجه الكابتن، ولم يعُد غاضبًا.

- حاضر.. أمرك يا كابتن.

قبل أن يخرج حاملاً الصينية فوق راحة يسراه، مد أصابع يده اليمنى إلى شفتيه، وطرقع بقبلة:

- والله بنحبك يا كابتن.

ابتسم الكابتن من ظُرف بندق.

«هل تستطيع فعلاً أن تتركَ كل شيء خلف ظهركَ، وليكُن ما يكون؟ ماذا ستفعل بسامية وندى وكريم؟! وبالمصائب القادمة لا محالة؟ وهل ...»؟

رفع قلمه، وأغلق دفتره ووضعه في جيب سترته حين وضع برسوم يده على كتفه:

- وحدووه.

وسحب مقعدًا، مستدير القرصة، بلا ظهر، من جوار الحائط، وجلس.

- تصوَّر.. امبارح رُحت أزور هاني في الدير ما رضيش يخرج من قلايته!

مستاءً سأل:

- ليه؟
- ولا حتى كلِّف خاطره ونزل يسلم عليَّ!
- إزاي الكلام دا؟!

– أهو كدا.

وسكت طويلاً، شاردًا.

بعد مشاجرة مع طلحة أبو درقة، في صيدلية «المحبة» التي كان يعمل بها، هجر الدكتور هاني برسوم السيدة، وسافر إلى الصعيد، ودخل دير «المحرق» وطلب الرهبنة. لم يعرف أحد لماذا حدثت المشاجرة، ولا سبب ذهاب طلحة إلى صيدلية المحبة، وهو الذي يتجنبها كأنها رجس من عمل الشيطان، فقط عرفت السيدة كلها أن الدكتور الطيب، ابن الحلال، دخل الدير.

– بقى لي سنة ما شُفتوش يا ابني.

لمعت عينا برسوم بدمع حبيس، فامتدت يد خالد تربت على كتفه.

– صلِّ ع النبي يا عم برسوم.

– عليه الصلاة والسلام.

ران بينهما صمت.

«دخل هاني الدير لكنني لن أجد ديرًا أعيش فيه متوحدًا. ليس لك دير يا أستاذ ما دام ذهنك مشغولاً بكل هذه الدنيا».

مد برسوم أصابع قصيرة تلمع أظافرها المقصوصة بعناية إلى تحت عينيه، وبأنامله تأكد من جفاف دموعه:

– هاني مش عايز يشوف وشي.. كل ما أروح له زيارة ما ينزلش، سُقت عليه أبونا إسحق رئيس الدير، ومفيش فايدة.

لم يجد ما يُطيِّب به خاطره.

– آخر مرة شُفته فيها قال لي إنت خاطي، بتطبخ للخاطيين، وبعيد عن طريق ربنا، بتشتغل في ماخور، وبتقدم الخمور للسكارى، لازم تسيب الشغلانة دي، وترجع لطريق يسوع، طريق العفة والفضيلة، توب.. ولما تتوب وتسيب شغلانتك

دي ابقى تعالى لي.

نهنه برسوم وهو يقول إن الولد لم يعُد يحمل اسمه، غيَّره وأصبح «سمعان المقدسي» بعد أن صلوا عليه صلاة الموتى.

- ياه.. بعد كل هذا العمر وبعد ما أكل وشرب من خيري، بعد ما علمته ودخلته كلية الصيدلية، وبقى دكتور يقول إني كافر، مليش دين!
- هو دخل الدير بسبب خناقته مع طلحة أبو درقة؟

ابتسم برسوم من بين دموعه:

- أبدًا.
- أومَّال؟

طافت ابتسامة خافتة بوجه برسوم:

- هاقول لك.. بس دا سر يا ابني.
- قول يا عم برسوم.
- هاني دا اللي بيحاسب أبوه دلوقتي كان بيحب.
- وفيها إيه دي يا عم برسوم؟
- مفيهاش يا ابني، بس كان عايز يسيب دينه عشان يتجوز اللي بيحبها.
- وبعدين؟
- وبعدين هي اللي ما ادِّتلوش ريق حلو، ما كانتش شايفاه خالص أصلاً.
- ودا اللي دخَّله الدير؟
- مش عارف. بس دا موضوع قديم، القصد، هو نسي إنه اللي بيحب ما يكرهش يا ابني، وأهو نسي وكره الدنيا كلها، حتى كره أبوه. كان مالها أجزخانة المحبة اللي كان شغال فيها، كانت ستر ورزق، وكان مصيره هيتجوز ويخلف عيال، زي كل الناس.
- عم برسوم أنا عارف إنك عمرك ما كذبت عليَّ.
- وأكدب عليك ليه يا خالد؟

- مين اللي كان هاني بيحبها؟
- يا ابني دا موضوع قديم قوي.
- حابب أعرف بس، مين يا عم برسوم؟

نظر برسوم في عيني خالد مباشرة، وابتسم ابتسامة واسعة:

- كان بيحب أجمل بنت في السيدة زينب.
- عم برسوم؟
- أحلى بنت في حارة السيدة زينب القديمة.

ضحك خالد:

- إنت شرير يا عم برسوم.
- اللهم نجِّنا من الشرير.
- كان بيحب سامية يا عم برسوم؟
- قلت لك يا ابني، ولا مرة ادِّت له ريق حلو.

وقبل أن يقوم برسوم إلى حوض المطبخ ليغسل يديه ووجهه:

- واللي حبها بعدها خدها صاحب النصيب.

تنهد خالد مرتاحًا، لم يشعر بغيرة، شعر فقط براحة واطمئنان.

«لقد أحبَّتني الفتاة الأجمل في حيِّنا، اختارتني أنا.. هه، وعذبتني كما عذبت غيري».

قام برسوم ليقلب الأرز في الحلة العظمى: «لكن لماذا يا رب أخذت هاني مني؟» وعاد خالد عبد الباري يقلب في رأسه: «ماذا سأفعل معها؟»

كانت سامية خلف العجلة السوداء في سيارتها تسير في الجهة اليمنى من شارع الهرم، تمرق السيارات عن يسارها مسرعة، وهي تقود ببطء، مبتهجة بخلو الطريق أمامها، غارقة في أفكارها، تجتر ما جرى بينها وبين خالد تحت سقف العروس العالي.

«أيوه.. لازم أرجع بيتي في كل الأحوال»!

وخلفها كان شاهين في سيارة مطر يتابعها عن قرب، لم يخشَ أن يصير قريبًا منها، فهي لا تعرف سيارة مطر، وتلفيعته حول وجهه تكاد تخفي وجهه كله إلا عينيه، اللتين تراقبان كل لفة من لفات عجلات سيارتها، وكان سعيدًا لأنه يعرف إلى أين تمضي بنت بشندي.

«راجعة بيتك يا بنت الناس.. عفارم».

– جدعة يا بنتي.

لفظها شاهين عالية كأنه يريد أن تسمع مديحه لها، لكنها لم تسمع، ولم ترَ.

من أين لها أن ترى عينيه الحانيتن، الممتلئتين شفقة وخوفًا عليها؟

كانت سامية تتقدم، وخلفها شاهين، حين توقف تاكسي أبيض في شارع قصر النيل، قبالة عمارة العروس، وبه شخصان يتشاجران.

– انزل يا عنتر، وإياك تقول لسماهر إنك ركبت معايا من العزبة.. إياك تجيب لها سيرتي خالص، فاهم؟

زغده السائق، ضخم الجثة، في جنبه، فابتسم بغلظة، ومد يده وفتح باب التاكسي:

– بالراحة يا قدري، خليك حليم.

كان «قدري السواح» يرتدي جلبابًا بنيًّا وفوق رأسه طاقية من صوف ثقيل، له شارب أسود منثور الأطراف، وجسد سمين بكرش ضخمة، تملأ الفراغ بينه وبين تابلوه سيارته، قديمة الموديل.

– اتهوَّى، وابعد عن عربيتي خالص.

– ما يجراش حاجة يا سواح!

على رأس الممر الضيق بين عمارة العروس وبناية البنك المجاورة، وقف «عنتر السنَّان»، استند برجله إلى الحائط خلفه، ووضع يديه داخل جاكت رخيص من بوليستر لمَّاع، وجهه بيضاوي بعظام بارزة كأن لا لحم يكسوها، تقريبًا بلا

حاجبين، خيطين من شعر قصير للغاية، وأنف طويل، شعر رأسه غزير، وفوق شفته العليا شعرات متناثرة، وتحت ذقنه وفوق خديه بقع من شعر خفيف، وندوب غائرة، ومن تحت حاجبيه تطل عينان حمراوان مدورتان كبليتين من زجاج سميك.

كان في وقفته يبتسم للاشيء أمامه فيبدو كأنه يبكي، طويلاً مثل باب ونحيلاً مثل عرق خشبي اجتُثَّ من شجرة قبل قطعه.

كان ينتظر أن تخرج سماهر إلى الشارع. يعرف كيف تنظر إليه، كيف تراه، وما تقول عنه، العزبة كلها تعرف، لكنها له في كل الأحوال وهو مصيرها، مثلما الموت هو مصير كل حيٍّ.

اقتربت منه خطوات وئيدة.

رفع الهرواي صوته:

– واقف عندك بتعمل إيه؟ إنت مين؟

أخرج يديه من جيبيه، وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة بأسنان صفراء وسوداء:

– أنا عنتر، خدامك عنتر السنَّان يا هراوي باشا.

نظر إليه من فوق إلى تحت وهو يقترب منه.

عنتر السنَّان يأتي عصر كل جمعة ليأخذ السكاكين والسواطير وأدوات المطبخ التي تحتاج إلى السن، ويعيدها بعد يومين.

«لماذا جئت الليلة على غفلة يا حمار»؟

وعلا صوته:

– إيه اللي حدفك علينا الليلة ياَلَهْ؟

ابتسم السنَّان ابتسامة لزجة كمطاط أسود، وهو يرى الهراوي المقبل نحوه شبحًا ضئيلاً يمشي على أربع، جديًا صغيرًا يتقافز مقتربًا منه. كاد يقهقه مما

يرى. قبل أن يأتي بلع قرصين يجعلان مزاجه عاليًا، والدنيا ملعب كبير تلهو فيه أشباح، لا ملامح لهم، كل شيء حوله أبيض وأسود ولا وجود للألوان، لا لون سوى لون سماهر الخمري، التي جاء من أجلها.

انحنى قليلاً حين صار الهراوي أمامه:

- أهلاً يا باشا، أهلاً.

١٣

طأطأ عنتر السنَّان رأسه حين وضع الهراوي يده الغليظة على قفاه، ثم سحبها وأسكنها على كتفه النحيلة. تضاءل جسده وانكمش، ومع كل كلمة تخرج من فم الهراوي كان يهز رقبته في ضعة، ويتلقى نقرة مؤلمة على عظمة كتفه الناتئة:

- اصحى معايا يا عنتر.
- مفهوم يا باشا.

على الرصيف المقابل من شارع قصر النيل، كانت هايدي متدثرة بجاكتتها القرمزي، تقبض على ساعد ميدو، وتطرق الرصيف بكعبها العالي بخطوة متعرجة، وجسد يترنح مستندًا إلى جنب النعيم، ودفء جسده.

سألها ميدو بعينين غائمتين:

- عربيتك فين؟
- في جراج التحرير.
- راكنة بعيد كدا ليه؟

هزت كتفيها بلا مبالاة.

- هنمشي دا كله؟

تدلعت:

- اللي حصل يا ميدو.
- خلاص سيبيها مكانها، ونركب عربيتي، أنا راكن في جراج البستان.

ونزلا إلى نهر الشارع يترنحان.

رفع الهراوي رأسه وتوقف عن همسه لعنتر، ثبت عينيه على قدمي زبوني كل ليلة اللذين يعبران الشارع، يقيس درجة سكرهما: «لسه شوية.»

وعاد إلى نقر كتف عنتر:

- واخد بالك يا حمار؟

همهم عنتر هازًّا رأسه، وعيناه تختلسان النظر إلى سمانتي هايدي الرابيتين، تحت شيفون الجوربين.

عبَر النعيم وهايدي ملتصقة به كأنهما كتلة واحدة، لم يريا الهراوي وعنتر، ولم ينتبها إلى السيارة التي توقفت فجأة على مبعدة ثلاثة أمتار، قبل أن تدهسهما تحت عجلاتها.

عند الناصية انحرفا إلى شارع مصطفى كامل، وهايدي تتشبث بجسد النعيم، تخشى أن يفر منها. كانت بالكاد ترى ما أمامها، وميدو يتمالك خطواته بصعوبة، ويبتلع في جوفه نفوره من صحبتها.

لحظة ولوجهما شارع مصطفى كامل، توقفت هايدي، ورفعت وجهها صوب ممر العروس، ونظرت.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بدقائق قليلة، وأبو وردة وأزهار خارجين من الممر في ضوء شحيح، وفي يد كل منهما سلال بيضاء فارغة، محشور الأصغر منها داخل الأكبر.

سكنت هايدي في مكانها تحدق في «أبو وردة» وأزهار بعينين واسعتين مندهشتين، وقد خرجا إلى الرصيف، وصارا تحت عمود الإنارة القديم ذي المصباح الأصفر، فرفع النعيم عينيه عن قدميه، ونظر إلى ما تنظر.

تعلقت هايدي بوجه البنت المدور، حلو التقاسيم، وحدقت فيه فرأت إحدى رفيقات صباها: «تشبه نيللي، هي نيللي.. حبيبتي، كان لها هذا الوجه البريء، نقي البشرة.»

أفاقت فجأة من كل ما شربت:

- جميلة بنت أبو وردة، بس حزينة زي نيللي، الله يرحمها.

نظر ميدو إلى الأسى الذي طفح على وجه هايدي، وانتابه فضول.

حملق في الأب وابنته، اللذين سكنا مكانهما، ولم يكترث، لم يرَ شيئًا عجيبًا، ولا خمَّن ما يدور برأس هايدي، لكنه ظل يحدق مثلها.

ثبت أبو وردة في مكانه، لا يعرف ماذا يريد هذان السكرانان. وضع يده على كتف ابنته، ولم ينبس بكلمة، لكن عينيه كانتا تردعان هذا التحديق المريب، والنظرة الغريبة.

انكمشت البنت إلى جانب أبيها، وقد سرى في جسدها خوف مبهم.

«عرفوا اللي جرى لي جوه؟! الكلب طلحة قال لهم»؟!

تحولت هايدي إلى «أبو وردة» الذي كان ينظر إليها في جمود، ثابتًا كتمثال.

صاحت وهي ترفع يدها صوبه:

- آموووووووون.. آمووووون!

لم يتمالك ميدو نفسه فشخر، واهتز يطوح برأسه إلى الخلف. احتضنت هايدي خصره بكلتا يديها، تقيه الوقوع على الأرض، وانفجرا في ضحك سمج، تطاير في الهواء ككرات نار تلهب وجه البنت.

- آموووووووون وبنته!

قهقها في هستيرية، كمجنونين انفك عقالهما.

تحول وجه أزهار إلى وجه قطة شرسة حانقة، وضعت سلالها إلى جوار قدمها، ونترت يدها في الهواء، وزعقت فيهما:

- مالِك إنتِ وهو؟

تصاعدت القهقهات طويلة وصاخبة، وتطوح الجسدان يهتزان في حبور وقح.

لجأت البنت الذاهلة إلى أبيها صارخة:

- مالهم دول يا آبا؟!

ضغط أبو وردة على كتفها بلطف:

- مساطيل يا بنتي.. سيبِك منهم.

عبرهما أبو وردة ساحبًا في يده ابنته التي لم يهدأ غضبها، وسارا في طريقهما إلى شارع شامبليون.

- ياما في الدنيا يا بنتي، ما تزعَّليش نفسِك.

هدأت وسكتت، تغالب دموعها.

بعد خطوات، ابتسم أبو وردة لها، وقبَّل جبهتها:

- ولا يهمك حاجة ولا حد.. كلها نص ساعة ونبقى في البيت.

كانت البنت مكسورة القلب، لم تنسَ ما حدث لها داخل العروس، وكان

أبو وردة مكدودًا متعبًا من عمل بدأ في الفجر وانتهى الآن، لكن الطريق إلى بيتهم في مصر القديمة ليس ببعيد.

- هانت يا بنتي.. هانت.

من شامبليون سيعبران إلى محطة المكيروباص في ميدان عبد المنعم رياض.

خلفهما كان قد نضب ضحك هايدي وميدو للحظات حتى قال النعيم بصوت معدني، كأنه يتحدث من الفضاء:

- كل الناس هباء.. هباء.

تنططت تحت إبطه:

- حلوة هُباء دي.
- كلنا مسافرين.
- ههه.. كلنا سكرانين.

ومشيا يتساندان في عرض الطريق، شبه الخالي.

دخلا جراج «البستان» ووقفا أمام سيارته الصفراء، لامعة اللون، موديل العام الجديد.

وضعت هايدي أطراف أصابع يديها بين شفتيها، وصفَّرت.

- واو.. واو!

قال باختيال تيَّاه:

- زيرو يا شِيرِي.

قالت حاقدة:

- مبروك.

وهي تفكر أنها لم تغير سيارتها الزرقاء، التي اجربَّ لونها، منذ سنوات.

- لازم بقيت بتكسب كتير.

لم يذكر أنه اشتراها بالتقسيط، وأغاظها أكثر:

- كتير، كتير قوي، إنتِ فاكرة إيه؟

انطلقا بالسيارة الصفراء صاخبين، يضحكان ببلاهة على لا شيء، حتى وصلا إلى ميدان التحرير. كان بالميدان مجموعات متناثرة، فتية وفتيات في ملابس ثقيلة جالسين في هدوء حول سارية العلم العالي. وضع ميدو أصابعه بين شفتيه وصفَّر لهم كأنهم عجائب في أقفاص، ثم صاح:

- روحوا ناموا.. ناموا يا شوية عيال.

رفصت هايدي من الضحك إلى جواره.

جنوب جزيرة الزمالك توقفا أمام أعلى بناء يطل على النيل، فندق «البرج الدوَّار»، وتركا السيارة لحارس أمن في الجراج، وصعدا إلى الملهى الليلي في الطابق الأربعين.

كان الملهى هادئًا وقليل الرواد. تأرجحا ورقصا مع الراقصين، بلا متعة مثل آلتين من معدن وحديد حتى تعبا، تساندا حتى جلسا على كنبة جلدية سوداء متجاورين، وخلفهما، خلف الحوائط الزجاجية الدوارة التي تلف الملهى، كانت سحب وغيوم قد توقفت كأشباح وعفاريت، تكاد تجلس معهما وتختلط بهما، وكان النيل، في الأسفل، وقورًا، تتناثر على صفحته سفن مضيئة، وتعبر مجراه مطاعم عائمة، ويخوت ترسل أغاني غربية، صاخبة.

قالت بعينين حمراوين:

- عندها زوج وسيم وطفلين، وشباب وجمال، وعايزة تبقى مقدمة برامج زيي! عمرك شفت وقاحة، وجشع، وطمع كدا؟!
- لا أبدًا، ما شُفتش.. بس هي مين؟
- سامية بشندي.

ولم تقُل ما يدور برأسها.

«لماذا لم يحبني خالد؟! لماذا لم يتزوجني أنا؟ سامية أخذت مني كل شيء، أخذت الموهبة، والحضور ومحبة الكاميرا لها، إنها تظهر في الصور أجمل وأوثق مني، أنا لست موهوبة مثلها، لماذا»؟!

تلفتت حولها ساخطة، لا أحد أشار إليها أو عرفها مع أنها تقضي أوقاتًا طويلة هنا، تأتي أربعة أيام كل أسبوع، ومعظم العاملين يعرفونها.

تذهب إلى العمل بانتظام وبدقَّة ساعة سويسرية. تظهر على الشاشة، وعلى لسانها تتوالى الأخبار بوجه محايد، وحضور ثقيل الدم، تطلق النشرة من فمها كأنها تتقيأ، وتخرج من الاستوديو مسرعة. تُهرَع إلى حجرة الكوافير من جديد،

تعيد صبغ شفتيها، وتصفيف شعرها. تأخذ حقيبتها وتهرول في الطرقات، تركب المصعد إلى الطابق الثالث بالجراج، تقود سيارتها الزرقاء، وتخرج إلى كورنيش النيل، وتعبر إلى الضفة الأخرى، حيث البرج الدوَّار. تجلس في حديقة الطابق الأرضي، تشرب الكابتشينو بتلذذ، وهي تجيل عينيها في كل المناضد، تتصيد وجوه زملائها وأصدقائها لتصيح لواحد «هاي»، أو تذهب إلى أحدهم أو تأتي زميلة لتجلس معها، بموعد مع أحد أو بلا موعد تأتي للجلوس ساعتين لزوم العلاقات العامة؛ فالمكان هو ملتقى بيزنس الإعلام. لكنها الليلة تجلس في الملهى الليلي قرب السماء، ولم يعرفها أو يأبه بها أحد.

شربا المزيد حتى غامت عيونهما.

– أوف.. أنا زهقت من الدنيا دي يا نعيم.

لم يقُل شيئًا، كان مشغولاً بمتابعة شباب صغار في ركن غير بعيد.

– حتى إنت مش سامعني!

تكلمت مع نفسها: «لست على خطأ في أن أكره كل هؤلاء البشر المُعذَّبين! يجب أن آخذ حقي من الجميع، هؤلاء الذين يمنون عليَّ، ثروت الصفيق الذي يظن أنه يمن عليَّ ويعطيني ويمنحني فرصة عمري، أنا التي أتنازل وأتواضع حين أقبل الظهور على شاشته، والعمل في فضائية جديدة، مجهولة، وأنا...».

لم يلقَ ميدو تجاوبًا من الشاب مفتول العضلات، الذي غمز له مرات، فعاد بوجه خائب الأمل إلى هايدي:

– إيه؟ رُحتِ فين؟

– ثروت راجل نصاب، ووقح.

ضحك ببؤس شديد: «لا يا شيخة! آه.. البرنامج الجديد مش هيمشي؟!»

– طبعًا نصاب!

وقف وشدَّ الجاكت الجلدي الأحمر القصير يضبطه على خصره بأطراف أصابعه، وهو يتحسب لرشاقة حركته:

– قومي نروَّح، أنا تعبت، ومش عارف هاسوق إزاي.

تلعثم نطقها:

– ما.. تخلينا قا... قاعدين شوية.. مش عايزة أروَّح.

سحبها من معصمها وشدها لتقف.

غضبت ورفعت صوتها:

– الله! ما تشدِّنيش كدا.

هزَّ رأسه ببرود:

– أوكية، أنا ماشي.

وضع يديه في جيبي بنطلونه الجينز الضيق، الساقط من الخلف، وتحرك خطوتين مبتعدًا عنها.

قامت تترنح:

– استنى.. استنى يا ميدو.

تركها في جاردن سيتي أمام بيت قديم من ثلاثة طوابق، وأخذ طريقه إلى شقته القريبة، بالجهة الأخرى من جزيرة الزمالك، بشارع شجرة الدر.

ميدو النعيم غلَّف كل حوائط شقته بأفرخ من بلاستيك أبيض، وغطى الأسقف بدوائر بيضاء وزرقاء من الفلين، ونثر فوقها نجومًا من ورق مذهب، وكرات من المطاط متعددة الألوان والأحجام، والأثاث كله ألوميتال وحديد. شقته، كما أراد، مكوك فضائي صغير، يسبح به في فضاء الكون، يتحرك فيها عاريًا من كل ملابسه، ليشعر بأنه حر من كل شيء. في كل مكان لا يجد الراحة، ولا تستقبله العيون بترحاب، هنا رحم صناعية مريحة أبدعها بنفسه، لنفسه.

دخل غرفة نومه، بيضاء الحوائط والأثاث، مصاحبًا خيبة أمله. رغم كل محاولاته الليلة كي لا ينام وحيدًا استلقى بمفرده على سريره الوثير، وهدهد نفسه: «أنا أرقص أفضل من تلك البنت.. سماهر، ولكن ليس لديَّ معجبون مثلها!»

بكى طويلاً حتى سحبه النوم.

وهي تصعد الدرَج، كانت «هايدي» تفكر:

«خراب حياتي قائم منذ الأزل، منذ بداية كل شيء، من يوم أُصِبتُ بهذه الوحمة السوداء تحت عنقي، لولا شعري الطويل لفضحتني. البؤس موجود في العالم منذ وجدت نفسي في حضن امرأة حزينة، تبكي ليلاً ونهارًا، وتتعارك مع نفسها، ومع كل من تصادف. اسندي نفسك يا هايدي يا حبيبتي، اسندي روحك».

استندت إلى الدرابزين والحائط حتى وصلت.

ما إن فتحت الباب بمفتاحها حتى وجدت أمها جالسة في موضعها المعتاد على كنبتها الأثيرة، متدثرة بروب أسود ثقيل، ترفع إليها عينين ضيقتين، غائبتين وسط تجاعيد سميكة. أخرجت يديها من جيبي روبها وأزاحت المخدة من فوق ركبتيها، ووقفت بهدوء، ونظرت إليها بغيظ، صامتة.

احمر أنفها الطويل تحت ناصيتها الضيقة، وبدا شعرها الأحمر القصير كتلة لهب، واندفعت من فمها الواسع حمم كاسحة.

أنَّبتها ووبختها، وسبتها وشتمتها:

- يا عانس.. يا قبيحة.

وصرخت فيها أنها لا تنفع في أي عمل، وأنها نكرة غير معروفة، وأنها ستقتلها ناقصة عمر، كما قتلها أبوها حين هرب وطفش مع امرأة أخرى.

وصفتها بأنها ابنة أبيها، الرجل الذي لا يعجبه شيء حتى هي، هي ناريمان هانم ابنة الحسب والنسب. كان رجلاً فقيرًا رفعته بزواجها منه، فأنكر كل معروف. كان مجرد بيزنس مان صغير وضيع، تزوجته وهي المذيعة المشهورة ورفعته، حتى صار مليونيرًا. ومع كل أفضالها عليه طلقها وذهب إلى امرأة أخرى، وترك القاهرة كلها.

- وإنتِ بنت كلب!

وقالت إنها لولا وساطتها لما صارت مقدمة نشرة أبدًا، ولكنها خائبة، لم تطلع لأمها، ألا ترى فلانة التي تعمل في القنوات الفضائية الدولية؟ ألم تسمع بعلانة؟ ألا تعرف كم تتقاضى تلك المذيعة المشهورة من ملايين في الشهر؟ ألا تعرف كيف تقدم برنامجًا في قناة كبرى؟ ألا تستطيع أن توقع رجل أعمال مليونير في هواها، والبلد تكتظ بهم؟

- إنتِ جاهلة وغبية، ومش هتبقي بني آدمة أبدًا.

قرعتها وزعقت وشكت وأسفت: «أَحُكِم عليَّ أن أقضي بقية عمري في هذه الشقة الضيقة الصغيرة؟!»

ومنَّت عليها: «هل نسيتِ كم صرفت عليكِ؟ ألا تعرفين كم نصرف في الشهر؟»

وذكَّرتها: «هل تدرين أن رصيدي في البنك بضعة آلاف فقط، ومرتبك ملاليم، وأباكِ لا يعرفنا من سنين؟»

- إنتِ فاشلة.. فاشلة ومش فالحة غير في السهر والشرب، يا كلبة.. كلبة.

وضعت هايدي يديها على فمها، وأسرعت إلى الحمام، وأفرغت كل ما في جوفها على دفعات. وكانت أمها قد نشف ريقها، وأفرغت كل ما لديها من كلام، وارتاحت، دخلت حجرتها ونامت، بصوت له شخير متواصل.

في الحمام غسلت وجهها، وتأملت ملامحها العارية بلا مكياج في المرآة.

«إيه القرف دا؟! أمي.. أمي تعيسة، تدخن بشراهة، عجوز معذبة، سبابة، شتامة، نقدها قاسٍ ومرير، تعيسة جدًّا، أتعس مني أنا حتى.. ههه».

ونطقت لنفسها:

– أنا مش زيها!

دخلت غرفتها، وأغلقت الباب بالترباس.

في عقدها الرابع، كانت لا تزال عذراء، وعزباء، تعلق على جدران غرفتها الأربعة صورًا عديدة لـ«هانا» مذيعة العالم الأولى، لتكيل لها السباب كل صباح حين تصحو، وكل ليلة قبل أن تنام.

– ما تفرحيش بنفسِك قوي كدا.. مفيكيش أي ميزة، أنا باستعجب!

«أنتِ قبيحة الوجه، سمينة، وجعداء الشعر، ورغم كل هذا، أخذتِ أكثر كثيرًا مما تستحقين، تأخذين مليون دولار في ساعات، ومشهورة في العالم كله، رغم أنكِ قبيحة جدًّا. ملامحكِ دميمة، وبشرتكِ مقرفة، أين أنتِ مني، ومن جمالي، ومن ثقافتي يا تافهة؟! الليلة ستكسبين ملايين جديدة، وملايين المشاهدين الجدد، أنتِ تأخذين كل شيء وأنا لا».

وصرخت فيها قبل أن ترقد في فراشها:

– أنا لسّه ما خدتش.. لسه ما خدتش حاجة.

في سريرها بكت، ومسحت دموعها بأطراف أصابعها، وقررت أنها ستنجح بأي ثمن، وأن سامية يجب أن ترضخ وإلا ستحيل حياتها جحيمًا، لا يوجد طريق آخر، سينقذها البرنامج في قناة ثروت الجديدة من كل هذا الشقاء، ومن عذاب أمها.

«لماذا هرب أبي وترك لي هذه العجوز البائسة؟ ماذا فعلت لها كي تفعل بي كل هذا كل ليلة»؟

قال لها أبوها في آخر لقاء بينهما: «كان يجب أن أهرب منها إلى آخر عمري. أمكِ امرأة تعيسة جدًّا، يا ابنتي لا تكوني مثلها، أنا أحبك.» أما هي فقلبها كان مع أمها، ومع نفسها.

مدت يدها وتحسست الوحمة الطويلة، أسفل رقبتها.

في إحدى مشاجراتهما المعتادة، أطاح أبوها ببراد الشاي المغلي نحو أمها، فأصابها هي، كانت تعطي ظهرها لهما، ولم تنجُ، صرخت مرتاعة، واحترقت مساحة واسعة من جلد طفولتها الرقيق. وبعد سنوات من العلاج، خلّفَ الحرق رقعة كبيرة داكنة، لم ترَها، أمها وصفتها لها بدقة، وهي تخيلتها قطعة جلد بنية وسوداء كجلد الماعز، ولا بد أن رجلاً غنيًّا، ذوَّاقة في النساء، لن يحب أن يرى منها هذا القبح وهو يمنحها الحب من الخلف. إنها لا يمكن أن تجعل رجلاً يرى القطعة المريعة في جسدها، أبدًا.

«إلى الجحيم بصنف الرجال».

هايدي بلا قصة حب واحدة، علاقاتها الشخصية محدودة، وبنساء مثلها، وليس لها صديق سوى ميدو النعيم، ولا تحب النساء في الفراش.

«لن أكون فاشلة بعد اليوم، من أنجح مني؟ من أشهر مني في مصر كلها؟ ألا ترى هذه العجوز، أمي، كم أنا جميلة؟ ألا تعرفون من أنا يا كلاب؟ كلكم كلاب».

عندما تكون هايدي جائعة تتحول إلى وحش بري يطارد فريسته بلا هوادة، وكانت هايدي جائعة جدًّا إلى الشهرة، وها هي قد اضطجعت في فراشها أخيرًا، وأغلقت عينيها وراحت تتخيل، ترى نفسها وقد صارت مقدمة أشهر برنامج توك شو في العالم، يُذاع على شاشة أكبر وأشهر محطة تليفزيون في الكوكب. الكوكب الصغير الذي يدور حول نفسه دورة كاملة كل يوم، وحول الشمس دورة واحدة كل عام.

– مش أقل من كدا.

وضعت وجهها في الحائط.

تغيرت ملامح وجهها، ونبرة صوتها، وصار لها صوت امرأة أخرى، تطلق شكاوى والتماسات ورجاءات:

– أنا بريئة، أنا ضعيفة، أنا غلبانة.. أنا تعيسة، تعيسة يا رب.

«أنتِ دائمًا وحدك، وحدك يا هايدي مهما أخفيتِ نفسك في زحام الناس، وحيدة في العمل، وكافتيريا الفندق، وصخب العروس، وهنا في هذه الشقة التي تنام بها أمك، تحت السقف نفسه، أنت يتيمة يا هايدي يا حبيبتي».

بكت من جديد حتى غطت وجهها طبقة رقيقة من ماء مالح، وحتى نضبت الدموع وهي تسافر في ظلمة النوم.

اختفت أفكارها المحمومة، وتلاشى جسدها والعالم والناس. نامت بعمق فسكن فيها كل شيء وصفا وجهها، وكانت سعيدة ومبسوطة، خالية مثل شاشة سينما بيضاء، مضيئة بلا مشاهد، وبلا أثر لصور جرت فوقها أو لبكاء طفح عليها.

أخيرًا بدت هايدي امرأة عادية مثل كل النساء، ارتاحت ونامت بعد شقاء يوم وليلة طويلة، وخلف نافذتها كانت زخات تسقط على إسفلت الشارع، وقد صعد عالم جديد في أحلام هايدي.

وكان المطر يهطل بغزارة أكثر، لحظة بعد أخرى، ويرافق دنيا حلمها البهيج.

١٤

كما أمطرت في جاردن سيتي كانت تهطل في وسط المدينة. لمع إسفلت ميدان التحرير وبلاط طرقاته وساحاته، ونزلت دفعات على رؤوس شباب متناثرين في أنحائه فتصايحوا منتعشين. قاموا وتقافزوا، وجروا في ملابسهم الثقيلة يطارد بعضهم بعضًا. لفوا وداروا حول سارية العلم ضاحكين، واكتست أرصفة شوارع القصر العيني وطلعت حرب وقصر النيل وبناياتها بطبقة رقيقة من ماء. ارتوى العشب في البقع الخضراء، اغتسلت الأشجار القليلة في أرصفة المشاة وعلى النواصي، وزال التراب عن جذوعها وفروعها، وتألقت أوراقها بخضرة ندية.

في الشوارع الرئيسية والحارات، في أحياء القاهرة، وفي الجيزة، كان صوت المطر رخيمًا جميلًا، كأنما تبعثه السماء كغناء، وفي أقصى الغرب، في آخر شارع الهرم، تلقت مصابيح الأعمدة على الجانبين زخات خفيفة، وانتعش عشب الجزيرة المستطيلة التي تشق الشارع إلى حارتين، ونقرت قطرات زجاج السيارة الخضراء، فانفرج وجه سامية بابتسامة فاترة.

خلف عجلة القيادة كانت السيدة الحزينة تراقب قطرات المطر التي تتساقط أمامها، واحدة.. اثنتان.. ثلاث.. أربع.. لحظة بعد أخرى كانت القطرات تتكاثر وتنتشر، فيتحول وجهها ويتغير مزاجها، لم تعُد تراها مجرد قطرات ماء، أبصرتها حبات لؤلؤ تتناثر أمامها، تتقارب وتتباعد، تلهو وتلعب، وتشكل أسورة رقيقة، عقدًا من بللور، حلقًا كعنقود عنب. مرة تتشكل أمام عينيها قلادة، ومرة سلسلة طويلة، ومرة مفتاح حياة. فغرت فمها كأنها ترى معجزة صغيرة، وندت عنها: «هاه؟ إيه دا؟!»

مع كل شكل جديد تتسع ابتسامتها، وتصفو، وتلمع عيناها ببريق أخاذ، ويسري في أوصالها سرور صبية ساذجة، وفرح بريء.

تكاثفت قطرات الماء، وتداخلت العقود والحلقان والقلائد حتى كادت تحجب رؤيتها للطريق. تنهدت آسفة، وداست زر المسَّاحتين فانتصبتا مزمجرتين، وتحركتا في اتجاهين متضادين. اختفت الجواهر، وتلاشت القطرات اللعوب تاركة سطحًا فارغًا، ودائرة نظر صافية.

سكنت المسَّاحتان بعد أن أتمَّتا المهمة، وسامية تدقق النظر: «خالد.. لا يزال يحبني.»

بعد لحظات سقطت قطرة جديدة، ثم قطرتان، انشرحت، وهمست:

- لعبة جميلة!

أنعشها المطر، وهدأت الضوضاء في دماغها العنيد. أدارت الأكرة عن يسارها فهبط الزجاج وانفتحت النافذة، وطال بعض الرذاذ وجهها وشعرها العاري. تذكرت أنها نسيت طرحتها الحريرية في العروس، لم تبالِ، وأخرجت رأسها من النافذة وصاحت في الهواء والمطر:

- عام سعيد يا بشر.

كم مرة قال لها خالد: «التملك شيء، والحب شيء آخر، وأنت لا تريدين سوى امتلاكي، التملك مرض.»

قالت لنفسها: «معك حق.. بحبك».

خلفها، بأمتار قليلة، كان شاهين في سيارة النحات يتمتم في طرب: «الله الله الله.»

«كيف سأستقبل خالد عندما يعود بعد الفجر؟ هل أسامحه؟ أم يسامحني هو»؟

تيقَّن شاهين من وجهتها الأخيرة: «الصلح خير يا بنتي.. خير ما عملتِ.»

وظل خلفها حتى ركنت سيارتها أمام بيتها الجديد. لف وعاد يطوي الطريق الخالي أمامه بسرعة، كالضوء السالك.

في «العروس» دفعت أيدي الباب الكبير إلى حمَّامات النساء، فاستكان طرفه على حائط السيراميك خلفه، ولاح على وجهه لافتة نحاسية منقوش عليها رسم «إيزيس» واسمها، وتقاطر على الحمامات الفخمة ما بقي في العروس من شابات وكهلات، أفرغن بطونهن، ووقفن أمام الأحواض ذات المرايا البيضاوية في براويزها الذهبية، وأعدن صبغ وجناتهن وشفاههن، وعدلن هيئاتهن استعدادًا للمغادرة، قبل أن يشتد المطر في الخارج، ويتعذر وصول المقيمات بعيدًا عن وسط البلد.

وفي دورة مياه الرجال، التي تحمل على بابها اسم «أوزوريس»، وإلى جواره نحت بارز بالنحاس للبطل المؤسس للقطر المصري وهو يلبس التاجين وفي يده الصولجان، زادت حركة الداخلين والخارجين، كان لبعضهم مزاج لطيف وحركة منسابة بأثر طفيف للكحول، وتطوح بعضهم، تقيأ قلائل، وتناجز آخرون وتغامزوا وتشاجروا، تساند كثيرون على الحوائط حتى خرجوا، ولم يسقط سوى كهل سمين، حريري البدلة، برابطة عنق فاقعة اللون، انهار على البلاط تحت المباول، وهوى كجثة.

حين ظهر ثروت بك على العتبة، كان الكهل يضع يديه على وجهه، يخفيه خجلاً، لكن البك عرفه على الفور بنظرة واحدة، التفت خلفه إلى عامل النظافة، ضخم البدن، وابتعد خطوتين. تحرك «فهمي» في بدلته الزرقاء، وأقعى على الكهل، ورفعه من تحت إبطيه كمن يرفع ثقل حديد بحركة خطف:

– قوم يا رائف بيه، قوم.

متساندًا على فهمي، وقف رائف بك على قدمين مهتزتين، ببدلة نظيفة من الأمام، قذرة بأوساخ وبقع حمراء وصفراء من الخلف. نظر حوله وقد

أفاق من سكره الثقيل، التقت عيناه بعيني ثروت بك، ارتعش جسده الضخم برعشة خفيفة، وكأن حربة اخترقت أحشاءه، فوضع يديه على بطنه يسد جرحه النازف. أدار وجهه نحو فهمي، وهزَّ رقبته وهمس بصوت كسير:

- شكرًا يا فهمي.

وخرج مُشيَّعًا بنظرة احتقار من ثروت بك: «من يخسر ثروته يخسر كل شيء يا شريكي السابق، المغفل.»

عاين ثروت بك ممتعضًا الأحواض الفاخرة التي تفيض بما خرج من أفواه زبائنه: كتل من لحم وعجين مختلط الألوان، وسوائل تتدفق في بطء وتسقط على الأرضية السيراميك البيضاء فتلطخها وتكدر لونها الصافي.

- نظَّفوا الخرا دا.

وبظهر يده نفض وسخًا وهميًّا عن صدر جاكتته، وفخذ بنطلونه.

- حاضر يا ثروت باشا.. حاضر.

عبره فهمي منحنيًا قليلاً، وأخرج من جيب بنطاله مفتاحًا نحاسيًّا، وهُرِع إلى باب من خشب الأرو في آخر الدورة الواسعة، وفتحه، ووقف ينتظر متصاغرًا.

دخل ثروت بك الحمَّام المخصص لكبار العروس، فأغلق فهمي الباب خلفه.

كان كل شيء نظيفًا ولامعًا: طاقم حمام ذهبي، وحوض كبير أعلاه مرآة ترتفع إلى السقف، وقطع صابون جميلة الرائحة، وشامبوهات ومعطرات متناثرة في كل موضع.

وقف إلى الحوض، ووضع سبابة يده اليمنى في سقف حلقه فاهتز كل شيء في أحشائه وقناة هضمه وبلعومه، انفتح فمه على مصراعيه كبوابة وخرجت منه دفقات من كتل حمراء وبيضاء وبنية، زنخة الرائحة، وتلتها موجات أخرى. أفرغ بطنه مغمض العينين، وخصره يهتز مع كل دفقة، حتى سكتت الأصوات التي تنبعث من جوفه مع آخر سائل خرج من فمه.

سكن يتأمل أسارير وجهه في المرآة، ويستشعر باطن معدته. بدا له أن الشخص الذي في المرآة لم يسترح بعد، أعاد رفع إصبع السبابة إلى سقف حلقه، وراح يفرغ ما بقي في معدته بتمهل، وصبر.

كان يقلد ما سمعه عن ملوك الرومان العظماء. ثروت بك يعاني من مرض «البوليميا» الأصيل في عائلته، شرهه للطعام لا حد له ولا ضابط، يملأ معدته إلى آخرها فيشعر بأنه في أحسن حال، كالملوك.

غسل فمه ووجهه، وأحس بمعدته فارغة، وأحشائه نظيفة مما التهم في ليلته، وبخلوِّ دمه وعروقه من الكحول، أجرى أصابعه على رأسه الحليق مختالاً بنفسه: «هكذا يسهر ويأكل ويشرب الملوك.»

وتنهد بارتياح.

«الآن، يمكن البداية من جديد. هابي نيو يير يا ثروت بيه يا حبيبي».

عاد إلى الصالة الكبرى، وعلى رأس مائدته، التي ازدحمت بأطباق الطعام والشراب مجددًا، جلس، ورفع كأس نبيذ أحمر إلى شفتيه الغليظتين.

اقترب طلحة أبو درقة، وانحنى وهو يمد يديه إلى الأمام كأنه في حضرة سلطان في زمن غابر، فأومأ له:

- إنت لسه هنا يا طلحة؟!

جلس عن يمينه:

- مستر أسعد قال لي إن سيادتك عايزني في شغل.

فكر ثروت بك قليلاً:

- آه.. صحيح.. بس إنت مستعجل قوي.
- الشغل مع حضرتك غنيمة عظيمة نجري لها بالمشوار يا باشا.
- غنيمة؟

قهقه ثروت بك قهقهات متقطعة، وأشار إلى طبق الجمبري الجامبو الذي أمامه، وقال ساخرًا:

- لولا إن عمر بيه وصَّاني عليك ما كنتش رضيت أشغلك عندي أبدًا.. كُل.

ابتسم طلحة في لزوجة، ومد يده إلى طبق الجمبري والتقط أكبر جامبو. تحول عنه ثروت بك يرقب الباقين على موائد العروس، المخضرمين في السهر، الجالسين في الضوء الخافت يواصلون الاستمتاع حتى مطلع الصبح.

قبل قليل كانت أذرع السيد عمر عبد الظاهر وعيونه قد نشطت، تتمم على على العروس وأثاثها وأدواتها، والزبائن والعاملين، عيون جالسة وأخرى واقفة، وثالثة متحركة في كل سنتيمتر مربع في الطابقين العلوي والسفلي، رجال ونساء مخلصون محبون للسيد عمر، ينتشرون مع انحسار الصخب والزحام، ويهيئون العروس للاضطجاع في سلام.

في المطبخ كان خالد عبد الباري يسلم دفاتره وعهدته إلى برسوم، وفي الصالة كان مطر ونانيس ينتظرانه ليغادر معهما.

كانت يدا مطر قابضتين على يدي نانيس، عبثًا يحاول تهدئة الغضب الشرس في نفسها، واندفاع الكلمات من فمها، وسخطها على قرار الحاج مرزوق ووثيقتيه الجديدتين.

لم تمِل الدكتورة نانيس إلى السيد عمر عبد الظاهر قط، لم ترَ فيه سوى شخص خاوٍ من الإحساس بالموسيقى وبالجمال، لا يسوقه إلى الإتيان بالراقصة وإشاعة الموسيقى في العروس سوى النقود التي ستأتي، وهو في كل الأحوال رجل غامض، لا تعرف عنه الكثير، لا تدري من أين أتى، وكيف صار مديرًا لـ«العروس»، ثم تربع أخيرًا رئيسًا لمجلس إدارتها، يقسم أرباحها كما يشتهي ويهوى. أين الحاج مرزوق؟

كان الحاج صديقًا لوالدها الراحل، وداهية، يعرف كل شيء ويصرف كل أمر، وهو الليلة يمنح عمر عبد الظاهر، ويخصم من أسهمها التي ورثتها عن أبيها!

طيلة السنوات الماضية، كافحت من أجل الاحتفاظ بأسهمها، وحفظ تراث والدها الموسيقي، وها هما الاثنان يكادان يتبخران.

قال مطر:

- غضبِك مش هيحل حاجة!

- آه..

في نفسها، راحت تنفث كلمات قاسية في حق السيد عمر.

كانا صامتين حين جلس خالد بهدوء على الكرسي الثالث. وما إن جلس حتى كانت عينا ثروت بك مصوبتين نحوه. من مكانه حدجه بنظرة شرسة، وصاح:

- من إمتى المِتردوتيل بيقعد على ترابيزات مع الزباين؟!

أمسكت نانيس بيد خالد قبل أن يقف، وردت:

- الأستاذ خالد ضيفي.

حوَّل ثروت بك وجهه إلى طلحة:

- وإنت كمان ضيفي.

وراح يقهقه مبسوطًا بنفسه، وبدمه الخفيف الذي يطلق الإفيهات الحراقة.

قالت نانيس:

- مش قلت لك يا مطر.. العروس هتبقى ماخور.

كان صوتها عاليًا، سمعه الجميع.

توتر ثروت بك، مد يده إلى جيب الجاكتة، وأخرج سلسلة مفاتيح طويلة، تتراص بها مفاتيح عديدة من فضة، وأخذ يحرك مفاتيحه الواحد بعد الآخر كأنه يُسبِّح على مسبحة.

وقف مطر رافعًا يده بحذاء صدره وثنى كوعه، فقامت نانيس وتأبطت ذراعه، ومضى الثلاثة نحو باب الخروج.

شيعهم ثروت بك بنظرة استهانة، فلم يرَ في عيونهم سوى الاحتقار.

حين عبر الثلاثة عتبة باب الصالة، كانت يد ثروت تجري ببطء من مفتاح إلى مفتاح. فجأة ترك السلسلة تسقط من بين يديه إلى السجادة الحمراء تحت قدميه، باعد ما بين رجليه ونظر إليها، ثم تحول إلى طلحة وهز رأسه مرة واحدة. فهم طلحة ما يريد ثروت بك، فركع حتى كادت رأسه تلامس ركبة ثروت بك، ومد يده الطويلة، والتقط سلسلة البك الذهبية.

فتح فمه عن آخره بابتسامة تحركت معها كل عضلة في وجهه إلى أعلى حتى غابت عيناه الضيقتان، وقال:

– اتفضَّل يا باشا.. أي خدمة يا ولي النعم.

لم يقُل ثروت بك «شكرًا»، وحوَّل عنه وجهه إلى مصدر صوت قد ارتفع زاعقًا.

من أقصى زاوية في صالة العروس كان رائف بك واقفًا، يلوح بيديه الاثنتين في الهواء، رافعًا عقيرته:

– كله هيفلِّس.. كله هيفلِّس.

وقهقه عاليًا حتى أدمت قهقهته أذني ثروت بك، ونفذت إلى داخله.

في الطابق السفلي، كان مستر أسعد قد ألقى بتليفونه المحمول فوق زجاج مكتبه، بعد أن ردد مرات:

– تمام يا عمر بيه.

أعاد ظهره إلى الخلف فوق مقعده الوثير، ورفع قدميه إلى المكتب، وراح يحادث نفسه.

«المليونيرات الذين لا يحبون سوى أنفسهم العظيمة بالتأكيد لا يعيشون في جنة أرضية، مهما كان ثراؤهم، ومهما كانت سلطتهم ونفوذهم وجمال مناظرهم، إنهم لا يعيشون في فرح ولا في حب، ولا يأملون أن يحدث لهم ذلك في المستقبل القريب أو البعيد، أو بعد أن تُغلَق على أجسادهم أبواب القبور. تمامًا مثل عمر بيه وثروت بيه. وأنا أريد أن أكون من هؤلاء. المسألة ليست مسألة حب يا عزيزتي، أنا بصراحة أكرهكِ، وأبغض هذا التافه الذي تحبين، مطر مجرد حشرة طائرة.. في كل الأحوال سأتزوجكِ في النهاية، ثقي بي أنا.. دا أنا بحبِّك يا حلوة»!

طرق الهراوي الباب طرقة واحدة خافتة، ثم دفعه بهدوء ودخل، فانقطع حوار مستر أسعد مع نفسه.

في خارج العروس، كان شاهين قد عاد بسيارة مطر، وأسلم مفتاحها ليد خالد:

- وصلتُ البيت يا ابني.

استفهم خالد بنظرة:

- بيتك في حدايق الأهرام.

تنهد في ارتياح، وقال متلهفًا، ومتعجلاً:

- مش يللا بينا بقى؟

جلس إبراهيم مطر خلف عجلة القيادة، وإلى جواره نانيس تتأمل أصابع يده التي داست زر الضوء الداخلي، ولمع في عينيها وميض إعجاب، وهو يضبط وضع تماثيل الصلصال الصغيرة، المتناثرة فوق التابلوه.

وعلى الكنبة الخلفية استلقى خالد عبد الباري، فرد قدميه ووضع يديه خلف رأسه، كأنه يمدد جسده على أريكة صالة شقته القديمة، في السيدة زينب. أغمض عينيه واسترخى من تعب وقفته وتجواله بين مناضد العروس والحسابات طوال ساعات المساء والليلة. تنفس بعمق ليُهدِّئ ضجيج أفكاره، ويزيح السخط

عن روحه. زفر براحة وهو يفتح زر قميصه الأعلى ويجري أصابعه على صدره، وعلى موضع قلبه. بدا مستريحًا في استلقائه، وغير مبالٍ بشيء آخر، بعدما أخبره شاهين أن سامية وصلت إلى البيت، وصعدت إلى شقتهم. يعرف ماذا تفعل الآن، تغتسل بماء ساخن في هذا البرد، وربما.. تغني في انتظاره.

لف مطر رقبته إلى الخلف، ورمق «خالد» بنظرة ضاحكة:

- أيوه يا عم.. مين قدك الليلة يا عريس.
- ههههههه.. لا مفيش.. مفيش حد قدي.

قهقه الثلاثة في بهجة، ودارت عجلات السيارة تطوي شارع قصر النيل تحتها، وتجتاز البنايات العتيقة، المغسولة بالمطر.

كانوا صامتين حين دخلت السيارة ميدان التحرير وقد هبط فوقه ذيل ليل ثقيل، كثير الغيوم، وصارت أرضه خالية وموحشة إلا من عدة أشخاص، يتجولون فرادى، رحل الفتيان والفتيات الذين كانوا يحتفلون بمقدم العام الجديد، وكان الإسفلت تحت السيارة مغسولاً، تنزلق العجلات فوقه في انسياب، كأنه لوح زجاج سميك طويل.

همست نانيس شاردة كأنها تخاطب نفسها، وهي تحدق في سارية العلم:

- العروس هتبقى ماخور يا مطر؟

لم يعرف بماذا يجيب. ثبت عينيه على مدخل النفق الذي يؤدي إلى الكورنيش.

دخلوا النفق شبه المظلم، وكانت يداه والمقود الأسود كتلة واحدة، منتصب الظهر، في كامل الانتباه، وساكنًا كتمثال عمره آلاف السنين.

وهم يجتازون النفق القصير تحت أسدي كوبري قصر النيل، لفَّت نانيس جذعها، والتفتت إلى الخلف، ونظرت مباشرة في عيني خالد، كأنها تسأله أن يجيب.

فهم ما تريد، ولم يجد كلمات.

خرجوا إلى كورنيش جاردن سيتي، وصار النيل عن يمينهم يحتضن شاطئه مطاعم عائمة، وقوارب، تتلألأ في أضواء زرقاء وحمراء، ولا يحجبها عن عيني خالد سوى أشجار عالية عتيقة.

قال ونظره على النهر خلف الأشجار:

- إنتِ عارفة أنا بحب العروس قد إيه.. بس أنا مجرد مِتردوتيل، ساقي، وهبطَّل الشغلانة دي.. هبطَّلها خالص.

بفزع صاحت:

- اوعى يا خالد، هتسيبني لوحدي معاهم؟

طأطا خالد رأسه صامتًا.

لمس مطر ظهر يدها برقَّة:

- نانيس.
- ها؟
- عايزين لحن جديد.

نظرت إليه في حسرة:

- يا ريت، منين؟! أنا آخري أعزف وبس، التلحين كان زمان.. زمان.

توقفت السيارة أمام بيت قديم من طابقين، له حديقة صغيرة بأشجار مسنة، في شارع معمل السكر.

مالت نانيس على مطر وقبَّلت خده بتمهل، ثم ابتعدت برأسها إلى الخلف قليلًا، ورفعت حاجبيها فوق عينيها الواسعتين، وقالت جادة:

- اوعى تكون حبيت الرقاصة؟
- رقاصة مين؟!
- البنت اللي اسمها سماهر دي.

- الرقاصة؟
- أيوه الرقاصة.
- الرقاصة هي الدنيا، والدنيا هي الرقاصة، عايزني ما أحبهاش إزاي؟!

ضحكت حتى دمعت عينيها، وضحك خالد على الكنبة، في الخلف.

قالت نانيس لـ«مطر»:

- هشوفك بكرة؟

هزَّ رأسه:

- أكيد، تصبحي على خير.

وطبع قبلة على خدها.

فتحت باب السيارة وخرجت، ولوحت لهما وهي تستقبل الباب الحديدي ذي الضفلتين. كان مفتوحًا، والمصابيح في بلكونة الطابق الثاني مضيئة: «جيراني الجداد ما ناموش لسه.»

من سنة، اضطُرَّت إلى النزول من الطابق العلوي ونقل أثاثها القديم، والتأقلم على الحياة في الدور الأرضي، وتأجير الطابق الأعلى «إيجارًا جديدًا».

- إيه؟ تحت حلو برضه، وقريب من الجنينة.

انتقل خالد من المقعد الخلفي وجلس إلى جوار مطر، وانتظرا لحظات حتى غابت نانيس داخل البيت.

عادا إلى الكورنيش، وانطلقا نحو الطريق الدائري ليعبرا كوبري المنيب إلى الطريق المعلق فوق ساقية مكي، ويهبطا عند ترعة المريوطية، آخر حيِّ الهرم.

في الصالة، وقفت الدكتورة نانيس أمام صورة أبيها على صدر الحائط:

- كل سنة وإنت طيب يا بابا.

كان أبوها يحتضن عوده، وأصابعه الطويلة على الأوتار، وعيناه غائبتان تحت نظارة أنيقة، سوداء العدسات، في وجهه بشر وسرور عاشق في لحظة وصال.

خلعت حذاءها وجلست على الأريكة القطيفة، واتكأت بيدها على مسندها المذهب، وسحبت العود من فوق المنضدة ذات الرخامة البيضاء.

وضعت أصابعها على الأوتار، ولم تفعل شيئًا أكثر.

منذ زمن لم تلحن أغنية جديدة.

تعرف أن لحنها يبدأ دائمًا بالتعثر، ثم إذا استسلمت بكليتها انساب اللحن وتدفق من تلقاء ذاته، كاشفًا عن نفسه، وهي، للأسف، ما زالت تتعثر وتقاوم، فمن أين سيأتي لحنها الجديد؟

كان أبوها يجلس على هذه الأريكة نفسها، وبالعود الذي بين يديها، يؤلف الألحان كمن يتريض في حديقة، تتدفق النغمات منه كأمواج محيط لا ينفد.

أمها ماتت وهي لم تبلغ العاشرة، بعدها بقيا وحيدين، وصارا شخصًا واحدًا: «أحبك يا بابا، أعشقك وأنت تعزف على العود، وتلحن وتغني.»

- لحن جديد يا مطر؟ منين؟

«لماذا يفتنني هذا الرجل. شكله ليس وسيمًا، ولا هو قوي، رأسه صغير، وجسده نحيل، شكله لا يلفت الانتباه، ولا يثير الأنظار، لكنه يسحرني حين أراه، ولا أستطيع أن أمنع عينيَّ عن التعلق بوجهه. إنه يستولي عليَّ، وعلى كل ما حوله بسهولة، ودون أن يقصد أو يدري، إنه إذا أكل يكون رجلًا يأكل، وإذا مشى كان رجلًا يتحرك، وإذا غازل كان عاشقًا، هذا كل سحره، كان حاضرًا على الدوام في ما يفعل ويقول، ولهذا ينحت عندما يريد، ويبدع حين يشاء! آه لو صرت مثله، لاستطعت أن أتحول من عازفة إلى صانعة اللحن. للأسف أنا أعزف ألحان أبي، ألحان الآخرين، أما أنا فلم أؤلف بعد سوى بضعة ألحان قليلة، شبه مجهولة.. مطر، أنت لحني الفريد».

كانت الدموع قد بدأت تأخذ طريقها من عينيها إلى خديها والعود بين يديها.

«أمكَ لن ترضي بهذا الزواج أبدًا، طيبة لكنها لا تحبني، لم تنظر إلى وجهي حين ذهبت لزيارتها، لم ترَكم أنا مسالمة، ورقيقة، رأت فقط الوشم الصغير على معصم يدي اليمنى، آه يا مطر لو ترضى أمك»!

ثمة رجاء غامض يستولي عليها كلما بكت هكذا، لماذا لا يتزوجها مطر رغم رفض أمه؟ إنه ليس ابن أمه، ولا هو عاجز، لكنه لا يريد أن يغضبها، ويراها تعيسة، لا يريدها أن تحزن، ويستولي عليها الكرب في سنوات شيخوختها.

«أحبك يا مطر، خذني إليك.. خذني معك».

عادت بظهرها إلى الخلف ورفعت قدميها واضطجعت على جنبها، وأسندت يدها إلى ظهر الكنبة، ونظرت إلى السقف، فرأت وجه مطر مبتسمًا، تحركت شفتاه وتحدث إليها: «الرقص لا يحدث في الخارج أبدًا، يحدث دائمًا في الداخل، وما تراه عيناكِ ليس سوى مظهر ما يحدث هناك، في باطن الجسد، البنت سماهر لديها روح راقصة عظيمة، وهي تعرف أنها فنانة، ومبدعة.»

في سخطها ضحكت، ولوحت للوجه المرتفع إلى جوار النجفة العتيقة، وقالت له:

– يا سلام!

قال مطر دون غضب، بلا استياء: «حين ترقصين يا نانيس بكامل حريتكِ ستؤلفين مقطوعات موسيقية وألحانًا جميلة جدًّا.. مثلكِ.. مثلكِ يا حبيبتي.»

فرحت روحها.

قال مطر من قرار عميق:

«أنتِ هي، أنتِ الموجودة في كل فن، وكل جمال.»

– أووو.

سكتت منتشية.

همست لنفسها:

– كفاية كدا يا مجنونة! كفاية.. نامي.. نامي يا نانيس.. نامي.

أغمضت عينيها، لكنها لم تكتفِ، ولم تنَم.

١٥

بدت نانيس واصف، في فستان سهرتها الوردي وعقدها وأساورها، عروسًا بديعة التكوين، مستلقية على ظهرها، بارزة الصدر، رشيقة الخصر، وممتلئة الفخذين. تتنفس بعمق، تسحب الهواء إلى أنفها ورئتيها بتروٍّ، رأسها صفحة بيضاء، وذهنها شاشة مضيئة، بلا صور.

ضمت كفَّيها في قبضتين، ووضعت ذراعيها متقاطعتين فوق صدرها، كمومياء امرأة مصرية قديمة في تابوت من الجرانيت. فتحت عينيها وحدقت في السقف، في الموضع الذي رأت فيه وجه مطر فرأته هناك، لم يذهب بعد، يهش لها، ويبث في روحها الصفاء، تتسع ابتسامته فتنفرج أساريرها، يغمز لها بعينه فتكاد تضحك، يتحدث إليها بصمته فتفهم عنه، يرسل إليها شوقه الجارف إلى تقبيلها، واحتضانها، والتوحد معها، لكن عينيه حزينتان.

عاتبته بلا كلمات: «كيف تتركني وحيدة معهم؟»

«لن أتركك أبدًا».

طأطأت رأسها، ونظرت إلى صدرها، تتابع ارتفاع بطنها وانخفاضها، منتبهة إلى الحياة السارية في أوصالها مع الشهيق والزفير. أحست بخلوِّ بالٍ، تبددت شكوكها، واختفى السؤال الذي كان يطاردها في الصحو والمنام: «حبيبي، هل تعشقني حقًّا كما أعشقك أنا؟ هل تعرف أنني أريد منك ولدًا يشبهك، قبل فوات الآوان؟»

بعد دقائق نامت، واستغرقت في سبات رحيم.

رأت نفسها قادمة من المطبخ نحو الصالة الواسعة، وبين يديها صينية شاي يتوسطها براد أبيض من خزف، وكوبان فارغان، وحولها، على الحوائط العالية، صور كثيرة لأبيها: صورة الزفاف، هو جالس وعروسه خلفه، واقفة تضع يدها على كتفه الأيمن. في حديقة البيت وحيدًا يعزف على عوده في فرح ظاهر. جالسًا يضم بين يديه عصاه الأبنوس الرشيقة وهي تضع قبلة على خده. وصورة كبيرة وهو قاعد على كرسيه وبين يديه عوده، وخلفه أفراد فرقته الموسيقية، التي أطلق عليها اسمها.

في صدر الصالة، كانت أيقونة كبيرة للسيدة العذراء، تحمل المسيح على صدرها، وحولهما هالة نور، وتحت أقدامهما سجادة حمراء بديعة النسج.

أبصرت نفسها في الحلم فتاة جميلة، تفيض حيوية ومرحًا، بخدين متوردين، تقف على عتبة البلكونة، وصينية الشاي الفضية بين يديها، تنظر باسمة إلى شخصين.

في ركنهما المفضل في البلكونة، كان الموسيقار واصف عزيز مع صديقه المقرب، النحات الشاب إبراهيم مطر، قاعدين على كرسيين من البامبو، وبينهما منضدة كأنها طبلة ضخمة، أرجلها جذوع بنية تسري فيها عروق بيضاء وحمراء، وقرصتها عسلية، ناعمة الملمس كقطعة من حرير، صُنِعت الطاولة الجميلة من خشب شجرة نادرة، وجُلِبت خصوصًا من أدغال إفريقيا. أبوها يحبها كثيرًا محبته لصديقه «دان»، الدبلوماسي الإفريقي الذي أهداه هذه التحفة تعبيرًا عن حبه واحترامه لفنه، واختفى، لم تره سوى مرة واحدة أخرى حين ظهر في جنازة أبيها، حزينًا كأرملة.

كان الموسيقار في مزاج صافٍ وبين يديه رفيقه الأزلي، في حضنه عوده العتيق، وعلى وجهه الطويل، بارز عظمتي الوجنتين، ابتسامة سكينته الدائمة، يميل إلى يمينه ويحدث مطر. بدأت يداه تداعبان الأوتار فلم تتحرك نانيس

من مكانها وظلت واقفة، تتسمَّع مطلع اللحن، وفي ذهنها تتردد عبارته الأثيرة: «الجمال؟! الجمال يا نانيس ليس سوى وتر رقيق واحد، منه ينبع كل نغم.»

تعلقت عيناها بيدي أبيها الكبيرتين، كثيرتي العروق الخضراء كورقتي شجرة كافور.

- إحم.. إم إم..

همهم يسلك حنجرته، وسكت للحظات.

- يا ليلِي يا ليلِي.. يا ...

وتدفق الصوت الشجي يغرد.

كان يغني، مبتهج الروح يُسمِع مطر لحنه الجديد «ليالي الغرام»، ومطر ينصت بكل كيانه، يغلق عينيه ويهز رأسه يمينًا ويسارًا، وفي نشوة يردد: «الله.. الله.»

وضعت صينية الشاي، وقدمت أمام كل منهما كوبه، وجلست على المقعد الثالث، ساكتة.

واصل الموسيقار الغناء، ومع كل جملة موسيقية حلوة يهز مطر رأسه، ويصفق في انبساط:

- عيني يا عيني يا أستاذ.

تبسمت نانيس فخورة بأبيها. كانت عينيه، تصحبه في كل مكان، هي نور عينيه المنطفئتين منذ وُلِد، وهو بصيرتها التي صُقِلت عبر السنوات.

همست لـ«مطر»:

- باين عليك سمِّيع قراري!

فتح عينيه كأنه يعود من حلم بهيج، ونظر إليها بوجه رائق عذب القسمات، وهز لها رأسه بلطف.

كانت نانيس لا تزال تحلم حين وصل مطر إلى مشارف نزلة السمان، يطوي الطريق الترابي إلى بيت العائلة تحت زخات مطر خفيفة، متقطعة.

يقود بهدوء، ويتكلم كأن لا أحد إلى جواره:

- تعرف يا صاحبي..

أحيانًا أشعر بشخص خفيف الجسم ورقيق الشكل، رشيق الحركات، حضوره لطيف إلى جانبي، يضع يده على كتفي ويمس بأصابعه الرشيقة كتفي، ينظر إليَّ، يبتسم ويهمس كأنه الصمت في وحدتي ينطق، يقول لي أنا معك دائمًا، هيا نمسك الإزميل ونعالج الصخر، فثمة جمال بداخله يريد أن يخرج إلى الوجود، تمثال رائع ينتظرنا، يجب أن نخرجه من ظلمة العدم وكثافة مادته إلى نور الوجود. يقول لي ونحن نعمل سنتذكر دائمًا أن عيونًا كثيرة ترمقنا، تحدق فينا في فضول، إنهم ينتظرون ذلك الذي سيخرج من هذا الصخر.

- تعرف الشخص دا؟

رد خالد:

- نانيس.

هز مطر رأسه نافيًا.

سكت خالد يستوعب ما قال مطر، ويفكر في نفسه.

تقدمت السيارة ناثرة حولها عفرات من تراب، وفي السماء كان الهلال الوليد قد اختفى، وصارت القبة السماوية بلون وعاء لبن تلقى عصارة زهرة زرقاء عظمى، وسحب سوداء تطوف بكل اتجاه.

قال خالد:

- أنا دلوقتي متأكد من حاجة واحدة بس!

ثار فضول مطر، وتأهب للسماع.

- سامية ما بتحبنيش، ما تعرفش الحب، تعرف التملك بس، عايزة تملكني كأني شيء أو سلعة، مش عايزة حاجة غير امتلاكي أنا وندى وكريم، وشقة حدايق الأهرام، والأمان، وبكرة، و...!

فاض وجه مطر بحزن:

- يبقى الكلام عن الغرام مش مُجدِي يا حبيبي.
- هه ولا الكلام عن الجواز.

مرَّ صمت قصير.

- إنت وعدت الدكتورة نانيس بالجواز؟

هز مطر رقبته يمينًا ويسارًا:

- أبدًا.. مطلقًا.

نظر خالد في عينيه مباشرة.

- ولا مرة واحدة.. لأني بحبها فعلاً.

قال مطر إن الوعد قيد، لا تعد أحدًا بشيء، الوعد أغلال، وشبح سيطاردك في كل مكان، وفي كل لحظة، وسيقتل ما بينكما إذا لم يتحقق، كُن صادقًا ولا تدمر حبك، الوعد دائمًا يحدث في الغد، وهذا الغد وهم، لا يمكن له أن يوجد، سيوجد كحاضر دائمًا أبدًا، فلماذا يدمر اثنان ما بينهما، ويقتلان ما هما فيه من أجل حدث وهمي؟

إذا أتى أي شيء سيأتي في الحاضر دائمًا، وليس في وهم مستقبل ما. أنا لم أعدها بشيء، أنا لست بغرير، وكذلك هي.

- ما وعدتهاش بحاجة.. وبحبها يا خالد.

عرج مطر إلى طريق أضيق مما سبق، بين حقول قليلة ونخيل وبعض أشجار.

- رايح فين؟ مش قلت هتوصَّلني؟

– تعالى بس.. عايز أوريك التمثال الجديد.

فكر خالد أن سامية الآن في الصالة، تتسلى بمشاهدة فيلم كوميدي قديم، وربما تكون في انتظاره.

– وسامية يا فنان؟

– سامية في بيتك يا عريس، أما التمثال الجديد هيسافر الصبح لأوروبا. وما أعرفش ممكن يرجع أصلاً ولا لأ.

ظل حائرًا، مترددًا.

– بشوقك يا صاحبي.. ملكش في الطيب نصيب.

استسلم خالد.

توقفت السيارة أمام بيت وحيد على مشارف بعض حقول، وغابة صغيرة من نخيل.

التفت خالد فجأة وقد باغتته فكرة، وحدق في وجه مطر: «أنت زعلان. غضبان من الدكتورة نانيس، وحزين لأنها لم تدعُك لقضاء ما بقي من الليلة معها.أنت مستاء لأنكما لم تقضيا الليلة معًا، ولم تستلقِ معها على سرير واحد.»

تحول وجه مطر إلى سخرية مُرة وهو يخرج من السيارة، وقد أدرك ما يجول بذهن صاحبه: «هل تعتقد أن كل ما بيني وبين نانيس هو الجسد؟»

انتظر حتى خرج خالد من الباب المقابل، ووضع يديه فوق سقف السيارة، ورفع وجهه إلى خالد في الجهة الأخرى:

– لا والله يا حبيبي.. أنا مرتاح دلوقتي، لا حزين ولا غاضب، أنا مبسوط وسعيد إنك معايا.

كانت واجهة البيت منيرة بمصابيح أُخفِيَت ببراعة في الحائط الطويل، فبدا كأن الضوء يأتي من داخلها، والحفر البارز على الواجهة كأنما نحته طفل شقي

بأزاميل صغيرة: وجه سمين ضاحك، بخدين منتفخين ولحية كالمروحة، يشبه الإله القزم «بِس»، إله المرح والضحك عند قدماء مصر. بِس يستقبل زوار مطر بوجه على وشك أن يطلق قهقهاته، من أعماقه العتيقة.

فيما مضى كان المنزل الذي ورثه مطر عن أبيه، الشيخ «عبد اللطيف مطر»، من الطوب اللبِن وأسقفه من الخشب، وعلى كل شبابيكه أسياخ حديدية رفيعة تمنع ضلف نوافذه الخضراء من الحركة إلى الخارج، والباب ضلفة خشبية سمكية، فوقها علية على شكل قوس، يفضي إلى حوش واسع على جانبيه حجرات متجاورة، وفرن بلدي، وعشش للطيور الداجنة، وفي الطابق العلوي حجرات النوم.

الشيخ عبد اللطيف ورث البيت عن أبيه، وجده، ولم يُغيِّر فيه شيئًا إلى يوم رحيله.

بعد سنوات طويلة من طرد أبيه له، عاد مطر ليشاطر أمه وحدتها، وغيَّر كل شيء، على الواجهة حفر شخصه الضاحك، وكلس الحيطان بطين جديد وطلاه بالأبيض، ونزع الأسياخ الحديدية عن النوافذ، وأقام لأمه بالطابق العلوي مطبخًا عصريًّا: بوتاجاز كبير وثلاجة ببابين وخلاط، ودواليب خشبية أنيقة، ومنضدة طويلة من الرخام.

وفي طرف حوش البيت بنى ورشة النحت، ثلاثة حوائط عالية من حجر أبيض، مسقوفة بعروق شجر وجريد نخيل، وبلا باب. وخطَّط أحواضًا وزرعها زهورًا وعشبيات، ونصب في وسط الحوش تمثالًا كبيرًا من الحجر الجيري لامرأة فائقة الجمال، يتطاير شعرها من حولها، وأسماها «حتحور»، ربة الجمال والحب، وكنيتها الربة الذهبية، حارسة العشاق، ومرضعة «حورس»، والبقرة السماوية المقدسة، والعاشقة.

في كل مساحة وركن وغرفة، وضع مطر لمساته، وابتكاراته، فصار بيت الحاج عبد اللطيف مطر أشبه بمتحف، يقابل قاصده بوجه «بِس» الضحوك.

اجتازا تمثال حتحور، ودخلا ورشة النحت، فأضاء مطر الأنوار.

كانت الورشة واسعة بلا أثاث تقريبًا، يمرح فيها الفراغ، حوامل من الخشب والحجر فوقها تماثيل كبيرة ومتوسطة الحجم وصغيرة، والحوائط بيضاء، مصقولة.

- يللا فرَّجني.. ما تأخرنيش، يمكن سامية مستنياني.

نغَّم مطر عبارته:

- لا يا شيخ.

سكت خالد خجلاً، كمراهق.

- هتعمل إيه معاها؟
- وأنا أقدر أعمل إيه؟! دي بتقول لي إنت لا شيء! إنت مش عايز حاجة من الدنيا.

تكلم مطر بالفصحى، كما يحلو له أحيانًا أن يفعل:

- أن تكون لا شيء، لا تريد شيئًا، يعني أنك كل شيء، وهو الحالة القصوى للوجود، الطبيعة الأصلية لجوهرك.

قال خالد ساخرًا:

- للأسف.. هي ما تعرفش الكلام دا خالص.

وقال وهو يحدق في الفراغ:

- مليانة مخاوف من كل حاجة، من بكرة، من اللي هيحصل للبنت وللولد. حتى خايفة مني!
- إزاي؟
- خايفة أسيبها، أطفش من وشها.. أو واحدة تانية تخطفني.
- إممم؟
- مرعوبة أسيبها لوحدها، ومتعلق برقبتها طفلين.

- آه.
- مخاوفها ما بتخلصش، ورغباتها ملهاش نهاية.

قال مطر جادًّا إن الأمومة هي الغريزة الأعظم عند المرأة، وما أنت يا مسكين سوى جسرها إلى غايتها، فلا تندهش إن آلمتك وهي تعبر من فوقك. لا تكترث، هذه الأرض التي نقف عليها لا تبالي بمن يطؤها بقدميه، ويعبر إلى حال سبيله، لا تتأذى ولا تشتكي.

وسكت برهة ثم قال:

- جِب، الرجل، هو إله الأرض.
- نعم؟
- عند قدماء المصريين.

لم يضحك خالد عبد الباري.

رفع مطر يده كأنه يحذف كل كلماته، ويزيح عن صديقه كرب الدنيا:

- انسَ كل دا دلوقتي.

وخطا مبتعدًا خطوتين:

- ركِّز معايا شوية.

وضغط على زر كهرباء فأضاء مصباح كبير بنور كاسح.

في وسط الورشة كانت كتلة فوق حامل حجري، مغطاة بقماش أبيض ناصع. مد مطر يده اليمنى، وسحب الغطاء برفق وبطء، كأنه يفتح ستارة مسرح، ونظر إلى وجه صاحبه.

ساد صمت.

ندت من شفتي خالد «آآآآه» وهو يعاين الطائر الأبيض: عقاب أم نسر أم صقر؟ طائر مجهول الاسم أم له أسماء كثيرة؟ له أجنحة كثيرة بيضاء مخططة

بالأسود، اثنان أم ثلاثة أم أربعة؟ رأسه جميل وأنفه معقوف، ومنقاره طويل، عيناه ثاقبتان، وروحه وثابة، وعلى وشك أن يحلق.. يا الله!

تأمله طويلاً فأذهله: «يشبه طائر الكاه، الروح عند قدماء المصريين.

لا.. هو مجرد طائر عادي على وشك الطيران.. أو هو الشيء الذي يريد أن يخرج من جسدي أنا، ويطير.»

قال خالد:

- خفيف، كأنه هيطير.. إنت اللي نحتُّه؟!
- لا أمي!

ضحكا.

- قصدي عملته إزاي ده؟!

وعقد يديه خلف ظهره، وأخذ يدور حول التمثال، يتأمل رأسه وعينيه اللامعتين بخضار، ساقيه الطويلتين وأصابعه، ومخالبه الرقيقة.

كان تكوينه بسيطًا وسهلاً مثل نغمة موسيقية، وحضوره رائقًا، وتركيزه تامًّا وهو يتأهب للطيران برأس مرفوع، وأجنحة بدأت الرفرفة.

أخذ الطائر بلبه، وود لو يأخذه معه، ويمضي دون رجعة. قاوم رغبته، وحاول أن يصرف عينيه عنه، وتلفَّت حوله يلقي النظر في زوايا الورشة.

في كل ركن وجد عشرات تماثيل، متوسطة الحجم وصغيرة، رآها من قبل كثيرًا.

- عندك أعمال قديمة كتير... ما اتباعتش؟!

تمالك مطر غضبه، لقد أفلت لسان خالد بكلمة نابية وهو لا يدري.

تجاهل ما قاله صاحبه، ووضع يديه خلف ظهره، وراح يدور ببطء حول تمثاله الجديد، ساكتًا.

«هل تعرف.. كل هذه الأعمال، لم أبِعها وأرجو ألا أبيعها أبدًا.. حينما أُعطي عملي لزبون واحد أشعر أنني أعطيه روحي وآخر أنفاسي، أما حين أعطيها لتظهر أمام عيون الجميع أحس أنني وهبت فنًّا جميلاً. أنفاسًا جديدة، روحًا جديدة، هل تفهمني يا خالد؟ أنا لا أحب أن أبيع».

من الركن الذي وصل إليه عاد خالد، واقترب مرة أخرى من التمثال وهو يعاني هبة نشوة اجتاحته، وراح يحدق فيه صامتًا، غير دارٍ بنفسه، وبأنفاس مطر التي تخرج من فمه مع دخان «البايب» العتيق الذي بدأ إشعاله.

قال مطر:

- عارف التمثال دا أخد مني كام سنة؟

رفع خالد وجهه نحوه.

قال مطر إن تصور هذا التمثال ونحته استغرق سنوات، أما تهيئة ذهني له فقد استغرق سنوات أطول! ربما بدأت الاستعداد له منذ بدأت أمسك بين يدي بقطعة حجر صماء، تريد أن تنطق.

صدقه خالد:

- ياه! كل دا وقت، ليه يعني؟!
- كان لازم أفسح للنحات اللي جوايا، وأسيبه يشتغل براحته، بحريته، وبحبه. وده بياخد وقت طويل مع ناس، وناس تانية بيحصل في لحظة، وأنا كان طريقي طويل حبتين.

منذ سنوات طرده أبوه من هذا المنزل، بسبب ما تصنع يداه.

في يوم بعيد خرج الشيخ عبد اللطيف مطر عن هدوئه ووقاره وهو يرى بيته وقد امتلأ بطيور، وحيوانات، وبشر، من حجر وطين، وصرخ في ابنه المراهق وقد فاض به الكيل:

- مالك يا ابني؟ مالك؟ هل تشاركون الله في الخلق؟!

ارتعد جسد الصبي الغض، وحوَّل عينيه عن أبيه، وأحنى رأسه، ولم يقُل شيئًا مما ينتظره الشيخ منه، لم يعد بإنه سيتوقف عن جلب الأحجار والطين إلى البيت، ونحت التماثيل.

تركه أبوه لحاله حتى ينهي الثانوية العامة، لكنه لم يعُد يكلمه، ولم يعُد يسأله عن شيء، وطالت الجفوة بينهما شهورًا طويلة.

نجح «إبراهيم»، ابن الشيخ عبد اللطيف مطر، في الثانوية العامة، وأعقب سكوت أبيه صراخًا، وسبًّا، حين أراد الولد أن يمتهن النحت.

رغم كل شيء كان يعرف أن أباه يحبه؛ فقد كانت أرضه مجدبة لا تطرح زرعًا لأنها شبه صحراوية، وامرأته لم تنجب لسنوات، ثم أنجبت ثلاث بنات، وكان الأب ينتظر الولد الذكر نافد الصبر. ويعرف أيضًا أن أباه، مؤذن جامع نزلة السمان الكبير، أبغضه حين بدأ يشكل من الصلصال والطين والأحجار هيئات دجاج وكلاب وقطط وأسود، وخاف منه ومقته أكثر حين رآه ينحت في الحجر فيخرج منه «أبو الهول»، وبشر، رجال وسيدات، وصبايا تشبه بنات نزلة السمان، وغجريات يشبهن الساكنات ما بين القرية والصحراء، في عزبة سُوبِك.

كان منذ طفولته يشعر بالجفوة، ولم ينسَ.

«لا أنسى ذلك المساء أبدًا، عدت إلى البيت ومعي استمارة الالتحاق بكلية الفنون الجميلة ينقصها توقيعه. تركني في قاعة الجلوس، وهرول مجتازًا حوش البيت حتى وصل إلى الباب، وأخرج من خلفه عصاه الغليظة، «مسوقته»، القديمة التي يخبئها خلف الباب حتى تكون قريبة من يده حين يهاجم البيت اللصوص، الذين كانوا منتشرين بالنزلة في تلك الأيام، وعاد إليَّ رافعًا عصاه. ثبتُّ في مكاني ونظرت إليه نظرة الند، رفعها إلى أعلى وهوى بها عليَّ، وضرب كتفي الأيمن ضربة مريعة. تألمت، وصرخت من المباغتة، لكني لم أسقط كما كان يريد،

تحملت الضربة القاسية والألم، وجريت من وجهه منذ ذلك اليوم.. حتى مات».

لم يُتَح للابن قط أن يذيب الجفوة التي نشأت بينه وبين أبيه، والشيخ تُوفِّي دون أن يسامحه.

بأسى قال مطر إن هذا ما حدث، ولا أعرف كيف حدث، ولا أبي يعرف. الأشياء تحدث من تلقاء نفسها، بقوتها الذاتية، وقال:

– عارف السبب الحقيقي اللي الشيخ عبد اللطيف طردني من البيت عشانه؟

أكد خالد:

– النحت.

هزَّ رأسه نافيًا، فرفع إليه خالد وجهًا مندهشًا.

– السبب أبعد من النحت.

قال لي إن النحت حرام، وإنه يعلمني ديني، وإنه يقودني إلى الله، وأنا قلت له إنني لست بقاصر ولا بجاهل وإنني أستطيع أن أبحث عن الله وأتحدث إليه مباشرة، بلا واسطة من أحد، وبلا وساطة من أي شيخ أو رجل دين، وبلا وساطته هو شخصيًّا. قلت له إنني لست بحاجة إلى أحد ليكلمني عن الله، فأنا أعرفه من قبل أن تكلمني عنه.

طردني من البيت، وتقبلت الأمر ببساطة، وسكنت مع زميل لي في الكلية في «بين السرايات»، ولم أعُد إلى نزلة السمان سوى يوم وفاته، جئت وحضرت دفنه، وتقبلت العزاء فيه، ومنذ ذلك اليوم لم تتركني أمي أغادر بيتها مرة أخرى لسنوات أخرى، أقصر أو أطول من تلك الأعوام التي لم أنَم فيها تحت هذا السقف، سقفها هي.

الست «أم مطر» لا تنام نومًا عميقًا وهي وحدها أبدًا، لا تحب أن تكون في البيت الكبير وحيدة مع حيطانه، ومنذ صارت تنسى كثيرًا أمست لا تستطيع النوم دون أن يعود مطر، ويصعد إليها، ويجلس إلى جوارها، ويطوقها بذراعيه، ويتكلم معها عن يومه، وعمَّا يجري خارج جدران البيت، ويحكي لها أية حكاية

عن أي شيء، حتى تروح في النوم مثل طفلة.

كانت تخشى أن تموت وحيدة، وقد خلا البيت من البنات الثلاث، ولكن الله كريم، مات الشيخ عبد اللطيف فعاد الولد إلى البيت بعد غياب سنوات طويلة، أراقت فيها دموعًا تكفي لملء ترعة، فمن الذي سيجرؤ على أن يأخذه منها، بعد كل ما كان؟ أين سيهرب به منها؟

أصعب أيام وليالٍ هي تلك التي يسافر فيها مطر، ويغادر إلى الإسكندرية في الشمال، إلى الأقصر أو أسوان في الجنوب، إلى أمريكا أو فرنسا، من غيره تبقى بين اليقظة والمنام، لا هي صاحية ناسية غيابه، ولا هي نائمة لا تبالي بوجوده خارج بيتها.

لولا «فتحية»، الجارة الطيبة، التي تقضي حوائجها وتأخذ ما فيه النصيب، ولولا قبولها أن تنام في بيتها عند غياب مطر لما بقيت حية حتى يعود من سفره.

عاد الليلة، وهي نصف نائمة في سريرها في انتظاره، وفتحية طبخت عشاء وتركته على منضدة المطبخ، ومضت، وهي تنتظر في سريرها أن تسمع صوته، وحركة كركبة في المطبخ.

كانت تنتظره كأنه منام جميل، لكنها لم تشعر بقدومه.

– تصور، أمي تحب الغناء والأفلام، والنحت، وتحب أعمالي.

– يا بختك.

أومأ مطر بابتسامة ابن بار، ممتن لأمه، وسعيد بها.

أراد خالد تغيير المزاج الشجي، فسأل عن ثمن الطائر الفريد.

قال مطر النحات:

– العمل دا ببلاش، وبجنيه، وبمليون، وبخمسة ملايين، وبمئة مليون دولار.

– نعم؟!

بجدية حادة قال مطر:

- هذا العمل لا يُقدَّر بمال.

مبهوتًا صمت خالد، وتحول بعينيه عن وجه صاحبه إلى رأس تمثال الطائر. «رأسه يشبه رأس مطر نفسه، مصغرًا خمس مرات، تسع، ثلاثين مرة.. مش عارف، التمثال آية جمال.. ليس بتمثال، إنه روح حية».

كان خالد في وقفته بين التمثال ومطر مغمورًا بنشوة كاسحة، سرت في شرايينه حتى أضاءت وجهه، وأشعلت فيه رغبة جارفة في امتلاك الطائر.

- عايزه.
- ...؟
- تشتريه؟
- هاه.

قال مطر ضاحكًا:

- هات كل اللي في جيوبك وخده.
- إنت عارف في جيبي كام؟
- مش مهم.. طلَّع كل اللي في جيوبك وخد التمثال، حلال عليك.

مذهولاً مد يده إلى جيب سرواله الخلفي، وسحب حافظته الجلدية، فتحها وأخرج كل ما فيها من نقود، وضع المئتي جنيه على المنضدة أمامه.

ضحك مطر ساخرًا.

قال خالد:

- كل اللي معايا.
- بتستعبط؟
- والله كل اللي معايا.

نظر مطر مباشرة في عينيه، وفي ذهنه يتردد: «لا تدخر شيئًا أبدًا للغد، أنفق

الآن كل ما معك تكُن الأبدية لك.»

ظلّا لوقت هكذا يحدق أحدهما بالآخر، يتفاهمان بالصمت.

– كل اللي معاك يعني كل ما تملك الآن.. كل اللي في جيوبك.

كأنه في حلم مدَّ خالد يده بلطف فلمس رأس الطائر الصغير، كان ناعمًا جدًّا، وفي عيني الطائر نظرة سرور أبدية. مدَّ يده لحافظته، وفتَّش جيوبها كلها، مخرجًا بطاقة رقمه القومي، وكارنيه عمله، وبطاقة مرتبه الحكومي، وكارنيه عضويته بنقابة المكتبيين، وكارنيه عضوية مركز شباب الجزيرة، الذي اشترك به بمئة جنية منذ سنوات طويلة ليتيح لسامية وللولد وللبنت متنفسًا أخضر في جزيرة المدينة.

وضع بطاقاته كلها على المنضدة، وهو يبلع ريقه بصعوبة.

الآن صار بلا شيء فعلاً، وقد دفع لـ«مطر» كل ما معه.

حدَّق مطر في عيني صاحبه فلم يرَ فيهما ترددًا، ولا ندمًا.

«ها قد جاء دورك أنت، هل ستعطيه الطائر الفريد»؟

جلس النحات على كرسيه ووضع يديه على فخذيه، وراح يفحص ببصره أشياء خالد عبد الباري، المنثورة على سطح المنضدة الناعم.

«لقد عبر خالد إلى هناك، وبلا تردد. الآن يريد أعز ما عندي اليوم، أجمل ما نحتُّ. إنه يستحقه، ولكني أنا، هل سأبدع مثله مرة أخرى؟ لا ليس مثله أبدًا، تمثال آخر جميل، ليس أجمل ولا أسوأ، تمثال جديد، تمثال فريد ليس له نظير. إنه له. هذا التمثال لن يسافر إلى أي مكان.. انتهينا».

قام من مكانه، وبيديه رفع تمثاله عن قاعدته، ومده نحو صاحبه.

التقطه خالد عبد الباري وضمَّه إلى صدره، ومطر يجمع المئتي جنيه، والكارنيهات والبطاقات، ويضعها في حافظته الكبيرة، ذات الجيوب الكثيرة.

أحضر حقيبة كبيرة من ورق الكرتون البني المقوى، لها يدان من أحبال ملونة، وتسع الطائر.

وضع مطر التمثال في الحقيبة، وترك دمعة واحدة تفر من عينيه وهو يلقي عليه نظرة قد تكون أخيرة، وكان الليل قد أوغل حين انطلقت صرخة من الطابق الثاني في بيت مطر.

صُدِم خالد عبد الباري بالصرخة المدوية ويداه قابضتان على حقيبة الكرتون.

– فيه إيه؟

ربت مطر على كتف صديقه ببساطة:

– ما تنزعجش.. ماما، دقيقتين وراجع لك.

وصعد إلى الطابق العلوي، ودفع باب غرفة أمه ودخل.

كانت قاعدة في سريرها تلهث مثل قادم من جري طويل، وتبسمل، وتردد:

– يا حفيظ.. يا حفيظ.

أخذها في صدره وربت على ظهرها صامتًا حتى سكتت.

نظرت إلى وجهه، وإلى يده على كتفها:

– كدا يا مطر تسيبني الوقت دا كله؟ جيت إمتى من فرنسا؟ من الصبح. مش كدا؟

حوَّل وجهه عنها ساكتًا.

– أول ما وصلت رُحت لها. كنت معاها، أنا عارفة، عايز تتجوزها وتسيبني لوحدي.. شُفتك في المنام وإنت في الكوشة قاعد وجنبك العروسة، بنت كدا ما أعرفهاش وما حبيتهاش.. إنت اتصرمحت يا واد كتير، وعرفت بنات ياما، وسِبتني سنين وسنين، جاي دلوقتي وأنا في آخر أيامي عايز تطفش من وشي؟! اقعد معايا اليومين اللي فاضلين لي بقى.. قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي

عليَّ حجر.. كلها أيام وأموت يا حبيبي وابقى ...

- كابوس تاني يا فاطمة!

قبَّل جبين أمه بلطف، ودللها:

- معلهش يا فطومة.. حقك عليَّ.

كانت تخاف أن تموت وهي نائمة، تحلم بكابوس، تموت دون أن تدري أنها تموت، كثيرًا ما تصحو فزعة لأنها نامت حتى نسيت أنها يمكن أن تموت دون أن تدري، تصرخ في قلب الليل، وفي الفجر، وفي بواكير الصباح، وتنتظر أن يأتي مطر إلى فراشها، وفي يده كتالوج رسومات الطبيعة الصامتة التي تحبها، يتمدد إلى جانبها، ويفرجها على اللوحات ويكلمها عن فنانين كثيرين، يحكي لها قصص حيواتهم، ويتحدث عن أعمالهم، حتى تغفو، وتروح في نوم عميق، بلا كوابيس.

فتح أمامها الكتالوج، فاستقرت عيناها على لوحة لحقل نخيل.

- عايز تتجوز وتسيبني للموت؟

كان يحبها، ويعرف أنه يجب أن يبقى معها حتى يرحل أحدهما، وأنه من المستحيل لأمه أن تقبل بوجود امرأة أخرى في هذا البيت، بيت أبيه وجده وبيتها هي وحدها الآن. لن تقبل نانيس بالتحديد، إنها تعرف أن نانيس ستستولي على كل ابنها، ولن تُبقي لها منه شيئًا.

قلب الصور أمام عينيها.

«أقول لك وأخلص ولا إيه يا فاطمة»؟

منذ شهور مضت، لما قال لها إنه يريد أن يتزوج، غضبت، وهاجت وماجت وصرخت فيه، وصارت تحلم بهذا الكابوس، فماذا لو قال لها الآن إن العروس هي الدكتورة نانيس؟

في الورشة، كان خالد غير قادر على الانتظار، يود لو يغادر الآن إلى البيت، ويضع بين يدي سامية هذا الطائر الفتَّان، لكنه ما زال وحيدًا هنا، ومطر عند

أمه في الطابق العلوي.

كان على المنضدة الصغيرة دفتر اسكتشات كبير، بغلاف أخضر من ورق مقوى. استراح خالد في جلسته وفتحه. كانت اللوحة الأولى بحبر أسود، امرأة سمراء، ذات ملامح حادة، بأنف رشيق، تحدق في فراغ أمامها. الاسكتش الثاني الوجه نفسه مرسومًا من الجانب الأيمن، والذي يليه المرأة نفسها من الجانب الأيسر. في كل رسم الوجه نفسه، تتقلب على صفحته العواطف.

أغلق الدفتر، وقام يتجول بين تماثيل الورشة. في ركن كان تمثال لبياع عرقسوس يحمل فوق بطنه قدرة هائلة، ويمسك بين أصابع يمينه بصاجات من نحاس. ابتسم، وعبره، فرأى ثلاث حمامات جالسات على لوح من جريد. أشرقت ابتسامته، وقد حضر أبوه على صفحة ذهنه الرائقة.

«عبده البارمان»، كعادته، عصر كل خميس فوق سطح البيت، يشد، من فوق، باب عشة الحمام الجريد، ويطلق كل الحمام منها. عنده حمام بلدي وآخر زاجل وثالث من أنواع لا يعرف خالد أسماءها. أبوه يُطيِّر الحمام وبيده راية كبيرة من قماش أبيض، الحمام يطير، وأبوه يصفر، ويهز الراية مرة يمينًا فيتحرك سرب الحمام يمينًا، يرفعها إلى أعلى فيزيد السرب من تحليقه، يهز رايته إلى الشمال فيطيع الحمام. كان أبوه يبدو مبسوطًا ومنشرحًا جدًّا حين يفعل هذا كل عصر، قبل أن يذهب إلى العروس.

تذكر خالد عبد الباري ولع أبيه بالحمام، ولم ينسَ ما وقع له بسببه.

عندما اشترى عبده البارمان العشة الكبيرة المصنوعة من جريد النخيل، وأقامها فوق السطح، تشاجرت صفية معه. وعندما ذهب صباح خميس إلى سوق الحمام، في فم الخليج، خلف مستشفى الصدر، واشترى عشرة أزواج من الحمام، وعاد بها إلى البيت فرحًا كطفل، وأخذ يشرح لها غيته الجديدة، ويفرجها على حمامه، كادت ترقع بالصوت الحياني، واكتفت بأن وبخته:

– اللي معاه قرش محيره يشتري حمام ويطيره.

ضحك عبده، ومد يده إلى خاصرتها ودغدغها، فقامت منتورة:

– ياختي.. عيب يا عبده.

تذكر أن أمه لم تكدر أباه، ولم تضايقه، ولو لمرة واحدة، أخرى.

وتذكر أيضًا أن أباه حين رحلَت مسح دموعه، وقال له: «أمك كانت طيبة قوي.. الله يرحمها.»

تبسّم والطائر بين يديه، داخل الحقيبة، وقال وهو وحيد في الورشة:

– وإنت يا بابا كنت غاوي الحمام.

عاد مطر إلى الورشة وسمع ما قال خالد:

– طب ودي فيها إيه؟ أبوك كان راجل جميل، الله يرحمه.

قال خالد:

– مالها الوالدة؟

– تمام، نامت، وراحت في سابع نومة.

– كانت بتصرخ ليه؟

سكت مطر، والتقط كاميرا فوتوغرافية جديدة، حديثة جدًّا، أتى بها من باريس، وقال إن المطر توقف، وإن أروع صور للهرم يمكن التقاطها هو الآن، بعد المطر؛ فقد غسل الماء كل الغبار في الجو، وسيكون نور الفجر رائعًا، وسيبلغ ذروته مع شروق الشمس.

أشار خالد لدفتر الاسكتشات:

– فتحته واتفرجت. بتعمل تمثال لواحدة حلوة؟

– أيوه، أينعم.. تمثال نصفي من الجرانيت.

– جرانيت!

- أيوه.

بغير تفكير مسبق خرجت من فمه كلمتين:

- الاسكتشات فيها شبه من سامية.

هز مطر كتفيه:

- ممكن؟

- وفيها شبه من نانيس!

سخر مطر:

- آه.. وفيها شبه من أمي! يللا بينا يا عم.

- خلي بالك، إنت بتنحت تمثال لمراتي.

- كويس، ما تقولش لحد بقى.

وبعد دقيقة، صرَّ الباب الكبير للخارج عندما فتحه مطر وخرج، في جيبه كل نقود صاحبه وكارنيهاته، وخلفه خالد يحمل حقيبة الطائر، في فرح.

ركبا السيارة، وانطلقا مخلفين وراءهما أشهر منزل في نزلة السمان، البيت المعروف باسم «بيت الضحّاك».

١٦

للحظات، بقيت سماهر على عتبة باب المطبخ، وقد ارتدت عباءة سوداء واسعة، مطرزة بغصون ذهبية، ووضعت فوق رأسها طاقية سوداء، أسطوانة عريضة قصيرة من صوف، يلفها شريط أحمر رقيق، كأنها طربوش. كان شعرها غائبًا، تبين منه خصلة واحدة رقيقة، بنية وذهبية، ووجهها مغسولاً بلا مكياج، جذابًا وشهيًّا، وبين يديها حقيبتها، تحوي بدل رقصها، وإكسسوارتها، وأدوات زينتها، وعلى محيَّاها تلوح حسرات.

حركت يديها فوق مقبض الحقيبة بتوتر فشخشخت الأساور الفالصو المذهبة حول معصميها. أدارت عينيها بسرعة في أرجاء المطبخ الواسع، فرأت عدة طباخين وسفرجية يواصلون شغلهم بما تبقى لديهم من همة.

ما إن لمحها برسوم الطباخ الذي كان يترقب حضورها حتى أومأ لها، وهرول نحوها وهو يشير إلى ركن. تحركت معه، تقدمها إلى ضلفة الحديد الطويلة المستطيلة، وأمسك اليد الهلالية، التي أكل معدنها الصدأ، ودفع الباب إلى الخارج ببطء محاذرًا أن يحدث جلبة، لكن المفاصل القديمة أزَّت بصوت خافت طويل، عتيق.

حدق في الممر شبه المظلم لحظة، ثم أدار رأسه إلى الخلف، وأشار لها بالخروج، وهو يهمس:

- مع السلامة يا بنتي.

في لحظات سرَّبها من مطبخه، مثل قطة غريبة غافلت الحراس وتسللت إلى العروس، وأغلق خلفها الباب. لم يهتم إن كان قد لحظه أحدهم أم لا، لم يشغل

باله بالتخمين والشك، وعاد إلى موضعه أمام الموقد الكبير يقلب ما بقي من الأرز في الحلة الكبيرة، يحتل كل طاسة دماغه شخص برميلي الجسد، بوجه سمين يهتز كالجيلي، يسخر منه: «عنَّك يا معلمي، عنَّك.»

«هيعمل لي إيه يعني؟ كلهم يقدروا يعملوا فيَّ إيه»؟

رفع رأسه عن حلة الأرز، وبلا مناسبة صاح وهو يقلب بلا وعي:

– الله غالب.

سمعه كثيرون، ولم يلتفت إليه أحد سوى بندق السفرجي. أدار وجهه نحوه، ولحظة بعد أخرى كان وجهه غامق السمرة يشحب، ويكسوه حزن لا يكاد يبين، وبرسوم يردد:

– ربنا موجود.. ربنا موجود.

ما إن سكت برسوم حتى كسا الغضب وجه بندق، وانطلق لسانه الطويل بسباب حمُّو الترسة سبابًا طويلاً متصلاً، وأرغى وأزبد حتى اندفعت من بين شفتيه الغليظتين دفقة بخار كبرى، ارتفعت وغطت على الأبخرة المتصاعدة من الأواني فوق مواقد الطعام، في المطبخ الكبير.

خرجت سماهر من باب المطبخ هاربة، حتى لا يستوقفها الهراوي، فوجدت نفسها في ظلام ممر ضيق. لمَّت عباءتها السوداء الفضفاضة. «بسم الله الرحمن الرحيم.» وقدَّمت رجلها اليمنى، ومشت ببطء على بلاط الممر الفاصل بين العروس ومبنى البنك المجاور، وعن يمينها درَج معدني من حديد صدئ، يصعد إلى أعلى: سلم الخدامين القديم.

وصلت إلى نهاية الممر القصير فأصبحت في ضوء فانوس العامود الزيتي القديم، المغروس بالرصيف منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، وتوقفت تنظر بلهفة إلى الجهة الأخرى.

أمام رصيف محل «العاديات»، الشهير بإقامة مزادات دورية للتحف النفيسة، على بعد خطوتين من البابين العاليين المغلقين، كانت سيارة بيضاء تنتظر.

«الحمد لله، قدري السواح ما اتأخَّرش عليَّ».

كانت ستخطو وتعبر الشارع حين سمعت من يناديها عن يسارها بصوت خشن حازم:

– الله! خارجة من هنا ليه يا فنانة؟

اضطربت من غلظة صوت الهراوي، واغتاظت حين رأت عنتر السنَّان يقف إلى جواره، ضئيلاً، بني الوجه المجدور، يحدق فيها، فاتحًا فمه الواسع، مباعدًا ما بين شفتيه الممسوحتين، كاشفًا عن أسنان كبيرة غير منتظمة، صفراء ومسودة:

– ردي ع الباشا يا سماهر.

سكتت للحظات تلملم نفسها، ثم أشارت إلى التاكسي:

– أصله راكن هنا، قدام باب المطبخ، أهو هناك.

ونادت متلهفة بصوت عالٍ:

– عم قدري.. عم قدري.

من خلف عجلة القيادة خرج كهل سمين الجسد، كثيف الشارب، في جلابية فلاحية ثقيلة واسعة وطاقية بنية وكوفية رمادية حول عنقه، وأغلق الباب بهدوء خلفه.

تجرأت سماهر وهو يهرول نحوها عابرًا الشارع، فصاحت في الهراوي:

– وبعدين هو يعني ليَّ باب مخصوص أخرج منه؟! أنا أخرج من مطرح ما يعجبني.

نهرها عنتر وهو يُجري أصابعه فوق فمه مفزوعًا:

– اخرسي خالص.

تحولت سمرة وجهها إلى حمرة ملتهبة، زمَّت شفتيها لتمنع دفقة شتائم عاتية من الخروج من فمها، وحدقت في وجهه بعين قوية، فنكس رأسه لبرهة.

كان قدري قد وصل، ورفع يديه عند أذنيه:

- مساء الخير يا كابتن هراوي.

لم يرد الهراوي تحيته، ونظر نحوه، وإلى ملابسه باستخفاف قالبًا شفتيه، ولم يقُل له ولا لـ«سماهر» شيئًا. حوَّل وجهه إلى عنتر، وتبادل معه نظرة غامضة، ثم تنحنح وهو يعقد يديه خلف ظهره، ويتحرك بخطوات بطيئة مبتعدًا عن الجميع، في اتجاه الباب الرئيسي لـ«العروس».

- خلصتي نمرتك يا سماهر؟

سألها عنتر بغلظة.

استشاطت غضبًا وقد صارت كف يدها اليمنى سيفًا قصيرًا مررته أمام ناصيتها:

- هئ.. نعععععععععم؟!

- نعم الله عليكِ.

- مالك أنت خلصت نمرتي ولا ما اتنيِّلتش؟! أنت مال أهلك؟

بلا مبالاة مد يده إلى كتفها وأمسك بساعدها:

- طب يللا بينا أروَّحك.

أفلتت ذراعها من بين يديه، ونفرت إلى الخلف:

- إياك تلمسني.

ابتعدت عنه خطوات، ووجهت شرر عينيها نحو سائقها القديم.

- مليش دعوة بيه يا سماهر.

- أومَّال مين اللي جابه هنا؟ مش أنت؟! من إمتى بتعمل الحركات دي معايا

يا قدري؟

طأطأ قدري السواح رأسه.

صرخت في عنتر:

– إيه اللي جابك هنا يا سنَّان؟ عايز مني إيه؟

– اسمي عنتر يا سماهر.

– هه.. عنتر!

– آه، مش عاجبِك ولا إيه؟

– أنت جاي هنا عشان تتخانق معايا؟!

صرخت في قدري حانقة:

– طيب يا قدري.. طيب، صبرك عليَّ.

قال قدري:

– ابن عمّك برضه وخايف عليكِ! ومفيهاش حاجة يوصَّلِك معايا.

– ابن عمي مين يا جدع أنت؟! هو كل واحد في العزبة مش عارف أصل التاني وفصله ولا إيه؟! لا ابن عمي، ولا أعرفه. حيا الله قريب جدتي من بعيد. ماشي.. مش راكبة معاك يا قدري، مع السلامة.

زعق عنتر في الهواء:

– أنا... أنا مش بس ابن عمّك، أنا كمان خطيبِك.

ضربت يدها على صدرها وصاحت بعلو صوتها:

– خطيبي منين؟ خطيبي من أمتى؟! أنا أتخطب لك أنت؟!

وهرولت مبتعدة تضم عباءتها السوداء الطويلة من وسطها بيد، وتحكم بيدها الأخرى طاقيتها السوداء، التي تشبه الطربوش، فوق رأسها.

تحرك عنتر خلفها خطوتين فجاءه صوت الهراوي من مكانه على بعد خطوات:

- سنَّان.

توقف السنَّان، وتوقفت سماهر ناظرة إلى الهراوي.

- ما تضايقش الفنانة.. تعالى.

قفز قدري إلى حيث سماهر:

- اتفضَّلي.. اركبي يا ست البنات.

تحركت سماهر نحو التاكسي الأبيض فزمجر عنتر في مكانه.

غمز الهراوي له بعينه اليسرى وأخذه من تحت إبطه، ومضى به نحو باب العروس.

ركبت سماهر مع قدري وهي تتأفف وتغالب غيظها. لم تجلس إلى جواره، كعادتها حين تطلبه لتوصيلها إلى ملهى أو إلى فرح أو إلى فندق، جلست على الكنبة خلفه غاضبة، تصب لعنات صامتة على السائق الذي أراها وجه عنتر في آخر الليل.

- حقِّك عليَّ يا فنانة، سماح والنبي.

كان صوته ودودًا وصادقًا في أذنيها.

- صلي على النبي.

راقت قليلاً لكنها لم ترد، ولم يسكت قدري وأخذ يراضيها، ثم تكلم عن أقساط التاكسي المتأخرة عليه وديونه، وعن حاله التي لا تسر، لا عدو ولا حبيب، وقال برفق عطوف إنها في مقام بنته.

انطلق التاكسي الأبيض بـ«سماهر» في طريقه إلى ميدان التحرير، وكان الهراوي ينزل الدرَج الخشبي إلى الطابق السفلي، وخلفه عنتر.

– مودِّيني على فين يا باشا؟

حدجه بنظرة قاسية:

– اصبر ياله.

وزغده في جنبه زغدة أخرى أقسى من الأولى.

في عيني الهراوي الواسعتين زبائن العروس ثلاثة أشكال: زبائن أثرياء، مليونيرات، يجب أن يدفعوا كثيرًا، وأن يزيدوا له في الإكرامية والبقشيش ما داموا يتخمون كروشهم الواسعة بفاخر الطعام والشراب وهم آمنون مرتاحون على موائد العروس، وزبائن من أعلى، أو واصلون لأعلى، وهؤلاء يجب مداراتهم ونفاقهم وترضيتهم بكل وسيلة، وزبائن لا داعي لوجودهم في العروس أصلاً ولكنهم مهمون جدًّا، إنهم من يعطون لوجوده معنى وقيمة، حفنة المشاغبين الذين يرفعون أصواتهم، ويتشاجرون ويكدرون سلم العروس وهدوءها، هم أهم زبائن العروس عند الهراوي، وهو يعرف أكثر من غيره كيف يردعهم، ويخيفهم، ويلقي في قلوبهم الرعب، إن لم يزجرهم بنيانه وعضلاته وهيبته ردعهم مسدسه المرخص. هؤلاء يجب ألا يختفوا أو يتلاشوا من العروس، ولكن: «السنَّان دا.. مستر أسعد يعوزه في إيه؟!»

السنَّان يأتي إلى العروس عصر كل جمعة، يدخل المطبخ من باب الخدم، ويأخذ من يد برسوم بعض أدوات المائدة والمطبخ، الفضية والذهبية الفاخرة، الخاصة باستعمال صفوة العروس، لصيانتها وسنها وتلميعها، وإضفاء رونق جديد عليها، غير ذلك لا حاجة لـ«العروس» به.

«عايزه في إيه مستر أسعد»؟!

عند نهاية الدرَج، وضع الهراوي يده على كتف السنَّان، ومشى به خطوات. تألم تحت ثقل يد الهراوي لكن عينيه لم ترتفعا إليه باحتجاج أو استياء، إنه دائمًا تحت الأمر، ولو كانت اليد ثقيلة وغليظة، وباطشة إن أرادت.

عند المكتب، دفعه الهراوي في صدره دفعة خفيفة بعيدًا عن الباب:

- استنى هنا شوية.

وفتح باب مكتب مستر أسعد، وغاب في الداخل.

تراجع عنتر السنَّان إلى الخلف قليلاً، وسند ظهره إلى الحائط، وراح يتطلع فيما حوله بعينين مفتوحتين عن آخرهما، جائعتين، مندهشتين وهما تقعان للمرة الأولى على كل هذا الغنى.

«أول مرة تنزل هنا يا سنَّان، هنيَّالك».

كان الطابق السفلي، شبه السري، لغزًا محيرًا له، يعرف بوجوده لكنه لم يكُن قد رآه رؤية العين. صوَّب عينيه الشرهتين إلى منضدة العشاء الفخمة، واحتار من غرابة شكلها وأناقتها ولمعانها، وكاد يتحرك ويمد يديه ليلمس أحد الكراسي المذهبة بتاج العروس. ابتلع ريقه وثبت في مكانه لا يرمش، ثم حوَّل عينيه إلى الحوائط البيضاء، المعلقة عليها لوحات ملونة كبيرة، فيها هوانم وبهوات وباشاوات، ثم رفع وجهه ونظر إلى السقف للحظات قبل أن يهبط إلى موضع قدميه. فوقه وحوله وأمامه غنى فاحش وفخامة وأبهة في كل شيء، وتحت حذائه المُتهرِّئ سجادة قطيفة وثيرة وحمراء و...

«أنا هنا مجرد حشرة».

انقطع حبل أفكاره حين فُتِح باب مكتب مستر أسعد، وظهرت يد الهراوي مرفوعة في الهواء تحرك أصابعها الطويلة المكتنزة وتضمها نحو الكف، تأمره أن يعبر الباب المفتوح، ويدخل.

- تعالى.

عدل هندامه وتحرك، متهيبًا، ومتوجسًا: «نادرة من النوادر، عايزني في إيه يا مستر؟»

رفع يديه عند رأسه وانحنى قليلاً:

- سلام عليكم يا حضرة المستر.

من خلف مكتبه، حدق به المستر، وفحصه بعناية من أسفل إلى أعلى، وهز رأسه هزة خفيفة:

- اسمع يا ...

اقترب عنتر السنَّان قليلاً، وكاد يركع على ركبتيه.

وكان قدري السواح قد اجتاز بـ«سماهر» النفق، وعبر إلى شارع الهرم في طريقه إلى عزبة سُوبِك.

على الكنبة الخلفية «سماهر» كئيبة، تعيسة: «مش هرقص في العروس تاني.. يا دي الخيبة!»

ابتلعت حسرتها وتنهدت، فسرت مرارة في عروقها، وانتشرت مؤذية الجسد الحلو.

في دماغ سماهر تتردد دومًا ألحان وألحان، خلايا دماغها تهتز في جمجمتها، فتحرك أعضاءها واحدًا بعد آخر، فتهتز بطنها ويتمايل خصرها، وتتحرك سيقانها وأقدامها، ويطرب بالنغم كل شيء فيها فيهتز، ويتحرك ويرقص من شعرها الطويل حتى مشطي قدميها، لكن الذي يتردد الآن أشياء أخرى.

«ماذا سيفعلون بالأستاذ خالد، الذي أوصى برسوم بتهريبي من باب المطبخ؟ ما الذي جاء بالسنَّان إلى العروس الليلة»؟!

لم تعرف سماهر ما دار بين عنتر والهراوي، ولا بنزوله إلى مكتب مستر أسعد، ولن تعرف، ولا تعلم ما تخبئه بقية الليلة الطويلة، لكنها واثقة أن قدري رجل طيب، ولن يذهب بها إلى أحد حتى لو كان السيد عمر عبد الظاهر نفسه، الذي سمعت عنه القليل ولم تره قط، إن شاء الله لن يصعد قدري بها إلى جبل المقطم، لن يوصلها إلا إلى حضن جدتها في عزبة سوبك.

«نمتِ ولا لسه صاحية يا مسألش»؟

جدتها معروفة في العزبة وفي النزلة كلها باسم «مسألش السَّحَّارة»، وكانت في شبابها امرأة ساحرة ،ترقص وتغني في الموالد، وتقرأ الطالع، وتقتفي أثر النجوم، ولما عجزت عن الرقص اكتفت بكسب عيشها من قراءة جبهات الفلاحات، اللاتي يأتين إليها شاكيات من أمراض، ولبوسات، وجن، وبشر، فتقرأ المكتوب على الجبين، وتقول لهن كلمات طيبة، وترش وجوههن بالماء، وتأخذ ما يجدن به من جنيهات قليلة أو دجاجات وهي شاكرة. أطعمت سماهر، وعلمتها الرقص، وأدخلتها المدارس حتى كبرت، وصار معها شهادة كبيرة وصنعة، ومُهرَة يرغبها كل شاب، وكل كهل غني في العزبة وفي نزلة السمان. كم ماطلت السنَّان وخدعته، وتركته يحلم بها في الليل والنهار، وهي في دخيلتها تحتقره، تبغضه، وتنتظر أن تخلصها منه أقدار لا يعرفها سوى الخلاق.

- سرَّع شوية يا عم قدري، يا رب ما تكون نامت.
- عينيَّا حاضر.

وأسرع.

صرف أسعد لطيف الهراوي، والسنَّان، من مكتبه وهو مطمئن لحسن تدبيره وألمعيته المدهشة له، هو شخصيًّا، وطلب الرقم السري الخاص بالسيد عمر.

رن آيفون أسود أنيق على منضدة مذهبة الأرجل، محلاة بالصدف.

وكان عمر بك ممددًا على كنبة وثيرة في الطابق الثاني من فيلته، الذي يشبه طبقًا طائرًا كبيرًا، محاطًا بخزائنه، وتحفه، ومقتنياته الثمينة، والتي تحوي كل ما كسب، منذ رأى الحاج مرزوق للمرة الأولى.

كان مسترخيًا، يسمع الموسيقى.

وضع كأسه بتمهل:

- أيوه يا أسعد.

أخبره بصوت وأداء لطيف رشيق أن البنت سماهر لا تنفع في أي شيء، وأنه لا داعي منها في العروس، فهي:

- أنثى ساذجة يا عمر بيه، وراقصة غشيمة، دون مستوى العروس. أي كلام وليست مفيدة، بترقص لنفسها مش للزباين، ومش هتكون مبسوط منها أبدًا، دي ما تنفعش في أي حاجة إطلاقًا، وأنا عندي الفنانات اللي العروس محتاجاهم فعلاً، راقصات استعراضيات، مبدعات بجد، يعرفوا يبسطوا كل الزباين، ومش معقدين زي البنت دي.

رد عمر بك بقهقهة:

- هربت منك يا مستر!
- بسيطة يا أفندم.. أجيبها بنفسي لسيادتك حالاً، دلوقتي حالاً.

قال السيد عمر بحسم:

- أنت صدقت إني كنت عايزها؟! أنا كنت بهزر معاك يا أسعد.

وبعد صمت سأل:

- عملت إيه في الحاجة التانية؟
- تمام، زي ما سيادتك أمرت.

عاد السيد عمر إلى كأسه.

وصعد مستر أسعد إلى الطابق العلوي ليُتم المهمة الأخيرة الموكولة إليه.

لم يبقَ في صالة العروس سوى أفراد متناثرين، وما زال «طلحة أبو درقة» ملتصقًا بمقعده يأكل ويشرب، يخفض رأسه خلف كل كلمة تخرج من شفتي البك.

وكان ثروت بك قد ملأ معدته إلى آخرها من جديد بأطباق كثيرة، وشرب حتى ارتوى، وشعشع:

- وكل برغوت على قد دمه، ولا إيه يا برغوت؟

وضحك ضحكته الطويلة، ففتح طلحة فمه، وباعد ما بين أسنانه الكبيرة كأنه يضحك بلا صوت: «الله يحفظ مقام أمك يا ثروت بك.»

- طبعًا سيادتك.

- ومن حكم في ماله ما ظلم يا أخ.. وكل الكلام البلدي دا,

- مظبوط يا أفندم، مظبوط.

أخيرًا لمح مستر «أسعد» المحامي باهر العقدة جالسًا وحده ينتظره.

قام المحامي واقفًا لما تلاقت عيونهم، فتحرك نحوه، وجلس إليه، وبدأ إبرام الصفقة مباشرة.

وفي مطبخ العروس كان برسوم يجمع ملابسه من دولابه العتيق، ويستعد للمغادرة حين ظهر أمامه حمُّو الترسة.

- معلهش يا معلمي، آدي حال الدنيا.

ابتسم برسوم، وحدق في وجهه صامتًا.

- إيه.. باخد بخاطرك، غلطت يعني؟ حقك عليَّ، بلاش.

تبسم برسوم حزينًا، مقهورًا.

كاد حمُّو أن يمد يده إلى كتف برسوم:

- قلنا حقك عليَّ يا آبا.. هوِّينا بقى.

وحوَّل وجهه عنه:

- وإنتو يا أسطوات.. من الليلة أنا مستر حمُّو، ريسكم، رئيس الطباخين والسفرجية وعمال النضافة.

ونخز بغلظة:

- واللي ملوش لزمة في المطبخ دلوقتى يتهوى.. اتهوى يا برسوم.

أدرك برسوم إنه لم يُفصَل من عمله بأمر من مستر أسعد، بل بأمر من السيد عمر عبد الظاهر شخصيًّا.

- مبروك عليك.. اشبع بيها واتهنى.

توقفت أيدي الطباخين عن أعمالهم، وترددت أعينهم بين معلمهم القديم، و«الحمُّو» الجديد، وساد وجوم حين خلع برسوم بهدوء طاقيته العالية من فوق رأسه، والمعطف الأبيض.

في وسط المطبخ تقريبًا، عقد حمُّو يديه خلف ظهره، وشد جرمه، وانتصب في وقفته، كجوال ضخم منفوخ، كبرميل بلا قعر، وأخذ ينصت ساكتًا إلى التهاني القليلة التي خرجت من أفواه بعضهم، ومنتظرًا المزيد منها، واختفاء برسوم من المطبخ، ومن العروس كلها، الآن، وإلى الأبد.

حط حزن كئيب على الوجوه، وفي هواء المطبخ وأثاثه، حين خرج برسوم من الباب الخلفي، حاملاً حقيبة ملابسه، وهو يتمتم:

- أشكرك يا رب.. أشكرك يا رب.

من وسط البلد إلى درب الطباخين بالسيدة، أخذها مشيًا على الأقدام، سارحًا مع أفكاره، و«هاني»: «هل حركت جبل المقطم يا هاني؟! تركتني وحيدًا بلا أنيس ولا جليس، تركتني أتعذب يا قاسي القلب، وذهبت بعيدًا، هل فعلت مثلما فعل القديس سمعان الخراز؟ هل حركت جبل المقطم؟!»

واصل طريقه، لا يدري ما حوله، حتى دخل غرفة نومه وتمدد على سريره يملؤه غم وكرب عظيم، يكاد يصرخ من ألم شنيع اجتاح جسمه كله من قدميه إلى عظام جمجمته.

- يا رب.. يا رب.

ردد بتسليم، لم يعترض على كل ما جرى، ولم يخبط بقبضته الجدار، ونام نومة طويلة مريحة، متدثرًا بلحاف ثقيل قديم، ولم يكُن في حاجة إلى صحبة أحد.

من الباب الرئيسي لـ«العروس» خرج كهل آخر يحكم معطفه الأسود حول خصره، والكوفية حول عنقه، ولكنه نشيط رغم البرد يمشي بخطوة واسعة سعيدًا بما يجول بخاطره: «أنا باهر العقدة، المحامي العظيم، رجل التقفيل الأكبر، تقفيل القضايا والمشكلات والأبواب، وخاصة باب سجن السيد عمر عبد الظاهر. إنه صيد ثمين، ولحسن حظه أنه أدرك من أنا منذ زمن طويل، ولم يكُن في وسعه سوى أن يرضيني، ويمنحني ما أشاء من العروس.. لم ينهكني أسعد في المساومة، ولم يستطِع أن يكتم غيرته مني، وكان حاقدًا وهو يسلمني الشيك المستقر في صديري بدلتي.»

طبطب على جيبه وابتسم وهو في طريقه إلى سيارته السوداء الفاخرة.

أضاء قدري السواح كشافي السيارة حين اقترب من عزبة سوبك، وهدأ من سرعته وهو يمر بنصبة شاي على رأس العزبة: مصطبة من طين، وإلى جوارها موقد غاز متوسط الحجم، وبضع دكك خشبية مخلخلة الأرجل، ومناضد وكراسي من جريد.

زفرت سماهر مرتاحة على الكنبة الخلفية وقد صارت على مبعدة أمتار من جدتها، ورفع قدري يده بتحية الساهرين من أهل العزبة في هذا البرد، الجالسين على الدكك الخشبية، يلعبون الدومينو والورق، وبقربهم راكية نار عظيمة.

ضغط قدري سارينة الصوت «بيب.. بيب» وعبرهم يعزق بسيارته وحل الساحة الصغيرة، وتوغل في حارات ضيقة ملتوية، تضم بيوتًا قليلة ومتفرقة، وأمام بيت مسألش السحَّارة توقف.

البيت الصغير، الشهير في العزبة وفي النزلة شهرة مالكته، بناء مستطيل من طوب أحمر، وباب من حديد، ضلفة واحدة، ومدخل ضيق، وحجرتان متقابلتان، الأولى لاستقبال الزبائن والضيوف، مفروشة بكليم ملون رخيص، تحف حوائطها الإسمنتية العارية كنبات بلدية بمخدات قطنية ملونة، وفي وسطها منضدة من خوص بمفرش قماش، والحجرة الأخرى للنوم، بها دولاب صغير، مزدحم بملابس نسائية، وبدلات رقص، وزجاجات عطور، وأنواع بخور،

وضلفه الثلاث مرايا طويلة، وسرير كبير يسع سماهر وجدتها، وفي آخر البيت الضيق سلم حجري يفضي في أعلاه إلى سطح فارغ من كل شيء، وتحته تطبخ الجدة..

فتح قدري باب التاكسي لـ«سماهر» فنزلت، ونظرت إليه بامتعاض، ووضعت في يده نقودًا معقولة، وقالت له:

– عنتر سَوّ، ما تورِّينيش وشه تاني، الله يخليك.

قبل أن تدير وجهها نحو البيت، كان بابه قد فُتِح، وخرجت منه «مسألش». امرأة طويلة في جلباب ثقيل ملون، مزين عند الصدر بهلال من دانتيلا بيضاء، ضخمة الجسم، مستديرة الوجه، بعينين واسعتين وناصية عريضة مدقوق عليها وشم قديم، أربعة خطوط خضراء رقيقة، وفي منتصف ذقنها نقطة واحدة، حمراء، ترتفع وتنخفض كلما حركت فكها السفلي وتكلمت.

– اتأخرتِ ليه يا بت؟

احتضنتها سماهر، وأراحت نفسها على صدرها الكبير، الواسع.

١٧

صعدت سامية بشندي إلى شقتها في حدائق الأهرام. خلعت فستان سهرتها الوحيد، واستحمت. جففت شعرها بفوطة طويلة ولفَّته في كعكة عريضة، ولبست قميص نوم أبيض، فوق الركبة، مفتوح الصدر ومُوشًّى بدانتيلا رقيقة، ومن فوقه وضعت روبها الكحلي الثقيل، ولبست خفًّا من قصاقيص صغيرة بألوان مختلفة، طرزته بيديها، بإبرتي تريكو طويلتين، وبما تبقى من بكرات الصوف التي صنعت منها كوفيات وقفازات وأخفافًا للولد وللبنت ولـ«خالد»، لتدفئ أقدامهم في الشتاء.

جلست على الكنبة الجديدة في الصالة، ووضعت ساقها اليمنى فوق اليسرى، وأخذت تهزها هزات عصبية متباعدة، مسمرة عينيها على شاشة التليفزيون العريضة، المعلقة على صدر الحائط الأبيض.

أمامها، تجري مشاهد كوميدية من فيلم أبيض وأسود، قديم، وهي لا تكاد ترى ما يحدث، ولا تسمع ما يقول الممثلون، تنفض رأسها وتحاول التركيز على الفيلم، وطرد كل أحداث الليلة من دماغها بلا جدوى. تحاول ألا تسمع طنين كلمات تلك المدعوة هايدي في أذنيها، لكن الصوت لا ينقطع، ويعلو ويتردد. احتقن وجهها وكادت عيناها تدمعان، وهي ترى هوانها إلى حد أن تكلمها تلك البغيضة بهذه الصفاقة، وأن تعرض عليها ما عرضت.

هايدي قالت لها:

– ما دمتِ غضبانة وزعلانة من خالد وسايباله البيت، تلاقيكِ شرقانة.. يا حراام!

- ثروت بيه راجل حريف.. عنتيل، وكريم.
- ثروت بيه مليونير مش شحات زي الهلفوت اللي أنتِ متجوزاه.
- ثروت بيه هيرفعِك لفوق.
- أما بقى لو وصلتِ للسيد عمر يبقى أمِّك داعية لِك.
- هتفضلي طول عمرِك تحرري نشراتي، وتاخدي ملاليم، وغيرِك بياخد ملايين!
- ما نفسكيش تطلعي على شاشة بقى، وتشوفي الملايين، ويبقى صوتِك مسموع؟
- ما نفسكيش تبقي مشهورة في مصر والعالم العربي والعالم حتى؟
- ما نفسكيش يبقى عندِك فيلا في كومباوند محترم، وشاليه في الساحل الشمالي، وعربية هامر، ومجوهرات، ورصيد محترم في البنك، و...

رغمًا عنها، سال خيطان من دموع على خديها، أزاحتهما بأنامها بسرعة، وهي تشهق، وتحاول إزاحة شخص «خالد» الذي برق كشهاب وعبر ذهنها، الذي صار سماء حمراء.

عادت تحدق في الشاشة ولا ترى ما عليها، كأن عينيها قد دارتا في مقلتيهما، مثلما تدور رأس طائر فريد، وتحولتا إلى النظر هناك، في ظلمة الخلف، وحدقتا في الذي يجري في آخر الجمجمة الصلبة. اختفى الفيلم، ولم ترَ سوى الأسئلة الصعبة التي تتقافز داخل دماغها: «ما الذي سيحدث عندما يعود؟ ما الذي سيحدث عندما يفتح باب الشقة ويدخل ويجدني في انتظاره؟ ماذا سيفعل؟ كيف سيحميني من هؤلاء الكلاب عندما يعرف ما يجري؟»

صفقت بطن يدها بالأخرى يائسة، ومن بين شفتيها، بلا إرادة منها، خرجت:

- عايش في عالم تاني!

لم تضحك على المشهد الذي يجري أمامها، تبددت لقطات الزعيق والخناق والتماسك بالأيدي بين البطل والبطلة في زورقهما الصغير فوق النيل، وتلاشت صورة الزورق الذي يهتز هزات عنيفة، ثم يميل على وشك الانقلاب، وانطبع فوقه مشهد آخر.

رأت جماعة من حيوانات مفترسة، مختلفة الأحجام، متباينة الأنواع والألوان، يطاردون بقرة برية فتية، تجري بأقصى ما تستطيع من سرعة وقوة، في كل اتجاه تبحث عن مهرب، لكن الغابة ضاقت أمامها، صغرت وانسدت منافذها، اندفعت في كل صوب حتى تعبت وخارت قواها، لحقوا بها، وحاصروها، والتفوا من حولها في دائرة مغلقة، وضيقوا عليها الخناق حتى طالوها، وشرع كل مفترس يغرس أنيابه في جزء من جسدها الحي.

رفعت يديها إلى وجهها ووضعت كفَّيها على عينيها حتى لا ترى النهاية المريعة.

عندما فتحت عينيها بعد لحظات، اختفى الكابوس المريع من فوق الشاشة، وعاد مشهد الفيلم، وقد استقر الزورق فوق الماء يتأرجح يمينًا وشمالًا لكنه لم ينقلب.

هدأ ذعرها تدريجيًّا.

وفي جاردن سيتي، نفدت أحلام «نانيس واصف»، ولم يعُد ثمة شخص حاضر، لا أبوها ولا مطر، ولا الفتاة التي كانتها. تلاشت المناظر والصور والأسماء ودخلت في الخواء والصمت، وغاصت في نوم عميق ممتع، وعادت إلى نقائها الأصلي، الأول: وجود بلا اسم ولا صفة ولا شكل.

وكان مطر يقود سيارته في ممر ترابي متفرع من الطريق الدائري:

- خليك معايا شوية.. نصور الأهرام وأبو الهول في الجو الحلو دا!
- زمانها تعبت من الانتظار، ونامت!
- مين؟!
- سامية.

ابتسم مطر بصفاء:

- مش هتفرق ربع ساعة، عشر دقايق زيادة، وهتشوف مناظر ومشاهد عمرك ما شُفتها ولا اتصورتها في حياتك.. ولا في أحلامك حتى.

حاول خالد ألا يستسلم للإغراء، حاول وأد شغفه وفضوله، لكنه رضخ لما وعد به مطر، ثم استراح حين ظهرت الأهرام على مرمى البصر، هناك، على بعد مئات الأمتار فحسب.

كانا يقتربان من حرم الأهرام وأضواء عرض الصوت والضوء قد انطفأت منذ وقت طويل، والمطر قد توقف، والجو صفو، والسماء من فوقهما واسعة، رمادية وسوداء، وقد أوغل الليل.

سأله مطر:

- أمي خضّتك؟

ابتسم خالد برقّة:

- الحقيقة آه.

قال إنها حين تنام دون وجوده في البيت ترى كوابيس مرعبة، تجعلها تصرخ في سواد الليل، لهذا نادرًا ما يبيت في الخارج إن لم يكُن مسافرًا، وهذا ما حدث الليلة. انتظرته حتى نامت دون أن تدري فداهمها كابوس جعلها تصرخ كما سمع، وقد هدأت لما رأته، ورجعت إلى النوم.

- هتوافق على جوازك من نانيس؟

سكت مطر وهو يفكر: «ربما يكون عندها هي خطة أخرى، أسعد مثلًا، ربما لن تتحمل ضغط السيد عمر عبد الظاهر عليها، ربما يئست مني، ربما...»

- ما تشغلش بالك.

- ...

شرح مطر، الذي يسافر أحيانًا خارج البلاد، لـ«خالد»، الذي لم يزُر أي بلد في العالم ولو لمرة واحدة، أنه تقريبًا في كل مدينة رآها كانت هناك امرأة جذبته إليها كمغناطيس هائل، فلم يملك نفسه من أن يقول لها، «أووو.. عيونك حلوة، أو أنتِ امرأة جميلة جدًّا في الحقيقة»، وقال إنه رغم ذلك لم يرسم ولم ينحت

في حياته سوى وجوه النساء التي رآها من حوله هنا، حتى لو لم تكُن عيونهن تجعله يقول لإحداهن «لكِ عينان جميلتان، في الحقيقة لك عينان رائعتان.»

وقال:

– أنا بحب نانيس وهعيش معاها، وليكُن ما يكون، ولا حد يقدر يقف في وشنا.

– حتى أمك؟

انحرف بالسيارة إلى رمال الصحراء أقرب ما يكون إلى الطريق الصاعد نحو الأهرام، وحدَّث نفسه: «لا أستطيع أن أؤلم أمي وأعذبها في شيخوختها وعجزها وأتزوج نانيس، ونانيس سعيدة معي بلا علاقة جسدية، وأنا لا أريد جسمها؛ فلي روحها، ومهما يكن ما يحدث فهي تعرف وأنا أعرف أننا لن نفترق أبدًا، هي ستظل تعزف الموسيقى وأنا سأبقى ممسكًا بإزميلي أنحت ما بقيت. أنا وهي ندرك أن فرحًا كبيرًا ينقصنا، ونشوة رائعة مفتقدة، لكن وجودها وحده معي، مجرد حضورها يجعلني منتشيًا كأنني دخلتها أعمارًا وأعمارًا. كانت لي علاقات غرامية كثيرة، وعرفت أجسادًا أكثر، لكنني لم أرتوِ إلا مع هذا المرأة، ودون أن أشرب وأرتوي!»

التفت إلى صاحبه بوجه مشرق:

– هتجوزها غصب عن أمي.

ضحك خالد عبد الباري، ورفع يده وضرب رأس مطر بخفة.

قهقه الصديقان وهما يتقدمان ببطء على مدق الرمال حتى انتهى، والأهرام قائمة أمامهما على مبعدة عشرات أمتار قليلة.

على الرمال، توقفت السيارة، ونزل منها راكباها.

من حقيبة السيارة، أخرج مطر الكاميرا الرقمية الجديدة التي عاد بها من باريس، وحامل الكاميرا، وحافظة العدسات، وكل ما يلزمه لتصوير الأهرامات،

وكان قد قرر أنه سيبقى حتى اللحظة الساحرة، لحظة بزوغ أول شعاع ضوء، وشروق الشمس.

حمل مطر الكاميرا وحقيبة العدسات، وحمل خالد«الترايبوت» ذا القوائم والعجلات الثلاث، ومشيا نحو الأهرام.

وهما يوغلان في الرمال، ثقيلي الخطى، تذكر خالد أن سامية لم تعُد تقول له «أحبك»، فقال:

- تخيل ما نطقتهاش من سنين!

تبسم مطر، ومال نحوه باهتمام.

قال خالد إنه لا يتذكر أن سامية قد جاءت له مرة بهدية في عيد ميلاده،

أو قالت له: «كل سنة وأنت طيب يا حبيبي»، فقط تقول بجفاف: «كل سنة وأنت طيب.» وقال إنها ربما لا تكون في انتظاره، وإنها عادت إلى البيت من أجل تحصيل الأقساط والنقود ومواصلة الشجار والإمساك بخناقه، فقط لا غير!

هز مطر رأسه نافيًا:

- يمكن بتخاف التعبير عن الحب.

- ههه.. بتخاف الحب نفسه!

صارا على تبة عالية تواجه الهرم الأكبر وترى «أبو الهول» من قرب. وضع مطر حقيبته على الأرض، وأخذ الترايبوت من يد خالد، وراح يثبت عجلاته في الرمل.

قال مطر كأنه يهمس لنفسه: «لا تدمر حياتك بالحياة في ما مضى وتلاشى ولم يعُد له وجود، ولا في الغد الذي لا تعرف هل سيأتي أم لا، وكيف سيكون. لا تعذب نفسك وتقتل حياتك الحقيقية التي هي هنا، الآن، بين يديك.»

ورفع صوته حاملاً بهجة رائقة:

– يمكن ترجع البيت وتقضي معاها أحلى ليلة في حياتك.

لم يتمالك خالد نفسه من القهقهة.

قال مطر:

– أيوه.. اضحك، اللي بيضحكوا ما بيخافوش من الموت.. وارقص، فالوجود كله رقص، كله أوتار راقصة.

مال مطر بجذعه، ورفع يديه عاليًا ورقص، ودار حول نفسه، رافعًا رأسه نحو السماء، وأطلق ضحكات طويلة.

ثم سكن، وابتسم برقَّة لـ«خالد»، وقال إن سامية ما زالت شجرة غضة، ثمارها خضراء، لم تستوِ بعد، لكنها واعدة، ستثمر ذات يوم عاجلاً أم آجلاً يا صاحبي، تمسَّك بحبك لها، ودعها حرة، تثمر حين تريد وتشاء.

– بقول لك إيه، ما تروح تعيش في باريس، وتبعت لي آجي لك.

– طق، أبدًا.. أنا مرتاح هنا.

اختفى وجهه خلف الكاميرا الجديدة، وأخذ يلتقط بعض صور تجريبية، وهو يحدث الهواء من حوله، أكثر مما يتكلم إلى خالد عبد الباري، الواقف إلى جواره، على بعد خطوة واحدة: «إذا كنت مرتاحًا هنا فسترتاح في أي مكان، وفي كل مكان، فلن يعود هناك مكان لا توجد فيه أبدًا، ستصير موجودًا في مكانك ومعه وبه، وستعرف أن أجمل قطعة فيه هي موضع قدميك، المساحة التي تضم وجودك الآن، وتجعلك موجودًا وواعيًا. انظر.. هذه البقعة هي أثقل بقعة على سطح الكرة الأرضية، الزمن هنا بطيء جدًّا، ولا يمكن أن ترى الأبدية في مكان أنسب من هنا، فانظر إلى نفسك، في نفسك. نحن هنا في منزل الخلود الأول، فيجب أن تكون مرتاحًا حتى ترى وتسمع ما حولك. هنا الراحة الأبدية توجد وتحضر وتتألق كل لحظة، وتسلب كل من تلقاها وأحبها. هنا يتوقف الزمن، ويحضر الفن العظيم إلى الأبد. عِش هنا وسترى العجائب في هذه الأبدية!»

وصاح بفرح:

- أنا مرتاح هنا.

- وأنا همشي.

أمسكه من معصمه، ومضى به خطوات وثبته أمام عدسة كاميرته.

- هاخد لك صورة مع أبو الهول، إنما إيه.

أحنى خالد ركبتيه قليلاً، ووضع حقيبته التي تحوي تمثال الطائر على الرمال بين قدميه، ثم اعتدل واقفًا وابتسم للكاميرا، ورفع يده يشير إلى ما خلفه.

- حلو.. حركة تانية بقى.

التقط مطر عدة صور بلا كشاف ضوء صناعي، وبلا شعاع ضوء واحد ساقط من السماء. كان يجرب تقنية جديدة، ليجيب على سؤال يتردد في رأسه: «كيف نصور شخصًا في الظلام؟ ما الصورة التي ستخرج؟»

في الصور بدا خالد خطوطًا فضية تحدد هيئة شكل بشري، له وجه مستدير وجسد معتدل، وليس ثمة ملامح ولا أسارير، ولا شخص!

- وريني عملت إيه.

انحنى خالد ينظر إلى شاشة الكاميرا، فأبعدته يد مطر، وحوَّل اتجاه حامل كاميراته صوب الناحية الأخرى، ثم غيَّر عدسات الكاميرا، وراح يجرب تقنية ثانية، ويلتقط صورًا عديدة للهرم الأكبر من كل زاوية يتيحها موقعه.

تحرك خالد خطوات قليلة مبتعدًا عن مطر.

من خلف العدسة جاء الصوت:

- قبل ما تمشي قول لي.. أخبار الشِّعر إيه؟

لم يأتِه رد.

راح يتكلم وعينه خلف عدسة كاميراته: «الكلمات أخف من الأحجار، الكلمات بلا مادة مجسمة تقريبًا، الأحجار ثقيلة لها كتلة كثيفة، الكلمات تبقى وكذلك الأحجار، ولكن الأخف والذي يمكن أن تحمله إلى بيتك، وإلى داخلك، وإلى أن يصير ماء حياتك هو الأكثر خلودًا.. أنا أحب الكتَّاب لأن معهم الأخف والأرشق.»

- أنا بحسد الكتَّاب.

احتج خالد عبد الباري:

- بتحسد الكتَّاب على الكلام؟! والله أنت قلبك حجر.

وانطلقا في ضحك صافٍ كماء فُرات.

- لا تكفَّ عن المحاولة أبدًا، يجب أن تجد فنك، وإلا ضعت.

صُدِم خالد وهو يسمع ما يدور في ذهنه على لسان صاحبه: «منذ متى لم أكتب قصيدة؟!»

للحظات صمت، وراح يحدق في الفضاء من حولهما مذهولًا، وأخيرًا نطق:

- إيه لزمته الشعر أصلًا؟!
- أبدًا، هيقول لك كل الحقائق المهمة بس.
- حقيقة إيه؟
- حقيقة تقوم عليها وفوقها كل حقائق الوجود الأخرى.
- اللي هي إيه؟
- الحياة.. وقلت لك الكلام دا مرات من قبل، بس إنت اللي مش واخد بالك.

سخر خالد:

- والله؟!
- آه والله.
- أنت كنت بتقول إيه؟

- أبدًا، كنت بقول لك ارتاح في حياتك واكتب، وأنت هتبقى كويس.
- يا سلام!

شرح مطر فكرته التى تصورها تمثالاً فريدًا يقف أمامه:

- سامية، كالناس، لا تريد قصيدتك ولا كلامك، ليست في حاجة إليهما، إنها تحتاج إلى الزوج الذي يطعمها والولد والبنت، ويدفع الأقساط بانتظام، وكذلك الناس.

توقف قلب خالد.

استرسل مطر كأنه يكلم نفسه:

- سيبك منها، ومنهم، وخليك في الجمال.

يجب أن يكون حبك للحياة غير مشروط، وبلا غرض ولا طمع في أي شيء، أو توقع لشيء، ولا تمييز لما يأتيك منها. هذا هو الحب الكبير والحقيقي، وكذلك يجب أن يكون حبك لسامية.

- يا صلاة النبي!

ضحك مطر ضحكة هائلة ترددت أصداؤها في فراغ السماء من فوقهما.

«الدنيا ليست سوى راقصة مغوية مثل البنت سماهر، الدنيا فاتنة الجمال، لكن لا تدعها تسلبك نفسك تمامًا. ارقص معها ولا تأمن لها؛ ففي اللحظة التي تظن فيها أنك تملكها تمامًا تجدها قد تبخرت من بين يديك، وتلاشت كحلم، اختفت مثل بخار ماء كان قطعة ثلج صلبة في قبضة يدك قبل لحظة واحدة.. يمكنك أن تنظر إلى الحياة على أنها معجزة، ويمكنك أن تنظر إليها بوصفها لا شيء، وفي الحالتين لن يغير ذلك من حقيقة الأمر نفسه شيئًا، ففي الحالتين أمر الحياة واحد»!

- فهمت؟

في أوقات عصيبة كثيرة خلال السنوات العشر، كان خالد يشعر أن بينه وبين سامية محيطًا شاسعًا، وهي ليست بالسباحة الماهرة التي ستعبر إليه، ليس لديها طاقة ولا قدرة على ذلك، وهو بدوره لن يناضل أكثر حتى يأتي إلى شاطئها، ليس هناك ما يغويه ويجذبه إليها، إنها امرأة تعيسة تفكر طيلة الوقت كيف تنجو بطفليها وسط هذا المحيط الهادر، تريد أن يجيء لها بالجزيرة تحت قدميها، إنها تريد رجلا آخر ثريًا ونافذًا وقويًا، رجلاً لا يسعى إلا إلى المال، الفلوس وحسب، لكنه لم يتصور أن تغيب من حياته والولد والبنت أبدًا.

كان عذاب انفصال جسده عن جسد سامية يدميه، يشطره إلى نصفين، فصار يفعل كل شيء بنصف روح، بنصف نفس، ونصف متعة ومزاج، ولا خلق له لمناقشة الأفكار.

زعق في مطر حانقًا:

- أطلقها يعني، وأسيب العيال لمصيرهم، وأهرب؟!

قال مطر يائسًا منه:

- أنت ما فهمتنيش خالص.. روَّح يا خالد، روَّح.
- فهِّمني!
- من غير طلاق أو بيه، أنت عارف إنك حر.

وحدك تقيد نفسك، لا أحد يقيدك، لا امرأة ولا أطفال، ولا فرد ولا جماعة بشر. أنت حر من الأصل، لا أحد باستطاعته تقييدك واستعبادك سواك. أنت حر وتام منذ جئت. وقبل كل شيء وبعد كل شيء، المهم أن تعرف أنك لست بشيء، لست بجماد، ولا حيوان، أنت إنسان، أنت وعي خالص نقي وحر.

وسكت مطر.

كان خالد يحدق في وجهه وقد صمت مطر، وصار وجهه قرصًا من ضوء فضي، وكان يسمع الكلمات التي تدور في الرأس، رمادية الشعر الطويل: «دائمًا،

أبدًا، أنت حر، وأنت وحدك، أنت الذي تقيد نفسك بأغلال من صنع يديك، وعقلك، ورغباتك وعواطفك، أقول لك.. لا تسمع كلامي، ولا تتبع خطواتي، وافعل ما ترى، لكن تذكر دائمًا أنني أحبك كثيرًا يا صديقي، يا رفيق طريقي. ولا تدع أحدًا مهما كان يشي بي عندك، ومهما كان ما ستسمع من الآخرين صدقني أنا. كثير من زملائي يقولون إنني شخص غريب الأطوار، أضحك بلا سبب، وأكون معهم ولا أكون واحدًا منهم، لا أفي بمواعيدي ووعودي، وينسون أنني لم أعد أحدًا بشيء، ولا قطعت على نفسي عهدًا سوى أن أكون نفسي، شخصًا لا يريد شيئًا، ولا يأمل في شيء، وسعيدًا دائمًا في كل حال. أنت تفهمني يا خالد، أنا أحب امرأة واحدة في الحقيقة، وأصادق شخصًا واحدًا، وأنحت تمثالًا واحدًا، وهذا هو ما أنا فيه دائمًا أبدًا، في كل لحظة، أنا لست بمتعدد الصور ولا الأفعال ولا العلاقات.»

قال مطر:

- صدقني.. عندما ترى نفسك أبعد من جسدك واسمك وقصة عذابك، وتصبح ما لا شكل له ولا اسم، فإنك تترك المحدود خلف ظهرك وتستقبل اللامحدود، وتصير الحرية نفسها.
- أنت اتجننت يا مطر، أنا ماشي.

وعمَّ صمت حتى قطعه صوت مطر:

- بص حواليك وقول لي شايف إيه؟

لم يرَ خالد عبد الباري حوله سوى فراغ هائل واسع ممتد، ولا شيء يعوق بصره، فضاء واسع رحب، ومن فوقه سماء صافية تسطع فيها مئات النجوم. كان يرى النجوم في كل زاوية واتجاه. انبسط، شعر بخلوِّ بالٍ، بسكينة، وبسلام عميق لا شكل له، ولا صورة، فتبسم.

- هذا أيضًا هو ما في داخلك.
- هو إيه؟

- كل ما ترى.

حوَّل وجهه عنه، وراح يفحص الأرض تحت قدميه، والسماء من فوقه، وثبت نظره في اتجاه «أبو الهول» الصامت، وقال كلمتين:

- اكتب قصيدة.

في سكوت، حمل خالد عبد الباري حقيبته التي فيها طائره الأبيض، وأعطى مطر ظهره، ومضى خطوات مبتعدًا.

من خلفه سمع صوت مطر:

- سلام.

تذكر حافظته الخاوية، وجيوبه البيضاء، فدار ورجع إليه:

- هات الكارنيهات بقى.
- كارنيهات إيه؟
- الرقم القومي وكارت الفيزا، وكارنيه النادي و...
- آه، ماشي، سيب التمثال.
- إزاي؟ مش أنت بعتهولي؟!
- آه.. مقابل كل اللي أخدته منك، بما فيها البطاقة والكارنيهات.
- بتتكلم جد؟!
- ما بهزرش، سيب التمثال وخد حاجاتك.

وقال مطر بصوت عميق كأنما يأتي من فراغ شاسع:

- لا يمكنك أن تأخذ الطائر إذا كنت تمتلك شيئًا، أي شيء. يجب أن تكون جيوبك كلها خالية تمامًا، يجب أن تكون على الأبيض حتى تستطيع معانقة الطائر الأبيض.

أخذه على عقله:

- معلهش معلهش.

- ...
- طب هات أجرة التوك توك.
- ولا قرش، ممكن توصل مشي، وهادلَّك على طريق تاني، غير طريق التوك توك.
- حرام عليك تروَّحني مشي.

قام مطر، وأشار إلى مدق ترابي ينحدر إلى أسفل:

- من هناك بعد نهاية المدق تلاقي قدامك عزبة سوبك، عديها، وبعدها هتلاقي طريق مرصوف تمشي فيه لآخره، ربع ساعة هتلاقي نفسك في حدايق الأهرام.
- شكله طريق مهجور.

تركه ومشى في اتجاه كاميرته.

- طريق مجهول.

قال جادًّا يحادث لا أحد:

- والمجهول وحده، هو الكامل التام، لأنه غير معروف لأحد، ولا يطابق ما يتصوره أو يتخيله أو يعتقده أحد، إنه الحرية اللامحدودة في أن يكون ما يشاء. ما تخافش، مع السلامة.. وخلي بالك م التمثال.

نظر خالد إلى وجه مطر فرأى وجهه قد صار دائرة كبيرة تتسع وتتسع، اختفت الجبهة العريضة، والعينان والأنف والفم، وجهه دائرة كبرى بلا ملامح ولا صورة مرئية، دائرة اندمجت بما خلفها، بالفراغ من حولها، ولم يعد ثمة شخص ليراه.

هزَّ رأسه يوقظ نفسه من توهماته.

ثم تقدم وحقيبته فوق كتفه نحو المدق، وهو سعيد بتمثال الطائر الذي فيها، ويفكر: «ربما يعجب سامية.»

عاد مطر لالتقاط الصور للأهرام وقد اكتست السماء من خلفها بشقائق حمراء، تزداد ويشتد سطوعها كل لحظة، بدت كأنها ثمار رمان منثورة في الفضاء.

رفع مطر وجهه نحو الثمار العملاقة من فوقه، وحدق في نجمة الصباح التي بدأت في السطوع: «نحن مصنوعون من غبار النجوم.»

ورفع صوته يبتهل:

- نك با آن خات آن رن Nuk Ba an khat an ren.

سمع خالد اللغة الغريبة والكلمات العجيبة، زعق:

- إيه اللغة دي؟
- مصرية قديمة.
- ويعني إيه؟

رد مطر:

- أنا روح، لست بجسد ولا بشكل.

قال خالد وهو يمضي في طريقه:

- آه.

رفع مطر صوته بأعلى ما يستطيع:

- نك ميسو را Nuk MUSO RA.
- يعني إيه؟

قال مطر:

- أنا النور المقدس.

رفع خالد صوته مثله:

- سلام.. سلام.
- لا تنسَ أبدًا.. أنت النور المقدس. في كل الأحوال لا تنسَ أنك نور العالم، النور المقدس.

١٨

أخيرًا نجح ثروت بك في التخلص من طلحة أبو درقة وصرفه، وتخلص من لزاجته ونفاقه، وصار مستريحًا في جلسته، يملأ كرسيه الفخيم على رأس مائدته، قرب صدر المسرح الصغير الذي أُظلِمت أنواره تمامًا، وقد خلت الصالة إلا من بضع أفراد متناثرين.

كان يهز سيجاره الفاخر، وعلى وجهه استغراب من نفسه، ومن سؤال: «كيف سأطيق التعامل مع هذا الحقير؟ كيف سأبلع رؤية هذا الوجه كل ليلة؟!»

تململ محسورًا، مجبورًا، وردَّ على نفسه: «ما بالأمر حيلة، أمر السيد.»

وكان طلحة أبو درقة قد خرج من باب العروس، واسع الابتسامة، لامع الأسنان البيضاء، ينفض جاكت بدلته الحريرية عن غبار وهمي، ويسرع في خطوه نحو سيارته السوداء الفارهة، ذات الستائر الحمراء المخملية، مختالًا بنفسه، وقد أصبح من كبار الأثرياء بضربة واحدة، وبلا عمل، ولا عناء ساعة واحدة.

لم يفعل سوى أن قال «أمر السيد عمر»، فصار أغنى من أبيه.

«فضل الله.. فضل الله».

مد رجله اليمنى وركب سيارته، وجلس خلف عجلة القيادة نافخًا جسمه، شامخًا بأنفه، وأغلق الباب بحركة استعراضية أحدثت فرقعة عالية مسموعة لعشرات الأمتار، وطلع بقوة الدفع الرباعي طلعة أمريكاني مميزة، فأزَّ الإسفلت من تحت السيارة «إززززز»، وتدافعت موجات من برك المطر الصغيرة على

جانبيها. اهتز جسمه، وتضاحك كمن نخس بطنه ملاطف، وأخرج يده من النافذة المفتوحة، ودلدلها في الخارج، وهزها يعدل ساعته الماس، ذهبية السوار، يبرزها في وجه الآتين من خلفه، وانطلق وقد انقطع المطر.

أخذ طريقه منشرحًا، فرحان وآخر انسجام، وكله شوق وتلهف إلى سرير أصغر نسائه وأحبها إليه. اجتاز ميدان الفلكي، ودخل متمهلاً شارع منصور، متجهًا نحو ميدان لاظوغلي بسرعة شوقه وتلهفه.

خلفه بمئات الأمتار فحسب، في العروس، بقي ثروت بك وحيدًا في مكانه على رأس مائدته، وقد خلت من الجميع، يحتسي كأسًا جديدة، ويقرر: «الفلوس تشتري أي حد.»

ضحك وهو يقول بلا مناسبة للهواء من حوله:

- حتى الواد وأبوه.

أغلق عينيه للحظات، وراح يمسد أعلى بنطاله: «جميلة وفاتنة هذه الأوراق، إنها أجمل من كل لوحة رُسِمت على الإطلاق، أجمل حتى من النسوان.. لمرآها مفعول السحر، ولصوتها بين اليدين صوت نهر عذب، خالد.»

طيلة حياته لم يحب ثروت بك شيئًا أكثر من هذه الأوراق الملونة الثمينة التي تشتري أي شيء، وكل شيء، كل ما يفتقد وكل ما يريد امتلاكه، منذ نعومة أظفاره ألقى بنفسه في نهرها العظيم، وسبح وشرب حتى امتلأ كله، من باطن قدميه وكعبيه إلى آخر شعرة باقية في رأسه الأصلع، لامع الجمجمة، لكنه لحسرته لم يرتوِ، ولم يذهب عنه ظمؤه. كان كلما غرف من النهر الحبيب بيديه وشرب ازداد عطشه، ونشف ريقه، وجف حلقه أكثر، والليلة لم يربح سوى بعض أسهم جديدة، لا تشبع ولا تسد جوعه.

«قليلة.. يا حسرة».

واصل الشراب، لا يريد أن يعود إلى البيت، ولا أن يقوم من مكانه.

تكدر صفاؤه قليلاً حين خطر له وجه الشريرة جدًّا، قبيحة الوجه واللسان، زوجته «منى هانم».

رفع يده، وأدارها في الهواء آمرًا بأطباق جديدة ورفع الفارغة.

أكل كثيرًا جدًّا وشرب أكثر. لم يمتلئ، كأسطوانة هائلة مفتوحة من الجهتين، من فوق ومن أسفل، وكلما وُضِع فيها شيء من فوق فرَّ سريعًا من تحت، كل ما يدخل من فمه يعبر بلعومه ومعدته وأمعاءه ومستقيمه وينزل دون أن يدري له طعمًا ولا مذاقًا ولا لذة.

فتحت شهيته من جديد، وهو يحدق في دائرة الأصابع الذهبية الرشيقة اللامعة في الطبق الكبير الذي حضر أمامه، دون شكر لـ«بندق»، حزين السحنة. مد يده والتهم واحدًا كاملاً دون أن يقطعه، وزحلق من بعده آخر عبر زوره الواسع. انتهى من معظم القطع في دقيقة، وجذب فوطة بيضاء صغيرة ومسح شفتيه، ولعابه يسيل من جديد على الطبق الآخر، الغائب، الطبق النادر، والعزيز، الذي ينوي التهامه ليلة غد، أو بعد غد، على أقصى تقدير.

لاحظ الإصبع الصغير الأخير الباقي في طرف الطبق. رفع آخر إصبع من حلوى «أصابع زينب» وقربه من فمه.

«كلها يتاكل أكل».

بلع الإصبع الذهبي، كثير السكر، وتجشأ، ثم أعاد إشعال سيجاره الغليظ بولاعته الذهبية، وأخذ نفسًا طويلاً فعبق ما حوله برائحة قوية ونفاذة، جاءت من أدغال كوبا.

«هايدي، هتعملها، هتعملها».

هدأ طلحة أبو درقة من سرعته في شارع السيد البراني حتى توقف أمام برجهم العالي، في السيدة زينب.

تردد قليلاً، ثم ركن سيارته في مكانها المعتاد أمام البرج.

فتح قفل الباب الحديدي الكبير بمفتاحه، وقبل خطوتين من المصعد الفاخر، متعدد المرايا، فكر أن الحاج فتحي ليس في البرج؛ فهذه ليلة دخوله على عروسه الجديدة في جاردن سيتي، ولكنه زيادة في الاحتياط صعد على السلم الرخامي بدلاً من المصعد حتى لا يسمع صوته إن كان موجودًا، فيعرف بحضوره.

كان يصعد الدرجات بتمهل، وعلى أطراف أصابعه، محاذرًا أن يأتي بصوت، كلص ماهر.

في طابق الحاج فتحي كان الباب الواسع مفتوح الضلفتين، مُذهَّبتي الحواف، تتوسطهما قطيفة حمراء وزخارف مزركشة، والضوء غامرًا في الصالون الواسع، وكان الحاج جالسًا على كرسيه الأحمر القاعدة والمسند، ذهبي الأرجل وغصون الظهر، مرتديًا الملابس نفسها التي خرج بها، وبيده مسبحته، سوداء الحبات.

- تعالى يا طلحة.

اضطرب وهو يسمع الصوت الآمر.

- سلام عليكم يا حاج.
- إيه اللي مطلعك ع السلم؟! مش الأسانسير أريح؟
- أهو كله طلوع يا بابا، المهم نوصل.
- حمد الله على السلامة.
- تصبح على خير يا حاج، تؤمر بحاجة؟
- روح نام لك ساعتين، وتعالى لابس.

امتعض طلحة الذي كان يريد الرقاد مع «جويرية»، زوجته الثالثة المفضلة، حتى العصر: «ساعتين يعملوا إيه بس؟!»

- خير يا بابا.
- كله خير إن شاء الله.

قال وهو يضرب فخذي بنطال بدلته، يزيح ترابًا وهميًا أحس به يلوثه من جديد:

- تحت أمرك يا حاج، هريح ساعتين وهتلاقيني قدامك.

للحظات حدق في عيني أبيه، فلم يعرف ما يخبئ.

كان وجه أبيه جهمًا، وهو يهز يده هزة واحدة آمرة، يشير له أن ينصرف.

امتعض طلحة، لكن شهيته للجماع كانت مفتوحة، ولهفته للقاء جويرية، التي تسكن في الطابق الأخير، تغلب سؤاله عمّا ينوي أبوه، وتداعب أعضاءه السرية.

همهم حامدًا الله على نعمه، وأعطى ظهره لأبيه، وصعد على الدرَج، وقد اتخذ كامل هيبته، وبدأ يتنحنح لينتبه حريمه، وليغيظ أباه الذي لم يهنأ بعروسه الجديدة الليلة.

اكفهر وجه الحاج فتحي وهو يسمع نحنات طلحة الغليظة، المتتالية، متصاعدة الارتفاع عند كل درجة.

«كان من المفروض أبقى في حضن العروسة الليلة»!

واصلت أصابع الحاج فتحي الجريان فوق حبات مسبحته، وفي رأسه تتلاطم أفكار تثير غضبه أكثر من الولد الذي تجرأ عليه.

إنه رجل يعرف كيف يخفي آلامه، ومتى يظهر غضبه، وجبروته.

زفر كاتمًا غيظه: «برّاوي زي أمه ابن الـ...»

منذ خرج مطرودًا من «العروس»، وغيّر طريقه من جاردن سيتي إلى السيدة زينب، وهو جالس يفكر: «كيف سأرد هذه الضربة الغاشمة؟ كيف سأنتقم من عمر عبد الظاهر؟ كيف أرد الصاع صاعين؟»

وصل إلى الحل، الذي ليس من بعده حل، وقرر أنه بعد ساعتين سيصعد ومعه ولده إلى المقطم، إلى الحاج مرزوق عشم الله.

قلة في السيدة سُمِح لهم بالصعود إلى المقطم، ودخول قصر الحاج مرزوق، والمثول بين يديه، ولم يكُن وجه الحاج معروفًا جيدًا للحاج فتحي، ولا لأغلب أهل الحي، مترامي الأطراف، لكن اسمه يجري على كل لسان، في كل يوم وليلة، نافذًا في حل كل معضلة وخصومة.

لم يكُن فتحي أبو درقة من زوار قصر الحاج الدائمين، مرة واحدة حظي بشرف لقائه، والحديث إليه عن قرب دقيقتين فقط، حين فُتِح باب القصر أمام الزوار يوم عيد أضحى بعيد، فهل يمنحه هذا الجرأة على زيارته، في صباح باكر كهذا؟

«أروح له وليكُن ما يكون، آه.. أتكل على الله وأروح له، هيجرى لي إيه يعني أكتر من اللي جرى لي».

وصل عنتر السنَّان إلى عزبة سوبك وقد ازداد طوله إلى الضعف، وهو ينظر إلى السماء فيراها قريبة فوق رأسه تمامًا، وينظر إلى الوحل تحت قدميه باحتقار، وإلى بيوت العزبة المتناثرة بتأفف. كان واثقًا أنه سيتم شغل الليلة على أكمل ما يُرام، ويقبض النصف الآخر من عرقه.

كان مبسوطا جدًّا، ممتلئ الجيوب بنقود كثيرة، وسيأتي مثلها، أيضًا، غدًا.

«أروح لها حالاً، واللي يحصل يحصل».

قرع باب بيت سماهر بقبضة يده، وانتظر لحظات على بعد خطوتين فحسب.

لم يُجِبه أحد.

قرع الباب مرة أخرى، ومرات بقوة أكبر، فشق خبطه صمت الليل، وتعالت القرعات دون مجيب. ضرب الباب برجله مرات، ولم يسمع صوت خطوات تأتي من الداخل. ازداد ضربه العنيف للباب القديم، سميك الخشب، حتى فُتِحت أبواب بيوت مجاورة، وخرج منها عدة رجال ونساء بين اليقظة والمنام، يدعكون عيونهم ليفتحوها. نظروا إليه في دهشة. عرفوه فشوحوا له بأيديهم في الهواء ساخطين، وعادوا لإغلاق أبوابهم عليهم.

رفع صوته الغليظ:

- خالة مسألش.. يا خالة.

أخيرًا، خرجت له مسألش في جلباب فضفاض ملون، منكوشة الشعر الرمادي الطويل، خروج لبؤة اقتحم عليها حيوان مفترس عرينها في ليلة سوداء.

غاضبة صاحت فيه، وبّخته وشتمته وأهانته، وهو صامت يحدق فيها.

- عيل بايظ، ما اتربيتش يا وش القرد، إيه اللي جايبك الساعة دي يا متعوس؟! وبتخبط الباب برجلك كدا ليه يا بهيم؟!

زمجر غاضبًا وهي تمسك به من خناقه وتهزه بين يديها.

تركها تفرغ غضبها وتواصل سبابها، حتى سكتت.

- النهاية، هنعمل الفرح إمتى يا خالة؟

وأبعد يديها عنه.

حدق فيها بوجه مخيف، وفشخ لها فمه عن آخره، وباعد ما بين فكيه حتى بانت أسنانه كلها، وحتى رأت الجدة الداهية ما يضع بين ضروسه المكسورة في ركن فمه.

لم تهتز، وحدجته بنظرة عميقة عارفة.

بهدوء أخرج من جيبه رزمة أوراق سميكة، تعلوها ورقة من فئة المئتي جنيه، يضمها أستكان أصفران، ووضعها في يدها.

- عدّي دول.

لم تنظر إلى النقود، ولم تطبق راحة يدها عليها، وكان مخها يدور كرحى في جمجمتها العتيقة.

خرجت سماهر من باب البيت، يسبقها شرر وجهها، وكلمت جدتها:

– خلصيني م الحيوان دا يا جدتي، إياك يتعرض لي في أي مكان ولا أشوفه حتى صدفة، وديني هاوريه.

ودخلت صافقة باب البيت خلفها.

بهدوء أعادت الجدة مسألش النقود إلى يد عنتر، وكانت عيناها الواسعتان المكحلتان ميتتين تحت حاجبيها المزججين، وهي تقول برقَّة:

– ملكش فيها نصيب يا ابني، الله يسهل لك.

كظم غيظه، يكاد ينفجر من الداخل، حدق في عينيها فلم يرَ فيهما سوى أنها مثله تمامًا في أمر سماهر: يا قاتل يا مقتول.

شوح لها بيده ساخطًا:

– اتبطَّروا ع النعمة يا مسألش.. طيب.

وأعطاها ظهره ومضى يمشي بخيلاء، وجيوب بنطلونه وجاكته البوليستر عامرة لأول مرة في حياته بمثل هذه النقود، وفي أذنيه يتردد صوت صفق باب سماهر، وإغلاقه في وجهه.

– ههه، هتروحوا مني فين؟!

هرول واسع الخطوات يعزق في الوحل تحت قدميه، ويتقافز فوق برك صغيرة سوداء، ووجهه صوب نصبة الشاي في مدخل العزبة. يتقدم في طريق مظلم، مقفر من أنفاس البشر، وقد استولى عليه حلمه الكبير، أمل حياته البائسة، يريد سماهر بكل ما يملك من رغبة حارقة في دخولها، يريد أن تكون له الليلة قبل أن يطلع الصباح، يتزوجها وينام معها كل ليلة، وإن لم يستطِع فسيقتلها، سيطعنها بآلة قتله الخاصة التي اخترعها لنفسه، وجربها مرات.

«سماهر شايفاني كلب أجرب، غلبانة ما تعرفنيش، ما تعرفش مين أنا»!

سرَّى عن نفسه بضحكات متقطعة متوالية، وواصل خطوه نحو النصبة.

جذب كرسيًّا من جريد بلا ظهر، وجلس إلى جوار الرجل الذي كان يسلي انتظاره بلعب الدومينو مع قدري السواح.

- منوَّر يا عرَب.
- اقعد يا سنَّان.

واصل «حمدان» ضرب أحجار الدومينو البيضاء، وبان الامتعاض على وجه قدري من حضور السنَّان.

استمر ضرب الأحجار البيضاء بسطح طاولة اللعب، فوق منضدة الجريد، وبدأ عنتر يصعد برقبته مع الأحجار التي ترتفع في الهواء، وتهبط في موضعها على الطاولة الخشبية المستطيلة، بيضاء السطح:

- تك.. تك.. تك.. تك.

أخرج عنتر من جيبه الداخلي قرصين إضافيين، أبيضين ومدورين كخرزتين، مع أنه كان قد تناول حصته اليومية المعتادة مبكرًا، قبل أن يذهب إلى «العروس». بلع القرص الأول، ووضع الثاني تحت لسانه، امتصه ببطء ملتذًّا بمرارة الصنف الجديد:

- ههِه.. اسمه ليلة الهنا!

لم يقُل حمدان شيئًا، وواصل قدري اللعب.

أغلق فمه وحدق في أحجار الدومينو التي ترتفع بيدي اللاعبين، وتهبط لتأخذ موضعها، ومخه داخل جمجمته الصغيرة مفتوح.

«مسألش هي المُشكِل! عاملاني شخشيخة في إيدها، يوم هاديها لك، دي بتاعتك وأنت لسه عيل، وهي في اللفة، ويوم نجوم السما أقرب لك منها.. عمرها ما عرفت مين هو السنَّان. أنا السنَّان، أرجل راجل في العزبة كلها، أحسن سنَّان فيكِ يا مصر، أنا اللي بيسن السكاكين، والسنج والمطاوي تحت حجري الكبير، هو فيه حد أشطر مني؟ أقوى مني في العزبة؟ يجيني العالى والواطي، الغني والفقير

وأنا أسن السكاكين للكل.. أنا عنتر السنَّان بطل عزبة سوبك، واللي مش عاجبه يشرب من البحر، أو يدفن نفسه في رمل الصحرا، قريبة مش بعيدة يا بشر».

زغد جنب حمدان بغلظة:

– مين اللي غالب؟

حدجه حمدان بنظرة استياء، زاجرة.

وصل خالد عبد الباري إلى منتصف طريقه، يسير في المدق الذي وصفه له مطر، حاملاً فوق كتفه حقيبة تمثال الطائر، ولم يكُن قلبه خاليًا كجيوب بنطلونه وجاكتته، كان يبتسم وهو يخطو في شبه ظلمة على رمل خشن مشبع بالماء.

راح ينقل خطواته وهو يتصور مطر الذي يبتعد عن موقعه أكثر، خطوة بعد أخرى. يتخيله جالسًا على الرمال مربعًا، يداه على ركبتيه، صامتًا في خشوع، ينظر إلى مدينته البعيدة، وخلفه الأهرام وأبو الهول، ينتظر بلا ملل شروق الشمس ليلتقط الصور الذهبية التي جاء من أجلها.

ابتسم من أفكاره.

«ربما لا يكون هذا هو وضع مطر الآن، لعله ليس وحيدًا ولا جالسًا ينتظر. إنه جالس إلى شخص يتحدث معه، قاعد مع معلم الفن العظيم، أسطورة النحت في العالم القديم، الفنان «بِك»، مبدع تمثال نفرتيتي، لعله يحادثه في مزاج رائق، صافٍ وسعيد؛ فمُجالِسه خبير في النحت، وفي النساء».

ضحك خالد عبد الباري:

– أما أنا فخايب!

عند نهاية المدق شبه المظلم، وصل ونظر، اطمأن وقد رأى مصابيح الضوء القليلة التي تعلو المصطبة في مدخل عزبة سوبك، والساهرين القلائل الجالسين يلعبون الدومينو، ويدخنون الشيشة، وعلى الأرض قربهم راكية نار.

- سلام عليكم.

لم يرد سلامه أحد.

وضع حمدان حجر الدومينو الأخير:

- قفلت يا قدري.

وتبادل نظرة مع عنتر السنَّان ثم قام واقفًا.

كان يرتدي جلبابًا أسود ثقيلاً، ووجهه الطويل غائب، وقد أحكم تلفيعته البيضاء حول وجهه وعنقه:

- توصيلة لحدايق الأهرام يا بيه؟

«عرف إزاي»؟

جاءه صوت الرجل الذي أشار إلى توك توك أسود راكن قرب راكية النار:

- هتكون رايح فين يعني الساعة دي؟ اتفضل يا بيه.

ركب خالد في الخلف ناسيًا أن جيوبه خاوية.

إلى جوار حمدان قفز عنتر السنَّان، وتلفيعته مزمومة تغطي كل وجهه. لم ينظر إلى وجه الرجل الذي في الخلف:

- في طريقكم، لا مؤاخذة.

رد حمدان:

- ماشي.

وهو يفرك يديه مستدفئًا.

لم يقُل خالد عبد الباري شيئًا، كان يفكر.

هل نسي مطر أن يدله على هذا الطريق المختصر؟

لا يعرفه من أصله؟

«هنا توك توك سريع يا مطر، لماذا نسيت؟ قلت لي أن أعبر من هناك من عند منطقة السبيل وأن أواصل السير إلى حدائق الأهرام ربع ساعة، لماذا لم تدلني على التوك توك في مدخل عزبة سوبك؟ ليه يا صاحبي»؟

توغل التوك توك في طريقه الترابي منيرًا المصباحين الأماميين، واللمبة الصغيرة فوق رأس حمدان، وكانت الأشجار حولهم أشباحًا، والسماء من فوقهم مظلمة، وراكبوه الثلاثة صامتين، حتى ضحك السنَّان مع نفسه، فابتسم خالد في الخلف لضحك هذا الشخص المجهول، نحيل الجسد، ملثم الوجه.

كان السنَّان يواصل الضحك مع نفسه، وقد امتصت دماؤه خلاصة القرصين الجديدين: «السنَّان رجل غلبان؟! غلبان إزاي يا ناس؟»

في العزبة مشكوك في نسبه، رجل وحيد، لا أسرة، ولا عائلة، لا يعرف أحد منبته، ادعى أنه قريب لـ«مسألش»، وهي رأفة به ورحمة لم تنكره.

«آه.. الرحمة حلوة، ومن مصلحة الأستاذ خالد أن يموت، لا أن يتعذب لا سمح الله بعاهة مستديمة، كأن يعمى أو يتكسح، أو تُقطَع ذراعه أو يتعلم عليه ببشلة في وجهه أو رقبته، أحسن له ألا يرجع إلى الدنيا الفانية، القاسية، هعمل فيك معروفًا بلا انتظار لجزاء، أو مكافأة منك، أو شكر.. سماهر، بتاعتي أنا، وأنت الله يرحمك، كنت راجل طيب. وبعدين الهراوي راجل دوغري، وأسعد بك مش هيغشني، والسيد عمر عبد الظاهر أكيد عنده علم، والفلوس حلوة، حتى أحلى منك يا سماهر.. ههههه».

وراح يغني بين ضحكاته أغنيته المفضلة:

– يا اسمراني ليه تجفاني، وتسيبني أعاني

يا تكون لي يا اكلك واتعشى بيك.

في الخلف كان خالد عبد الباري ينصت إلى الكلمات والغناء:

«مين دا؟ صوته مش غريب عليَّ.. مين؟»

مرات قليلة سمع هذا الصوت يتردد في مطبخ «العروس» وهو يأخذ من برسوم أداوت المطبخ التي سيسنها، كانا لا يتكلمان إلا عنها، سمعهما يتحدثان مرات بكلمات قليلة: «ما تتأخرش، طيب سنَّها كويس، حاضر، سكاكينك بقت تلمة ليه، معلهش يا معلم.» وكان برسوم يلقي إليه التعليمات الدائمة، مبديًا النفور، وكان هذا الشخص يبدو متملقًا، مطيعًا، إلا أنه يكلم رئيس الطباخين كند. سمعه مرة يقول له: «أنا حر نفسي، وأنت لأ يا معلم، ما تعاملنيش كدا!»

«ربما هو؟ مش متأكد».

- يا اسمراني ليه تجفاني..

وضحك ببلاهة، وبهدوء أزاح عن وجهه تلفيعته، وانتزع من بين ضروسه المكسورة معدنًا لمع في الظلام، كأنه إبرة قصيرة مدببة الرأس، والتفت إلى الخلف، مال على الشخص الباسم الجالس في الخلف، ورفع يده ووجَّه نصل سلاحه القصير نحو نقطة يعرفها بدقة في الصدر، كانت يده في سرعة برق مفاجئ يضرب صفحة السماء.

كان خالد عبد الباري منتبهًا تمامًا حين استدار عنتر السنَّان ورفع آلته الصغيرة، وحاول رشقها في صدره، وكانت يده سريعة في صد الضربة المباغتة، رفع يده فارتطمت برسغ السنَّان، وزحزحت يده قليلاً، إلا أن اليد الطويلة طالت موضعها ووصلت إلى هدفها في منتصف صدره، فوق القلب تمامًا، لم تكُن الضربة قوية جدًّا، ولا ضعيفة جدًّا، لم يغمض خالد عينيه ولم يسقط إلى الأمام، بآلية رجع إلى الخلف والتصق ظهره بظهر التوك توك، وصار مع المعدن خلفه كتلة واحدة، وندت من فمه آه طويلة مكتومة، لكنه لم يصرخ.

حين سدَّد نحوه ضربته، كان وجه عنتر مجرد خطوط هلامية، مساحة جرداء تحوي أعضاء بشرية لا اسم لها، وكان كله قد تلاشى وغاب، وصار محض شبح

من نار، انحنى إلى الأمام ومد جزءًا منه، وهوى على صدر مِتردوتيل العروس الهادئ، المبتسم لنفسه.

رأى عنتر السنَّان أن ضربته ناجحة، وكافية، فلم يكرر ضربته، وراح يتمعن في الوجه الصامت، والجسد الذي سكن، رأى ضحيته يحدق فيه بعينين واسعتين خاويتين.

بعد الضربة الوحيدة التي حسبها السنَّان قاتلة، بدا خالد عبد الباري ميتًا وحيًّا، جسدًا منتصبًا ساكنًا في مقعده، عيناه مفتوحتان على الفراغ، ليس فيهما شيء، لا حقد ولا كراهية، ولا خوف ولا توسل، ولا عتاب.

فقد عنتر ثباته، خاف وفزع من هذا الرجل الذي لا يخاف الموت، ولم يسلم الروح بعد.

قال لـ«حمدان» يداري فزعه:

– دقيقتين ويموت.

وقفز من التوك توك، جاريًا نحو الأحراش على جانب الطريق، لا يداخله شك في حسن أدائه لمهمته. ضربه في الموضع القاتل الذي يعرفه تمامًا، في منتصف الصدر، إلى اليسار قليلاً، في القلب مباشرة، وسيحدث النزيف في الداخل، وسيستريح الرجل، وينتقل إلى بطن الأرض حيث مصير كل بني آدم، وسيحلق هو في الأعالي، وسيصبح غنيًّا وقويًّا، وعريسًا مهما أبت مسألش، ورفضت سماهر.

«من الذي يرد كلمة السيد عمر يا كلاب، وقد صرت الليلة من رجاله»؟

استدار حمدان ومد يديه إلى الرجل المضروب، فوجده قد انكفأ إلى الأمام وقد أراح رأسه على الحديدة التي تفصله عنه. دفعه معيدًا رأسه إلى الخلف، ونظر إلى صدره، لم يرَ دمًا، نظر إلى وجهه، كانت عيناه مفتوحتين على نظرة بلا فزع ولا خوف ولا رعب، لا شيء على الإطلاق، أبدًا، لكنهما حيتان جدًّا.

«كلها دقيقتين وتتوكل.. مع السلامة».

نزل مسرعًا، وجرَّ الجسد، مفتوح العينين، حتى مدده على جانب الطريق، فوق طين صنعه المطر. وكانت حقيبة خالد قد سقطت على صفيح التوك توك عند موضع الأقدام، ولم يلاحظها حمدان، الذي انحرف نحو مدق ضيق، وسط مستنقع من نباتات الغاب.

في الظلام كان خالد عبد الباري ممددًا بحذاء الإسفلت الضيق المتكسر، جثة بلا جرح ظاهر ولا لطخات دماء، جيفة ممددة يرتفع صدرها وينخفض، تتنفس بصعوبة وبطء. كان لا يزال واعيًا حين أغلق بنفسه عينيه، ولم يعُد يرى أو يسمع، ولكن الدماغ كان لا يزال شغالاً وهو على شفا الموت. للحظة برقت سامية في رأسه، فرآها تنحني فوق جسده دامعة العينين تنظر إلى احتضاره. رغم كل شيء، في هذه اللحظة، كان يعتقد أن سامية ما زال لديها قلب ينبض بحبه، ويخفق كل لحظة بالامتنان له، حافظ لما بينهما من عيش وملح. لكن لا شيء مؤكد أيها الرجل المحتضر.

بعد لحظات ذهب في غيبوبة حين غزته فكرة أخيرة: «إذا وقعت فستكون يدها هي، يد سامية، أول يد تمتد لذبحي. إنها غير ممتنة ولا شاكرة لي، لقد أضعت حياتها ولم أعطِها ما تريد، أعطيتها السيئ والرديء وأخذت لنفسي الجميل والغالي والنفيس. لم أقدم لها شيئًا يُذكَر، وها أنا أتركها تعيسة، وحيدة، تحمل على كتفيها ثقل طفلين، وكل أثقال الحياة.. الحياة؟»

كاد وجهه يبتسم.

«الحياة جميلة، ولا خطأ في الموت أيضًا».

تلاشى خالد عبد الباري، وتلاشت معه عبارته الأخيرة.

١٩

غفت سامية في مكانها على الكنبة، وكانت مشاهد الفيلم الكوميدي لا تزال تجري فوق الشاشة الكبيرة، التي سيحين دفع قسط من أقساطها بعد أربعة أيام.

نامت وحلمت.

رأت نفسها واقفة في بداية درب ترابي ضيق وطويل، بين حقول ذرة تمتد أمامها كأن لا نهاية لها، وعن يمينها ويسارها تنتصب سيقان طويلة كعصيٍّ رفيعة، ذات شراشف، تحمل أكوازًا ناضجة كبيرة، كأنها رؤوس بشر، تخرج من أعلاها خيوط قاتمة، سوداء وصفراء ورمادية، كالشَّعر، وكانت تنظر إلى ما حولها في استغراب، لا تعرف من الذي جاء بها إلى هنا؟ لماذا هي هنا؟ ماذا تريد؟ من تقصد؟ وما الغرض؟

السماء من فوقها بلا قمر وبلا نجوم، رصاصية اللون، تتناثر بها بقع كألسنة لهب، فضاء بلا نهاية تعبره سحابات سوداء ذات ذيول بيضاء، وهي تحدق فيها وتتأمل. سمعت وقع خطوات خافتة تقترب منها، تلفتت حولها فلم ترَ شيئًا، لم تبصر إنسانًا ولا حيوانًا ولا طائرًا. تسلل خوف مباغت إلى قلبها، ارتعشت أطرافها قليلاً فتحركت مبتعدة، وهرولت كيفما اتفق. أحست بالخطوات تتبعها، ومن خلفها يعلو صوت خشخشة ويرتفع. جزعت واستولى عليها الذعر، أسرعت وجرت ولم يكُن أمامها سوى ظلام حالك، أسرعت أكثر والسحب السوداء تجري معها من فوقها والتراب تحت قدميها يعفر مع كل حركة منها، ومع كل

خطوة، ممَّن تفر؟ إلى أين تهرب؟ من الذي يطاردها؟ ولماذا؟ ماذا يريد منها؟ ومن الذي سينقذها؟

لا تعرف.

كانت تجري وقد شملها الرعب. رمحت بقوة أكبر حتى تعرقت كلها وتعبت. وضعت يديها على صدرها لاهثة وتوقفت للحظات تلتقط أنفاسها التي انقطعت. جرَّت رجليها جرًّا وهرولت من جديد، لا تتوقف عن النظر وراءها، وخلفها خواء ليس فيه من أحد، تعيد النظر فلا ترى سوى ظلمة حالكة ممتدة، ليس ثمة ضوء ضئيل في أي اتجاه.

كانت عيناها مفتوحتين إلى آخرهما ووجها فزعًا مرعوبًا وشعرها ثائرًا حول وجهها، وقد أنهكها التعب وتصاعد الألم من قدميها إلى رأسها. بعد خطوات أخرى ظهر لها ضوء خافت يأتي من بعيد. بقوة الأمل في النجاة اتجهت نحوه وقد توقفت عن النظر خلفها، هرولت وهرولت حتى تناهى إلى سمعها نقيق ضفادع متصل، وعن قرب رأت نخلات في نهاية الدرب على حافة ترعة، حولها عمار وبيوت صغيرة بأضواء شحيحة.

حين وصلت كانت قواها كلها قد خارت، فجلست على التراب تحت النخلات، وهدأت قليلاً. قعدت متربعة على الأرض، ووضعت يديها على فخديها، وبدأت تجذب إليها الهواء في أنفاس طويلة بطيئة. ارتاحت قليلاً، لم تكُن تحس أن الهواء منعش بهذه الطريقة من قبل، لم تكُن تتنفس وهي تجري، كانت تلقف الهواء فحسب، الآن تغير الهواء في رئتيها وصار منعشًا يحمل عبق نعناع وليمون وفواكه، فغير بعيد عنها كانت أشجار ليمون وبرتقال وجميز.

انفرج وجهها وتلاشى خوفها، ثانية بعد أخرى، ها هنا فلاحون بالقرب، نائمون في هذه البيوت، الوقت ليل، متى نحن بالضبط؟ لا تعرف، المهم هنا فلاحون سيأتون على الأقل في الصباح لينقذوها إذا ظلت حية، أو سيضمدون جروحها إن طُعِنت طعنة غدر غير نافذة، وسيحملون جثتها إن وجدوها قد

فارقت الحياة. اطمأنت لما دار في رأسها، وشملها سلام وأدركتها سكينة، لم تعُد تنتظر شيئًا، لا من سيقتلها ويؤذيها، ولا من سينقذها ويريها الطريق إلى هدفها، ويخبرها لماذا هي هنا الآن، وإلى أين كانت تنوي الذهاب.

سكنت في طمأنينة وسلام غريب، جميل جدًّا، حتى إنها لم تُرِد أن تستيقظ من حلمها، أرادت أن تبقى في مكانها، وسيدخل عليها الصباح عاجلاً أو آجلاً، قامت أو قعدت، وسيصبح للسماء ألوان زرقاء، لبنية، بيضاء، لا بأس، سيدخل الصباح ويجدها حاضرة، جالسة في انتظاره.

اختفى الحلم كأن لم يكُن، تثاءبت واستيقظت، سمعت أصوات الممثلين في الفيلم، فتحت عينيها ورأت مشهد النهاية على الشاشة الكبيرة، ثلاثية الأبعاد، وتذكرت أنه سيحين دفع قسط جديد من أقساطها بعد ... بعد أربعة أيام.

«يااااه.. هل كان ما رأيت كابوسًا أم حلمًا جميلاً»؟

قامت وتمطعت وجذبت «الريموت كنترول» وأغلقت التليفزيون، ودخلت غرفة النوم. استلقت على سريرها، نظرت إلى مكان خالد الشاغر في فراشهما بحزن لكنها ارتاحت لأنه ليس هنا الآن. هل كانت ستحكي له هذا الحلم أم لا؟ هل ستقول له إنه كابوس أم حلم جميل؟

لا تحتاج إلى أن تحكي له شيئًا، وهو يعرف منذ زمن طويل أنها صارت تحب النوم وحدها، وأن تحلم وحدها، وأن تشقى وتتعذب وتفرح وحدها.

هل ستحكي له ما جرى لها من هايدي في «العروس»؟

ما الضامن لأن يعود أصلاً؟

هي على الأقل حين تغضب منه تذهب إلى بيت أبيها وتعود حتى إذا لم يأتِ هو إليها، أما غضبه هو فيعني أنه لن يعود إليها أبدًا.

قالت لنفسها إنه يجب أن يرجع إليها، يجب ألا يطفش أو يهاجر أو يختفي، أو يموت، ويتركها تصارع مصيرها وحدها. يجب أن يعود إليها ولو كان يبغضها من أعماق قلبه. لماذا يكرهها الآن؟ هل عجزت وشاخت، وزاغت عينه على الرقاصة؟!

زفرت مكروبة من أعماقها:

- يا رب.

في «العروس» هزئت به، وقالت له كلامًا يقطر سمًّا. سخرت منه وهي تطفح غيرة من تلك الصبية المتفجرة بالأنوثة، كقنبلة حرقت وجهها، وأطلقت نحوه دفقة كراهية هائلة كانت تحرق لحمها وتشوي عظامها، صرخت فيه بوجه شرس والحقد يملؤها: «هاه! الرقص حلو، الرقص جميل.. الرقص فرح بالجسد، فرح باللقاء، فرح بالأرض.. مش كدا؟! إخخخخخخخخخخخخ... إخخخخخخ... والرقاصة حلوة، حلوة قوي وعاجباك يا سافل.. يا ... أنا بكرهك، بكرهك.»

لمعت عيناها بدموع: «ولو.. ليس هذا بسبب حتى لا تعود. من أمتى بتزعل مني؟»

أعطت وجهها للحائط، وحاولت أن تنام، لكنها ظلت قلقة، تتألم وتتقلب على جنبيها دون أن تجد النوم.

خلت العروس من كل روادها، ولم يبقَ بها سوى ثروت بك ممتلئ المعدة إلى آخرها، سعيدًا بكأسه والفراغ الصامت من حوله، سارحًا في خيال شهواني يجمعه بـ«سامية بشندي»، وأتمّ حمُّو الترسة مهامه الجديدة في مطبخ العروس، وخرج منه مفتوح الفم عن آخره في ابتسامة واسعة، يتمايل كبرميل زيت ضخم. انحنى قليلاً وهو يعبر بـ«ثروت» بك الذي لم يُعِره انتباهًا، ونزل إلى الطابق السفلي، يتأرجح فوق الدرجات الخشبية التي زيَّقت وأنَّت تحت ثقل وزنه وضخامة جسده.

وهو يطلب من حمُّو توقيع العقد، قال مستر أسعد:

- عارف طبعًا إني باخد نسبة من مرتب رئيس الطباخين؟

- لا والله ما أعرفش.

حدجه بنظرة صارمة:

- أديك عرفت.. باخد تلاتين في المية كل شهر، وبتتخصم من المنبع.
- كتير يا مستر أسعد.
- مفيش فصال! والحقيقة إني كنت معترض على طرد برسوم، وكمان كلهم في المطبخ زعلانين ومش طايقين وشك.

قلَّبها حمُّو في رأسه، وسكت.

- وقِّع.

تردد حمُّو، ولم يمد يده إلى القلم المرفوع بيد مستر أسعد.

- بلاش! انتهينا.. مع السلامة.
- خلقك ضيق ليه يا مستر؟ أنا تحت أمر السيادة.

وقع حمُّو الترسة على مضض، ومد يده مفتوحة ليصافح مستر أسعد.

سحب المستر العقد، ووضعه في درج مكتبه، وتجاهل اليد التي لا تزال ممدودة، ورفع يده في الهواء مشيرًا إلى الباب:

- عملك يبدأ من الثالثة عصرًا وينتهي في السادسة صباحًا، ودخولك وخروجك من باب المطبخ، وممنوع تظهر في الصالة.. مع السلامة.

في المطبخ، كانت ملاعق ومغارف وشوك مرفوعة بأيدي بعض الطباخين والسفرجية، تضرب على استحياء الأواني والصواني، فارتفعت أصوات رنانة خافتة. كانوا ممتعضين، وكانوا يعترضون ولا يسمع اعتراضهم سوى جدران المطبخ العتيق من حولهم، وكان بندق حزينًا يحبس الدموع في عينيه السوداوين الواسعتين.

«ذهب عَمّي برسوم ولن يعود، ومن الغد سيحكمهم حمُّو الترسة».

رغم كل شيء، يجب أن يغسلوا أدوات الطهي، ويمسحوا البلاط والحوائط، وأن يغادروا في هدوء من باب المطبخ الخلفي، ككل فجر.

قال ثروت بك لـ«حمُّو»، وهو يمر به في طريقه إلى المطبخ:

- ما تنساش الترباس دا بكرة.

صحَّح حمُّو:

- الترفاس يا باشا.. عيني يا باشا.
- والمشروب الجديد دا.
- أنا في الخدمة.
- والسيجار.
- حاضر يا باشا.

صرفه ثروت بك بإشارة من يده.

كان مستر أسعد في مكتبه يعد نفسه لمغادرة العروس من الباب، الذي خرج منه السيد عمر، حين وصلت لعتبة صالة العروس الكبرى «منى هانم»، يسبقها صوتها العالي، كعصف رعد:

- هو فين؟!

هرولت في الصالة الخالية حتى صارت عند رأس ثروت، شخطت فيه، مدت يديها وجذبته إليها، أوقفته كأنه دمية، استسلم لها تمامًا، وأحنى رأسه كتلميذ بليد، كالت له توبيخًا معتبرًا، شتمته، وسبته، وسحبته من يده كطفل بال على نفسه، وخرجت به إلى الشارع، وقادته إلى البيت مثل جرو صغير.

بخروج ثروت بك وزوجته، خلت الصالة الكبرى من أنفاس البشر، وصارت قطع أثاث عارية لامعة، وكراسي خالية ومناضد عارية المفارش، وحوائط صماء، صارت موتًا من بعد حياة، خاوية على عروشها، مطفأة الأنوار، موحشة كصحراء، بلا نبت ولا زرع ولا ماء.

وقبل أن تُغلَق أبواب العروس الخارجية في موعدها المعتاد، كانت مكاتب الإدارة والمخازن بالطابق السفلي قد أُحكِم إغلاقها، وجال الهراوي، يتبعه معاونوه، كل ركن وزاوية فيها حتى اطمأن إلى خلوّها التام، وخرج برجاله ووقف في شارع

قصر النيل، في كامل هيبته ووقاره، يلقي بتعليماته الأخيرة إلى الغفر الباقين.

مضت ليلة رأس السنة مملة عند الهراوي، عبرت بلا جريمة، بلا معركة، بلا خناقة كبرى ولا مشاجرة معتبرة. ليلة عصيبة هي تلك التي يسودها السلم والهدوء، ولا تكون في حاجة إلى ظهور الهراوي بطلاً على المسرح، في صالة العروس الكبرى. انقضت الليلة وكان أغلب الوقت يلزم مكانه صامتًا على مكتب الاستقبال، وقد حان موعد الرجوع إلى البيت، في السيدة.

وهو يستقل توصيلته المعتادة، التاكسي الذي يأتي به ويذهب، قال الهراوي لنفسه: «يا خسارة، ليلة وعدت، زي اللي قبلها، ولم أظهر في أي صورة.»

وللسائق:

– سوق يا ابني.. سوق.

في السيدة، كان الحاج فتحي في مكانه على كرسي الصالون حين دخل أول شعاع شمس من الشرفة الواسعة التي تشرف على ميدان السيدة وناصية شارع السد.

نظر في ساعته: «وَجَب.»

وقف واجتاز باب شقته المفتوح، وزعق إلى أعلى مرة واحدة:

– طلحة.

وعاد إلى مكانه على كرسيه المذهب، يُجري أصابعه على مسبحته:

– يا لطيف.. يا لطيف.

بعد دقائق قليلة، نزل طلحة وقد ارتدى بدلة حريرية خضراء، وكرافتة حمراء، وحذاءً بنيًّا طويل البوز ولمّيعًا، وقد مسد لحيته الخفيفة ورجّل شعره إلى الخلف مفرقًا إياه، وسكب على شعره وملابسه زجاجة مسك كاملة.

– السلام عليكم يا حاج.

نظر إليه الحاج فتحي من أسفل إلى أعلى، وقد بدا له الولد كعريس في صباحية زفافه.

وجيهًا، وخبيثًا، وأمكر مما كان هو في أيام فتوته.

قال وهو يشير له أن يصعد مرة أخرى:

- لا خلاص، اطلع أنت.
- مش قلت عايزيني آجي معاك للحاج مرزوق.
- آه، بس غيرت رأيي، الأحسن أروح له لوحدي. خليك أنت في حضن جويرية.

فتح طلحة عينيه في أبيه:

- بقول لك يا بابا.. ما تقعد حضرتك هنا معزز مكرم، وأطلع أنا للحاج مرزوق أبلغه اللي أنت عايزه؟

حدجه الحاج بنظرة قاسية أخرسته فتحرك مبتعدًا.

ترك طلحة أباه واقفًا، وجلس على كرسيه المعتاد في ركن الصالون، وراح يهمس كأنه يحدث نفسه، كأنه وحده فوق خشبة مسرح، وقد غابت الشخصية الأخرى:

- لازم تستريَّح بقى يا حاج، أنت شقيت كتير وتعبت كتير.. استريَّح بقى، استريَّح، وعلى كل حال العروس دي والعياذ بالله مكان دعارة وفسق وفجور، كيف كان لك فيها أسهم من أصله؟! إنه مكان عربدة وسكر ورذيلة، وأنت حاج تعرف ربنا، بركة يا جامع، ربنا بيحبك يا أبي وعايز لك الخير، يريد أن ينتشلك مما أنت فيه.

سمع الحاج أطرافًا من همس طلحة: «الواد هيسوق الجنان عليَّ!»

سخط الحاج على نجله الوحيد فثار وماج وقام من كرسيه، ولفَّ حول نفسه لفتين يستوعب ما لفظ الولد، قبل أن يبدأ في شتمه، والولد نزل عليه أدب السماء فجلس منكمشًا واضعًا عينيه في السجادة الخضراء تحت قدميه.

كان الحاج يحسب أن ابنه سيكون له معينًا على الانتقام من عمر عبد الظاهر، ولكن السافل يبدو أن له مآرب أخرى، ثمة شيء في كلام الولد يشي بأنه يقف مع عدوه اللدود، وأنه قد وُعِد بالثمن، ثمن كبير جدًّا مقابل أن يبيع أباه، ويا له من ثمن!

كفَّ الحاج أخيرًا عن السباب، وهدأ وجلس على كرسيه، وراح يُعيِّر الولد العاق بكل ما صرفه عليه وعلى تعليمه، وعلى زيجاته المتعددة. عيَّره بكل ما أعطاه: النقود والزوجات الثلاث، والسيارة و...

رد الولد، بهدوء ووقار، بأنه «أبيض يا ورد» لا يملك شيئًا، وأنه أجير عنده وفقير، وأنه هو من يملك كل شيء، كل شيء ملكه هو، كل الممتلكات والمعارض والأرصدة في البنوك في مصر والخارج باسمه هو، وأنه أخذ تعبه وشقاه منذ كان صبيًّا، وأنه لم يلعب ويَلهُ كما كل الأطفال، وجد نفسه منذ صغره خادمًا لأبيه، يعمل ويلف ويدور طيلة اليوم بين الورش والمعارض، وحتى حين أراد أن يتزوج من جارتهم البنت «وداد بنت عبده الناياتي» نهره وصاح فيه: «دول آلاتية، أبوها زمارة للشيطان وأهلها بتوع رق وطار.»

- كل جوازاتي لمصالحك يا حاج.

كاد الحاج أبو درقة يُصعَق من تجرُّؤ الولد عليه، وزاد كمدًا على كمد، كظم غيظه لكن جسده تحول إلى نار تكاد تلتهم ما حوله، قبل أن يطاله جحيمها. قام طلحة، وتحرك معطيًا ظهره لأبيه، وهرول خارجًا.

نظر الحاج إلى ساعته وقام واقفًا، وقد عزم على الطلوع إلى الحاج مرزوق عشم الله وحيدًا.

وقف الحاج فتحي، وتأهب للنزول من برجه العتيد. باغته صوت منادٍ مألوف في أنحاء السيدة، معروف لأهلها، وارتفع من ميكروفات الجامع الكبير: «الملك لله الواحد القهار، تُوفِّي إلى رحمة الله تعالى الحاج مرزوق عشم الله. تُقام صلاة الجنازة على روح الفقيد بعد صلاة الظهر من جامع السيدة زينب، والدوام لله.. الملك لله الواحد القهار.»

نزل الخبر على الحاج فتحي نزول صاعقة تضرب سماء سوداء فانهار في مكانه، وجلس يحدق في الفراغ أمامه.

ثم صار له وجه شرس غاضب، ينظر إلى الحوائط، والأبواب، والشبابيك، وإلى الأثاث الفاخر من حوله كأنها أعداء، ثم تهيَّج مثل لبؤة قتلوا أشبالها ووليفها،

ولم يعُد لديها سوى البحث عن قرين جديد أشد قوة وبأسًا، يستطيع أن يهبها ذرية جديدة ونفوذًا ومالًا يعوضها عن كل ما خسرت، انحنى إلى الأمام ومد يديه وقلب المنضدة بما عليها، بكل ما أُوتي من قوة، فانقلبت على ظهرها، وتناثر ما فوقها، وراح يصرخ صراخًا مريعًا، أيقظ كل النائمين في طوابق برجه العالي، في شارع السد.

٢٠

أشرقت الشمس على القاهرة، وظهر قرصها الفضي الفتَّان فوق جبل المقطم، ولحظة بعد أخرى كان يزيح سحبًا سوداء ورمادية، ويرتفع أعلى الغيوم، ويبعث ضوءًا أبيض حانيًا إلى الوادي الممتد على ضفتي النيل. وفي السماء اللبنية الواسعة، ظهرت أسراب طيور، تحلق في كل اتجاه.

طلع الصباح على من شرب من دم السلفحاة البحرية في كأس كريستال فاخرة، وأكل لحمها، وازدرد فطر الترفاس من يدي حمُّو الترسة، وقد غُمَّت نفسه وأصابه غثيان، واضطراب في المعدة، ورعشة في أطرافه، فقام من سريره قلقًا، مضطربًا يتنقل من مقعد إلى كنبة إلى قعدة حمَّام، يحاول إفراغ مثانته وأحشائه بلا جدوى، فيعود إلى الاضطجاع في سريره، يتقلب على جنبيه، ويقوم ثانية، يقعد، يتلفت حوله، يتململ، يجر رجليه وينزل ويقف ويخرج من غرفة نومه، وبه مس من مرض غريب، يروح ويجيء، وبعضه ينافر بعضه، يشعر بأنه قد صار أجزاءً مفتتة، مبعثرة، لا يضمها كيان واحد، يصير مليارات ذرات تتحرك في فراغ، تدور باحثة عن التحول إلى شكل محدد، إلى هيئة إنسان، بلا جدوى.

معظم من أكل من فطر الترفاس وشرب دم الترسة أصابه هزال مفاجئ، بعد ساعات معدودة أحس بتقلص عضلاته وتوهم ذوبان دهنه ولحم أعضائه، وسمع قرقعة من عظامه وشعر بخوائها، وبدا لنفسه نحيلاً كعود قصب مفرد، فراح يتحسس ذراعيه وبطنه وساقيه ويفحص أعضاءه، يخلع قميصه يتأكد من وجود صدره وفخذيه وساقيه، يتخلص من بنطاله وملابسه الداخلية قطعة وراء قطعة حتى يصير تام العري، أجرد الهيكل، ويقف حابسًا أنفاسه أمام المرآة

كما ولدته أمه، وبلا حبل سري، ينظر إلى صورة جسده ويتمعن فيها ليتأكد من وجوده، يحدق في خياله العاري على سطح المرآة اللمَّاع مرعوبًا وهو يرى فرار هذا الشبح الهارب، فيكاد يبكي من رعب اضمحلال جسده، وشعوره بأنه يتبخر، يتلاشى في فضاء خانق.

معظم من شرب وأكل من الوليمة العظيمة، التي أُقِيمَت ليلة رأس السنة في الطابق السفلي، اتصل بطبيبه الخاص في الصباح الباكر، أو ذهب على عجل إلى مستشفاه المفضل، آملاً في النجاة من هذا المرض الغامض الذي حل بهم كوباء صاعق.

مرض مستر أسعد لطيف وشعر برعدة مباغتة في أطرافه، وألم خاطف في معدته، وأعراض طفيفة أخرى عرف سببها على الفور، فهرول مسرعًا ووحيدًا إلى مستشفى الأنجلو القريب من بيته في مصر الجديدة، فأُحيط برعاية خاصة وفائقة، وابتسامات مداهنة مطمئنة.

وفي السيدة زينب، اضطجع الحاج فتحي أبو درقة في فراشه، محاطًا بمخدات من حرير محشوة بريش نعام، تتغير ألوانها الزاهية بسقوط الضوء عليها. كان يئن متألمًا من أسفله إلى أعلاه، ويصرخ غاضبًا ذاهل الوجه، غائم العينين، صرخات مريعة، ويهذي بكلام متقطع غريب، غير مترابط كأعضائه، وصوته يضعف ويهن، ويقطع مسافة أخرى نحو الحشرجة الأخيرة. كان يحتضر، وحوله خديجة، ونساء طلحة، وحفيداته ينهنهن ويبكين، وطلحة عند رأسه يتباكى هازًّا رقبته يمينًا ويسارًا هزات سريعة متتابعة، ويشنج بلا دموع، وهو يُمنِّي نفسه بوراثة كل ما يملك الأب، الموشك على الرحيل.

وكان ثروت بك في قصر عتيق بدرب الجماميز، ورثه عن جده فاضل باشا، وفي غرفة نومه، جالسًا في فراشه متربعًا متدثرًا ببطانية ثقيلة، كرة ضخمة مفككة إلى أجزاء عدة، تضمها يدا منى هانم الطويلتان، تضغطه وتمدده، وتربت على جسمه كأنه دمية معطوبة، تقيمه وتقعده، رافضة أن يذهب إلى مستشفى،

تقرعه وتوبخه على دناءة نفسه، وشراهته وطفاسته المعتادة، وهي تسقيه أشربتها الغريبة، وتلقمه مضاداتها الحيوية المستوردة.

واتصل الأستاذ باهر العقدة بطبيبه الخاص يستنجد به، فحضر إلى منيل الروضة ومعه ممرضتان شابتان. وجده طبيبه العجوز خيال مآتة طويلاً أحمر الوجه، في جلباب فضفاض، يسعى من سريره بغرفة نومه إلى صالة الاستقبال الطويلة، ومنها إلى الحمَّام، وهو يسعل من فوق، ومن تحته يسيل خيط أصفر ممتد، يسقط على السجادة الفاخرة الحمراء على رخام الأرضية المزخرف فيخلف وراءه لطعات صغيرة صفراء وبنية، كريهة الرائحة، أمام الأرائك الأنيقة وكراسي الصالون المذهبة. كان يسهل ويهرول نحو الحمَّام واضعًا كفَّيه على فمه وخديه، يخفي وجهه عنهم، وهو تام الخزي تحت عيون الممرضتين والطبيب.

لم ينجُ من المرض الغريب، غير المعروف، سوى الدكتورة نانيس واصف لأنها لم تشرب ولم تأكل من هذا، لم تشعر بألم في جسدها، فقد غاب ولم يعُد موجودًا، ولا بما يكدر صفو وعيها ونقاءه، وقد صار خالصًا، وهي تواصل نومها العميق في سلام، بلا أحلام يظهر فيها آخر، وبلا صور تعوق روحها المحلقة في موسيقى سماوية.

وأفلت السيد عمر عبد الظاهر من المرض المريع رغم كل ما أكل وشرب، بلا سبب ظاهر، واضح للعيان، كان مستيقظًا، مستلقيًا على كنبته في الطابق الثاني، طبقه الفضائي المحبب، يواصل احتفاله بانتصاره وفرحه بنفسه، ويحتسي المزيد من نبيذه الفاخر.

كان مزاجه رائقًا، وأشعة شمس الشروق تجتاز الزجاج الشفاف الذي يلف كل الطابق، فتضيء ما حوله، وتبعث الدفء في أعضائه، حين رن صوت هاتفه، وقطع استغراقه في تأمل منظر قلعته المحبوبة، هناك وراء الزجاج الشفاف، وظهر فوق شاشته اللامعة كلمتي «رقم خاص».

- آلو.

سمع صوت فؤاد بك المعدني يخبره بلا مقدمات:

- الحاج مرزوق تُوفِّي، تعالى فورًا.

خرق الخبر المباغت طبلة أذن السيد عمر كسهم رفيع قصير، أحمر الرأس متوهج بالحرارة، فزعق من حرقة الألم:

- آآآه.

وخرس مصدومًا، متحجر الوجه.

صعقه الخبر كتيار كهربي فاهتز جسمه بحركة منعكسة، ونترت يده الهاتف، وبقي جالسًا في ذهول لدقائق طويلة، يلملم شتات نفسه ويمتص وقع الصدمة مثلما تمتص إسفنجة جعداء ماءً أسود. كان ساكنًا مثل صخرة يحدق في الزجاج أمامه، وقد غابت القلعة من مقلتيه.

لم يعرف كيف قام ووضع جسده العاري في البانيو الكبير، واستلقى لدقائق تحت تيار ماء كثيف وساخن، ولبس بدلة حريرية سوداء، وحشر قدميه في حذاء لامع وطويل كمركبين سوداوين صغيرين، وأخفى عينيه تحت نظارة شمسية، سوداء العدستين، وخرج، وذهب إلى قصر الحاج مرزوق.

في نور الشمس، بدا القصر للسيد عمر شيئًا آخر تمامًا غير الذي كان. ظهر أمام عينيه، اللتين لم تذوقا النوم طيلة الليلة الماضية، مبنى غريبًا وعجيبًا غير الذي كان يراه حين يستدعيه الحاج في الليل. رأى بوابة عالية جرداء بلون الإسمنت، يتوسطها باب حديدي قديم مفتوح على مصراعيه، كباب مستودع خردة، يفتح على حوش واسع وخالٍ، وفي آخره بناية مستطيلة واطئة من طابق واحد، واجهتها وحوائطها تقوم على أعمدة سميكة من الإسمنت، ومجردة من الطلاء والدهان والألوان، لا تعلوها قبة ذهبية، ولا أية قبة، لا يعلوها أي شيء على الإطلاق.

ما إن عبر البوابة وتقدم خطوات قليلة في الحوش المترب حتى داهمت أنفه رائحة قوية نفاذة تأتي من أطراف الحوش الواسع، حوَّل رأسه إلى مصدرها فأبصر عدة حظائر بحذاء السور الحجري القديم، أبوابها الخشبية عالية ومغلقة، اختلطت في أنفه الحساس روائح أجساد غير بشرية، وأعلاف، وروث، روائح ماشية؛ جاموس وبقر وأغنام وخراف، فقطب جبينه، ورفع يده إلى أنفه يطرد الرائحة العتيقة التي يعرفها، رائحة البغل «رهوان»، ورائحة بيت درب بهلوان. دعك أنفه مرات وهو يواصل سيره نحو مدخل البناية الغريبة. بعد خطوات قليلة توقف، وخلع نظارته الشمسية، وألقى النظر حوله منتظرًا أن يأتي أحدهم لاستقباله.

كان كل ما حوله أجرد، خاليًا من الألوان والزخارف والنقوش وصامتًا، ساكتًا وموحشًا كصحراء.

بعد لحظات، سمع خوار الماشية من خلفه، وأصوات ضرسها وهي تأكل وجبتها الصباحية، فتذكر الخبر المعروف عن الموائد الأسبوعية التي يقيمها الحاج عصر كل جمعة.

«لا بد أنها الماشية التي تُذبَح كل جمعة، وتُقدَّم لحومها في العصر لعامة أهل السيدة. كيف كانت خافية عن بصري»؟

كان آلاف الخلق في عطوف السيدة وأزقتها ودروبها وحاراتها يترقبون بلهفة عارمة تذوق اللحم، وينتظرون بصبر نافد هذه الموائد الأسبوعية المنتظمة. في عصر كل جمعة، كانت بوابة قصر الحاج مرزوق عشم الله تُفتَح لهم على مصراعيها، فيدخلون مبتهجين، رافعين رؤوسهم نحو ساكن القصر، وأصواتهم بالدعاء:

- يجعله عامر يا حاج.

خدم الحاج يفرشون حصرًا كبيرة من قش وخوص وبلاستيك حتى يختفي تراب الحوش تحتها، ويضعون اللحم والخبز والأرز فوق طبالي خشبية واطئة

وعارية القرص، ويبتسمون للعشرات من الرجال والنساء والأطفال من معدمي السيدة وفقرائها، وهم جلوس، متربعون على الحصر يأكلون، وكلما وُضِع أمامهم طبق جديد يرفعون أيديهم مفتوحة نحو السماء، يدعون للحاج بسعة الرزق، وطول البقاء.

تأكل دفعات من عشرات وتنصرف حامدة شاكرة، وتجلس مكانها دفعات جديدة، بوجوه متلهفة، وأيدٍ متأهبة، والخدم على حالهم يقدمون الطعام، مرحبين ومبتسمين.

على بعد خطوات من مدخل البناية، توقف السيد عمر يحدق ويدور بعينيه في ما حوله، غير مصدق ما يرى: «أين ذهبت البوابة الفخمة، والقبة الذهبية، والحديقة، ونافورة المرمر، وأقفاص الطيور و...؟!»

كأنه استيقظ من نوم سنين، وفتح عينيه أخيرًا وصحا من حلم استغرق طويلاً. رفع يديه إلى عينيه ودعكها مرات، وهزَّ رقبته مرات رافضًا كل ما يرى، نافيًا كل ما حوله، يحاول أن يفيق من أوهام بدت له حقائق مكينة راسخة. حدق أمامه وحوله، وحملق في التراب تحت قدميه: «هل كل ما رأيت طيلة السنوات الماضية مجرد أوهام؟ كل ما حدث في هذا المكان أضغاث أحلام؟ لقاءاتي بالحاج، والصبية الفاتنة والنبيذ الفريد، وكل ما دار بيني وبين الحاج عبر سنوات؟ ولقاء ليلة أمس أين وقع؟ هل جئت هنا من قبل؟! يا الله.. يا الله.»

على كتفه وُضِعت يد باردة طويلة الأصابع، قاسية النخس. رفع وجهه فرأى فؤاد بك ينظر إليه من أعلى، بوجه ممسوح، مسطح، بلا ملامح، بلا أسارير.

«هل هذا حلم آخر»؟

نظر إلى فؤاد بك في شك وريبة، لكنه استسلم تحت نظرته الصارمة.

سبقه فؤاد بك بخطوة واسعة، ومن خلف ظهره أشار بإصبعه أن يتبعه فتبعه مسلوب الإرادة، ومشى خلفه كالمسرنم، وهو يجاهد كي يتذكر ما جاء من أجله.

خلف فؤاد بك، اجتاز أبوابًا وصالات واسعة شبه خالية، وممرات يراها للمرة الأولى، وهو ينكر كل ما تراه عيناه: «أين اختفى الأثاث الذهبي؟ وأين حوائط القصر المزخرفة والتماثيل، والفتاة والنبيذ؟»

لم يكُن يصدق أنه لم تمر سوى بضع ساعات على لقائه بالحاج: «يا الله، هل يأتي الموت مسرعًا هكذا أكثر مما يمكنني أن أتخيل وأتوقع؟ هل مات بسبب علمه بما فعلت؟ لم يحتمل الصدمة، هل قتلته أنا؟ ماذا فعلت بنفسي وبهذا الرجل الكريم المعطاء؟ يا رب.»

أوقفه فؤاد بك أمام باب صغير من ضلفة واحدة، ودفعه إلى غرفة:

– ودِّع الحاج، قدامك دقيقتين بس.

وتركه مغلقًا الباب خلفه في رفق.

وجد نفسه في غرفة واسعة جدًّا، عارية البلاط والحوائط، عالية السقف، ونافذة وحيدة عريضة مفتوحة على مصراعيها تطل على فراغ الصحراء. غرفة فقيرة بلا أثاث تقريبًا، ليس فيها سوى سرير كبير عالٍ يفصله عنه عدة أمتار، مُسجًّى فوقه جسد ضخم، مُغطًّى بلحاف حريري أخضر، تفوح منه رائحة عطر طيب، مسك فاخر، نادر.

نزلت عليه خشية، وتسمر في مكانه، ووجد نفسه متردد الخطو.

حرك جذعه قليلاً يمينًا ويسارًا وهو يتلفت حوله عله يرى شيئًا مخفيًّا، فلم يرَ سوى السرير العتيق. تقدم خطوتين فلمح بوضوح نقشًا في وسط شباك السرير الخلفي، رأى زهرة لوتس وردية واحدة، كبيرة، طويلة الساق، وبتلاتها أهرام ذهبية صغيرة، تلمع كأنها مرايا، عاكسة أشعة ضوء الشمس الآتي من النافذة، وتحت الزهرة بسنتيمترات قليلة كانت رأس الحاج مستقرة، للمرة الأولى يرى شعره عاريًا، شعره كثيف وأبيض ولامع كالفضة.

توقف مرة أخرى، متهيبًا الاقتراب أكثر.

«حتى في الموت حضورك مهيب يا حاج»!

كان الحاج مرزوق يحرص على ألا يقترب منه أي شخص أكثر مما ينبغي، حتى أخلص خلصائه. كان بعيدًا عن كل عين وعن كل يد، حتى هابه كل سكان السيدة. ومع أن أصل الحاج مرزوق غير معروف بينهم، ولا يعرف له أحد أبًا ولا أمًا، جدًّا ولا عائلة كبيرة من عائلات السيدة الشهيرة، كان يُعَدُّ الأنبل بينهم، صاحب الأصل العريق، وكانوا يشعرون أنه يرقبهم، يعرف كل شيء عن السيدة وسكانها، وينظر إليهم بعين رحيمة من قصره، أعلى جبل المقطم.

تمالك السيد عمر زمام وجله وخشيته، واقترب خطوات حتى استطاع أن يصعد ببصره من الجسد المُسجَّى إلى الوجه المكشوف.

كان وجه الحاج مرزوق كما هو، الوجه نفسه الذي رآه في لقائهما الأول، لم يغير الزمن فيه شيئًا، ولم ينقص الموت من سريان الحياة فيه مقدار ذرة، الملامح والأسارير نفسها التي أسرته، وجه مطمئن هادئ، عيناه مغمضتان بلطف، وشفتاه منفرجتان قليلاً عن ابتسامة غامضة، تبدو أزلية، وهالة نور خفي تحيط بالوجه الساكن، المستقر في سكينة عميقة:

- يا الله!

على قدميه ركع السيد عمر، وأمسك باليد العظيمة التي أنعمت عليه كثيرًا.

«لم يكُن هناك سبب واحد يدعوك إلى اختياري للعمل عندك، ولا إلى أن تعطيني كل ما أعطيت، لماذا آثرتني بكرمك وفضلك حتى خنقتني بمعروفك؟! لماذا يا حاج مرزوق؟! من أنت»؟

نهنه السيد عمر، وراح يبكي، وقلبه مفعم بالامتنان لمعروف الرجل الكبير.

تمالك نفسه، ومشاعره الفياضة، ومسح دموعه، واقترب أكثر من وجه الحاج، يتمعن فيه علَّه يفتح شفتيه ويخبره، فلم يسمع سوى الصمت الجليل، ولم يرَ سوى النور يشع من أسارير الحاج.

خلع نظارته وراح يحدق في وجه المحبوب الكريم، مسلوبًا، لحظة بعد أخرى كانت دائرة الضوء تتسع، وتتسع حتى تلاشى الوجه، كأنه موجة ماء صغيرة تختفي في محيط.

تراجع إلى الخلف مذعورًا، وهو يبسمل ويحوقل.

وضع نظارته على عينيه، وتحرك نحو الباب: «لن أقول لأحد ما رأيت، أبدًا.»

قبل أن يمد يده ويفتح الباب ويخرج، سمع من خلفه صوت ضحك ساخر تردده حوائط الغرفة الواسعة، ويصعد إلى السقف العالي.

تسمر في مكانه ولم يجرؤ على الالتفات إلى الخلف، ولم يقوَ على الخروج.

عرف الصوت، وأدرك هوية الضاحك، فأغلق عينيه، وود لو استطاع أن يغلق أذنيه، ويفر إلى الخارج، لكنه لم يستطِع أن يحرك قدميه.

«إيه يا عمر، يا أيها الغبي الأحمق، لقد زورت وزيفت كل شيء يا أَبْله، أعطيتك الصندوق وكان فيه كل ما يغنيك ويسعدك العمر كله، أنت جاهل لا تدري، ولا تعرف قيمته، إنه صندوق الكون، صندوق العالم بأسره، غطاؤه الأعلى السماء، وقعره الأسفل الأرض، وما بينهما كل شيء له وجود، فيه كل ما هو موجود، وجعلتك السيد عليه، وها أنت فعلت ما فعلت. يا خسارة يا عمر، كنت أنظر إليك كأني أرى نفسي في مرآة، لقد أحببتك، وأعطيتك، وأنت لم تشكر ولم تحمد، جحدت النعمة وخنت العهد، أنت لم تحبني قط يا عمر، لم تعرف حقيقتي ولا حقيقة نفسك، لقد خنت الأمانة يا عمر، وستتعذب وتعاني ما بقي لك من عمر، وداعًا يا أحمق من عرفت ورأيت».

سكت الحاج مرزوق، وتلاشى صوته العميق المهيب، وكان السيد عمر يعض نواجذه من الندم، ولكن الوقت كان قد فات، ولم يعُد باستطاعة أحد أن ينقذه من هاويته المحدقة به من كل صوب.

فُتِح الباب، ومُدَّت يد فؤاد بك فجذبته إلى خارج الغرفة، وخارج باب القصر برمته:

- الجنازة بعد صلاة الظهر من جامع السيدة.

آثر السيد عمر أن يعود إلى فيلته مشيًا على قدميه ليفكر ماذا سيفعل.

«ها قد مات الحاج مرزوق، فلماذا لا يكون كل شيء من تدبيرك يا فؤاد؟

أنت شخص غامض شرير، لا يعرف أحد عنه شيئًا، شبح لا يُرى في أي مكان في القاهرة، أنت سراب بعيد ليس فيه ماء، وأنت من لا أبالي به، أكذوبة كبرى، ولا بد لي من كل ميراث الحاج مرزوق. اللعنة عليك، وعليهم جميعًا، هؤلاء الوارثين الأشرار السفلة».

في طريقه إلى فيلته، اتصل هاتفيًّا بكل أعضاء مجلس الإدارة، وأبلغهم رسالة واحدة. قال السيد عمر للجميع: «الحاج مرزوق تُوفِّي إلى رحمة الله، وصار من الماضي، واليوم أنا موجود. لا تقلقوا على العروس، ويجب أن يحضر الجميع الدفن، والعزاء. عالجوا مرضكم واحضروا.»

لم يقع الأمر كصدمة عليهم، أغلبهم يعرف بالفعل منذ سنوات طويلة أن الحاج مرزوق لم يعُد هو صاحب السلطان في «العروس»، ومع ذلك حزن بعضهم لرحيل الحاج، ولكن القلق والخوف على مستقبل أسهمهم وأموالهم كان أكبر.

وهو داخل إلى فيلته، صعقته فكرة: « كيف تقول إنك أعطيتني كل شيء وقد جعلت أسهمي صفرًا يا حاج؟»

دخل غرفة نومه، واستلقى فسمع صوتًا يتردد في رأسه: «لقد جعلت منك رئيسًا لمجلس الإدارة يا أحمق، والرئيس يحكم ولا يملك.»

دمعت عينا السيد عمر عبد الظاهر، وقد فهم بعد فوات الأوان. تقلب في فراشه يستجدي الغفوة، ولم يحظَ إلا بنوم مضطرب، متقطع مثل نفسه الممزقة إلى أشلاء، معذبة.

وفي ذلك الصباح، توقف بعض الفلاحين الذاهبين إلى حقولهم أمام جسد مجهول، غريب، ليس من أهل الناحية، جسد خالد عبد الباري الذي كان ممددًا على تراب طريقهم، يعوق سيرهم، فحمله بعضهم إلى مستشفى الهرم، وضعوه أمام عتبة استقبال الطوارئ وفروا عائدين إلى حقولهم، ونسوا أمره تمامًا.

٢١

قبل حلول الظهيرة بوقت طويل تداولت الألسن خبر وفاة الحاج مرزوق عشم الله، وتناقله الناس حتى توغل في شوارع السيدة زينب ودروبها وأزقتها وعطوفها، ولم يمضِ زمن محسوب حتى تحول قصره في مكانه المعروف فوق الجبل إلى مغناطيس عملاق رهيب، يجذب إليه كل ما حوله، وكل من يعرف اسم الحاج.

من مساكن الزلزال في المقطم سار ناس، ومن قلعة الكبش وطولون وعلي زين العابدين والبغالة والناصرية والحنفي زحف في اتجاه القصر المفرد في الصحراء رجال ونساء، شيوخ وشباب ومراهقون، وأطفال، ورضع على صدور أمهاتهم، كانوا يبكون ويولولون، يضربون الخدود والصدور وهم يجتازون الشوارع والطرق ويصعدون إلى المقطم، وعند باب القصر توقفوا، وتزاحموا منتظرين أن تُفتَح لهم البوابة المغلقة.

وتصاعد أمام بوابة القصر النحيب والعويل وصوات النسوان:

- يا لهوي يا حبيبي، يا لهوي.
- يا خرابي يا سندي.
- فايتنا لمين يا كبير؟!

ومن بين الجمع، ارتفعت أصوات رجال:

- وحدووه، وحدوووووووووه.
- لا إله إلا الله.

انفرج الباب قليلاً انفراجة ضئيلة تكفي خروج شخص واحد.

وخرج لهم «فؤاد بك، بقامة مديدة وبدن ضخم كبرج قلعة عالٍ، ومن خلفه كل خدم القصر.

لم يكُن في حاجة إلى أن يرتقي سلمة أو مرتفعًا ليرى هامته ووجهه كل من في الجمع.

رفع يده ولوَّح للناس، فخفَّت حدة الأصوات، وتعلقت الأنظار به. انتظر قليلاً يحدق في كل وجه حتى سكت القريبون منه، فاتسع السكوت حتى ران صمت مترقب فوق رؤوس الجميع.

رفع صوته القوي كرعد:

- البقاء لله.. سعيكم مشكور.

وأمرهم:

- عودوا إلى جامع السيدة فمنه ستخرج الجنازة بعد صلاة الظهر.

واختفى فؤاد بك خلف البوابة الكبرى التي أُغلِقت بسلاسلها الحديدية.

من المقطم، عاد الرجال والنساء كما جاؤوا، مشيًا على الأقدام، إلى ميدان السيدة، فامتلأ ببعضهم صحن الجامع الكبير، وغرفة المقام، وكل فراغ حول الجامع، وتوزع الباقون على أرصفة شوارع بورسعيد والسد وخيرت ومارسينا، وحديقة الميدان الصغيرة، وجزيرة الساعة القديمة.

لم تتوقف حركة السيارات والناس، لكن الجميع كانوا ينتظرون حضور الجثمان للصلاة عليه، وحمله إلى مقامه الأخير.

قبل الجنازة، قام السيد عمر عبد الظاهر من رقدته القلقة وذهب إلى البغالة. قدَّم رجلاً وأخَّر الأخرى وهو يدخل درب بهلوان. تلفت حوله فلم يجد سوى بعض مارة عابرين لم يلتفتوا إليه ولم يعرفوه. تقدم نحو البيت القديم في آخر

الدرب المسدود، لم يرَ البغل «رهوان» مربوطًا في حديد شبَّاك غرفة طفولته وشبابه، ولا عربة الجاز رابضة إلى جوار الحائط. تردد للحظات وهو يرفع يده ليطرق الباب الخشبي. كسا وجهه الخجل وهو ينقر الباب ثلاث نقرات متتابعة، كما كان يفعل في صباه، وانتظر.

لم يُجِبه أحد، ولم يسمع صوتًا يأتي من الداخل.

بقدمه دفع الباب فأزَّ، وانفتح.

دخل البيت فلقي كل شيء على حاله، كل قطعة أثاث في موضعها كما هي وقد كسا التراب كل شيء، والحصيرة الممزقة الأطراف نفسها تحت قدميه. دفع باب غرفة والديه فانفتح بصعوبة، ولم يجد سوى فئران أزعجها وجوده فهربت تحت السرير بالي الفرش. تمزق قطن المرتبة والمخدات، وعلا التراب كل ما حوله، دهمته رائحة عطن قديم، لا يُحتمَل، تراجع إلى خارج الغرفة، ولم يتحرك ليرى ما حل بغرفته القديمة، وفرَّ من البيت مطأطأ الرأس، حزينًا كمن مات والداه من دقائق فحسب.

اجتاز درب بهلوان شاردًا، مخفيًا وجهه تحت نظارته السوداء، لم يجرؤ على سؤال أحد في البغالة عن مصير والديه، ولم ينتبه إلى وجوده أحد. غريب عابر كالعابرين ليل نهار. ولم يرَ وجهًا يعرفه. أسرع خطاه وهو يعبر سوق السمك، ويشق طريقه في سوق الخضار حتى اختفى في زحام الرجال والنساء، المشترين والبائعين.

قبل صلاة الظهر بقليل، وصل جثمان الحاج مرزوق إلى جامع السيدة زينب في صندوق من خشب الورد، مزخرف الجوانب بأغصان وفروع وزهور ذهبية، يعلوه غطاء من القطيفة والحرير. في وقار وضع أربعة شباب يرتدون جلابيب بيضاء، وطواقي شبيكة بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية، الصندوق عن يمين المحراب.

وأمام نعش الحاج مرزوق وقف فؤاد بك في بدلة حريرية سوداء، ورابطة عنقه معقودة بإحكام، وحوله وأمامه كل خدم القصر.

بعد صلاة الظهر، صلى الناس صلاة الجنازة، وخرج النعش من باب الجامع، محمولاً على أكتاف عشرة، يتبدلون كل لحظة.

- أجِرني.

فيتنحى له واحد.

كل شباب السيدة وكهولها تسابقوا على نيل شرف حمل الحاج مرزوق،

ولو لثانية واحدة.

وكان النعش يشق طريقه بين زحام الميدان وقد اختلط الرجال بالنساء بالأطفال، وتوقفت حركة مرور السيارات، وانسد طريق طابور السيارات الطويل في شوارع السد وخيرت وبورسعيد. فتح حملة النعش طريقًا إلى شارع مارسينا. كانوا يسيرون كأنهم يجرون، وما فوق أكتافهم حمل ريشة، فجرى الناس خلفهم، في دقائق معدودة اجتازت الجنازة ميدان الخليفة، وشارع الأشرف، وتوقفت عند جامع السيدة نفيسة، ثم دخلت ممرًّا ضيقًا يفضي إلى قلب المقابر العتيقة، ومقام الحاج الجديد.

عند ضريح جديد البناء له قبة خضراء جميلة، أنزل آخر الحاملين النعشَ في الحوش الواسع، وقد أظلَّت المشيعين أشجار كافور عالية، وشجيرات ورد بلدي وياسمين، وتناثرت من حولهم شجيرات الصبَّار.

حول النعش كان «فؤاد» بك، والشباب الأربعة في الجلابيب البيض، والخدم فحسب، ومُنِع الناس من الاقتراب أكثر.

بعد لحظة واحدة، دخلوا القبة، وفتحوا القبر.

من فوقهم كانت القبة جميلة، عالية ومزخرفة باسم الجلالة، بماء الذهب،

وبالبسملة، وبآيات كريمة، كُتِبت بخط بديع:

«ولقد كرمنا بني آدم»

«وعلمناه من لدنا علمًا»

«ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»

وُورِيَ الحاج مرزوق عشم الله الثرى، وقلوب عارفيه به معلقة.

وبعيدًا، في زحام ميدان السيدة نفيسة، كان السيد عمر عبد الظاهر وحيدًا وغاضبًا وحانقًا على فؤاد بك، يشق لنفسه طريقًا للخروج، فكما منعوه من صلاة الجنازة في جامع السيدة، منعوه من حضور الدفن.

«أيُّ إهانة يا عدوي، وأيُّ مكر؟ أخبرتني بموعد الجنازة لآتي فتطردني»؟!

واصل الخروج والهرولة حتى خفَّت حدة الزحام وهدأت الحركة من حوله، وابتعد عن الناس كثيرًا. وجد نفسه بين مقابر قديمة، كثيرة القباب والأضرحة والأسبلة، عن يمينه وعن يساره قبور تعلوها شواهد وشجيرات صبَّار، وأمامه فراغ صامت ساكن، هدَّأ من خطوه ووقف يتطلع حوله، وقد تحجر وجهه، تكاد عظامه تشق جلده، وهو يقلب في رأسه: «من سيرث الحاج مرزوق غيري؟ أأنت يا فؤاد؟»

سكت السؤال في رأسه للحظات، ولفظ:

- مستحيل.. مستحيل، ما أنت بإنسان!

وابتسم لنفسه كأن الأمر كله قد انتهى لصالحه.

وبلا سبب، خطر له أن المسكينة «سامية» امرأة شهية، جميلة، وستكون ممتعة جدًّا، في فراشه.

فضحك.

٢٢

كان إبراهيم مطر أول من هُرِع إلى مستشفى الهرم.

ذرع الطرقة أمام غرفة العناية المركزة جيئة وذهابًا، يداه متقاطعتان خلف ظهره، يحدق في البلاط العاري تحت قدميه مرة، وفي السقف المنخفض من فوقه مرات، وخالد عبد الباري يواصل غيبوبته تحت جهاز التنفس الصناعي، محاطًا بأطباء وممرضات، يعالجون نزيف قلبه الدامي.

«هل أرسلته أنا إلى الموت حين دللته على طريق يمر بعزبة سُوبِك؟! ألم أكُن أعرف أنها عزبة خطيرة، وبها أعداد من المجرمين، والمسجلين خطرًا؟ هل قتلته أنا»؟

ردد حائرًا بصوت مسموع:

- مش عارف.. مش عارف.

طفرت دموع من عينيه وسالت على خديه.

في قلب مطر يدور كلام يود لو يستطيع خالد أن يسمعه. كان قلبه يتحدث إلى هذا الصدر الذي تفصله عنه أمتار قليلة، وذلك القلب النازف، الذي لا يزال حيًّا، ينبض.

قال مطر لـ«خالد»، ولنفسه دون أن ينطق بشيء: « خالد.. لا عليك يا حبيبي، ولكن.. من البؤس أن تعتقد أن حياتك تعيسة، وقاسية، ومؤلمة، لأنه قد مرَّ بك كل ما حدث، فقد مرَّ كل شيء وسيمر غيره مثل حلم يا صاحبي. من الحماقة أن تعتقد أن لديك حياة سعيدة أو تعيسة، شقية أو هنية، أنت ليس لديك أي

شيء من هذا؛ فأنت الحياة ذاتها بلا وصف، الوجود نفسه بلا تعريف، وما عداك أوهام باطلة، لا حقيقة لها، ولا وجود».

ثم جرى على لسانه:

- ألف سلامة يا خالد.. قوم، قوم يا بطل.

على المقاعد البيضاء أمام غرفة العناية المركزة، كانت سامية تجلس ساهمة، سارحة، ووجهها بين يديها، يطوف بها خاطر واحد، ومطلب واحد، تريد أن تلمس زوجها مرة أخرى، أن تأخذه بين ذراعيها، تحتضنه، وتريح رأسه على صدرها، وهو حي، مفتوح العينين، يتنفس في راحة، حاضر، وموجود لم يمُت، ولن يموت قبلها أبدًا، سيبقى معها، هو من الأصل لها، لها وحدها، وسيبقى كذلك إلى أن ترحل، قبله.

فيما مضى كانت رغبتها الوحيدة أن يوصلها، لكن إلى أين؟

لا تدري إلى أيِّ أين، كل ما تعرفه أنه يجب عليه أن يوصلها إلى هناك، حيث ماذا؟ حيث القوة، حيث لا تشعر أنها ضعيفة ومهانة، وضحية بائسة، تدمي صدرها ضربات الأيدي الباطشة، وتركلها الأقدام. كان يجب أن يوصلها إلى حيث تكون مرتاحة ومبسوطة.

في تلك اللحظة، أدركت أنه لم يكُن ثمة نقص في حياتها مع خالد، لم يكُن ثمة شيء تريده فعلاً سوى أن تبقى مع هذا الرجل.

«أين هو الآن»؟

في غرفة العناية المركزة طريح الفراش، جثة لا زالت تتنفس، رغم الطعنة الغامضة التى لم ينتج عنها دماء ظاهرة.

وضعت وجهها بين كفَّيها وبكت بحرقة.

«خالد» فيه كل العيوب، لكنها كلها لا شيء، فلم يُكرِهًّا على شيء قط.

نشجت وبكت بحرقة أكبر.

«وأولادي»؟

مسحت دموعها بأطراف أصابعها، وهمست:

- يا رب.

حضر الريس بشندي يتوكأ على عصاه، وعلى كتف شاهين، ومعهما كريم وندى.

جلس بشندي إلى جوار ابنته:

- فيه إيه؟

أشارت إلى غرفة العناية المركزة، صامتة، وعيناها تخبرانه عنها.

أقبل مطر نحو كريم وابتسم له:

- أنت كريم؟
- آه أنا؟ مش عاجبك ولا إيه؟!
- لا عاجبني جدًّا.

أخذه بين ذراعيه.

- وأنتِ ندى.

هزَّت ندى رقبتها.

حمل كريم على صدره، وأخذ ندى في يده، وسار نحو نهاية الطرقة:

- أكيد عندهم شيكولاتة هناك.

كانت سامية مكروبة، وقد ضاق صدرها من انتظار المجهول، تنظر إلى السقف فوق رأسها، وهي تراه قد التصق برأسها، ولم يعُد ثمة فضاء، ليس ثمة هواء تتنفسه.

«ما الذي سيحدث؟ هل سيخرج من هذه الغرفة سالمًا»؟

من أعماقها خرجت من بين شفتيها:

- يا رب.

فردد خلفها بصوت خافت أبوها، وشاهين.

فركت يديها، وكانت عيناها معلقتين بالباب المقفول.

تذكرت ذلك الصباح البعيد الذي قال لها فيه: «تتجوزيني؟»

وسألها: «إذا جئت لبيتكم وطلبت يدكِ هل توافقين؟»

صمتت وذهب بصرها بعيدًا عن وجه خالد، ونظرت هناك.

على بعد خطوات منهما، في حديقة ميدان السيدة الصغيرة، كان كهل غريب، لا تعرفه، ككثيرين من زوار السيدة وأحبابها ومجاذيبها، يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة خضراء، يتمايل يمينًا وشمالاً وقد استغرق وحيدًا في الذكر. كان بديع الحركة يدور حول نفسه، وقد اختفى عن عينيه كل شيء حوله، الميدان والجامع والمباني والناس، اختفت الأرض تحت قدميه والسماء من فوقه. صامتًا يدور، يطوح ذراعيه في الفضاء كأنه يطير.

كان طويلاً كعمود برج الساعة القريب، وجهه إلى السماء يردد: «الله.. الله.»

من شرودها مع الكهل الذاكر في الحديقة، أعادها خالد عبد الباري، وكرر سؤاله:

- تتجوزيني؟

ابتسمت وضحكت، وقالت جريئة وواضحة مثل شمس ذلك الصباح:

- ما قُلتش من أول مرة ليه؟ كان لازم تستنى شهور طويلة عشان تنطق؟ إيه؟ مش عاجباك ولا إيه؟

خجل خالد عبد الباري ثم ضحك، ووضع يده على كتفها برقَّة، فرفعت يدها، ووضعت يدها فوق كفِّه، ونظرت في عينيه.

- بحبك.

أخيرًا فُتِح باب غرفة العناية المركزة وخرج منه أطباء وممرضات.

تعلقت أنظار سامية، وبشندي، وشاهين، بوجوه الأطباء، فرأوا ابتسامات رحيمة على وجوههم. ولما سألوا، سمعوا:

- احمدوا ربنا.

وقفت سامية على قدميها، أضاء وجهها، وغمرها فرح.

– تمت –